جيروزاليم

رواية

جيروزاليم

رواية

تأليف :

سماح الجلوى

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

تحرير أدبي:

سندس الحسيني

مراجعة لغوية :

سيد عثمان

رقم الإيداع : 2016/11995

الترقيم الدولي : 978-977-6376-95-3



إشراف عام :

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678 -0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

جيروزاليم

سماح الجلوى

رواية

-١-

ربيع ١٩٠٥

كان الساقي اليهودي مردخاي واقفًا بجانب قِربِهِ الجلدية أمام البئر وسط ساحة المسجد الأقصى حين شعر بدفء يدٍ فوق كتفه، فالتفت مردخاي فوجده إمام المسجد الأقصى:

- ألا ملأت خزانات المسجد أيها الرجل الطيب؟

- لن أملأها بعد اليوم بدون مقابل.

- اطلب ما شئت يا مردخاي.

- دعوة يا إمامنا، أود منك أن تدعو لي دعوة صادقة، أعلم أنك عند الله أقرب مني وربما يستجيب منك، إني رجل بسيط العقل قليل التعبد.

- وما حاجتك من الله أيها الرجل الصالح؟

- ذرية، أريد ذريةً، لكن زوجتي عاقر.

رفع الشيخ يديه نحو السماء داعيًا:

- يا رب العالمين ارزق عبدك مردخاي بذرية تقر بها عينُه ويهنأ لها قلبُه.

أمسك مردخاي بيد الشيخ يقبلها وهو يقول:

- بوركتَ شيخَنا، بوركت، وإني أشعر أن الله لمستجيب.

خرج مردخاي من ساحة المسجد حاملًا قِرب الماء متجهًا نحو حائط البراق؛ كي يوصل الماء لليهود العرب من سكان القدس

بعـد أن مـلأ خزانـات المسـجد الأقـصى. عنـد الحائـط لاحـظ مردخاي وجـود بعـض الأغـراب الأوروبيـين، احتقـن وجهـه غضبًـا وهـو ينظـر إليهـم نظـرة قاسـية مليئـة بـالازدراء، قـال في تنهـد: «لعنـة الله عـلى الأغـراب»، جـاءه صـوت أخـاه كوهـين صانـع الأحذيـة: «بـل مرحـى بالأغـراب، إنهـم أسـخياء يعطـون الإكراميـات بـلا مقابـل». التفـت مردخـاي نحـو كوهـين: «إني لا أجـد أي مصـدر ارتيـاح في وجودهـم، ثـم مـا أدراك بـأن إكرامياتهـم لليهـود العـرب كـرمٌ بـلا مقابـل، إن كان فيهـم خـيرٌ لمـا منعهـم السـلطان عبـد الحميـد مـن الدخـول لـلأراضي المقدسـة مقـرًّا قـراره الـرادع لمـا قـال: إنـني لـن أسـتطيع التخـلي عـن شـبر واحـد مـن فلسـطين؛ لأنهـا ليسـت ملـك يميـني، بـل ملـك شـعبي، لقـد ناضـل شـعبي في سـبيل هـذه الأرض ورواهـا بدمـه».

مـر أحـد هـؤلاء الأغـراب بمردخـاي وكوهـين، أشـار مردخـاي إليـه بسـبابته: «انظـر لغطرسـته، هـل تعـد ذلـك الفـأر الأبيـض واحـدًا مـن سـكان الأرض الأصليـين». أشـاح كوهـين بيـده وقـال: «وهـل ضروك بـشيء، إنهـم يسـتوطنون أقـصى شـمال القـدس»، ضحـك مردخـاي بسـخرية: «ألـم تسـمع بكـم الانحـلال والفسـوق في تلـك المسـتوطنة، إنهـم يـا كوهـين يعيشـون رجـالًا ونسـاءً كمـا الحيوانـات، يتعـاشرون بـلا زواج، حـتى أن الطفـل يولـد لا تعـرف لـه الأمُ والـدًا»، فـرك كوهـين يـده وهـو يقـول: «مـن الجيـد زيـارة تلـك المسـتوطنة، ألا ترافقـني يـا مردخـاي». أزاح مردخـاي كوهـين دافعًـا إيـاه بيديـه: «اغـرب عـن وجهـي أيهـا الطائـش الماجـن، لفظتـك الأرض المقدسـة وحلـت بـك لعنـة الله».

رجـع مردخـاي لمنزلـه، عاجلتـه ابنـة عمـه وزوجتـه نيلـلي تحمـل

القِـرب مـن عـلى كتفيـه:

- كيف كان حال يومك يا عزيزي؟

- جيد إلا من بعض الأغراب.

وضعت نيللي إناء الماء الدافئ أسفل أقدام مردخاي.

- هذا كثير يا نيللي.

أخفت نيللي وجهها وهي تقول:

- وهل يوجد عندي غيرك أهتم به.

أحاط مردخاي بيده كتفا نيللي:

- أريني وجهك يا نيللي، هل تبكين؟

سعلت نيللي سعالًا حادًّا وهي تقول له:

- لا يا مردخاي، بل هو السعال حين يأتيني على غفلة يخنقني.

- أريني ذلك المنديل يا نيللي.

- مردخاي، أنا بخير.

- أنـا أعلـم أنـك بخـير نيلـلي، اليـوم إمـام المسـجد الأقـصى رفـع يديـه لي بالدعـاء أن يرزقنـا الله بالذريـة.

ازداد سـعال نيلـلي، فضمهـا مردخـاي، ثـم وضعهـا بجانبـه عـلى الأريكـة سـاندًا ظهرهـا بوسـادة عريضـة، ابتسـمت نيلـلي لوجـه مردخــاي المنزعــج:

- ربما سيرزقك أنت يا مردخاي، لكن أنا ...

سـحب مردخـاي المنديـل مـن عـلى ثغـر نيلـلي، نظـر نحوهـا متأثرًا وقـد اكفهـر وجهـه وهو يقـول مذعـورًا:

- إنها دماء، تلك دماء يا نيللي، منذ متى وأنتِ تنزفين.

شدت نيللي على يد مردخاي:

- لقد استفحل بي المرض يا مردخاي ولا أمل.

- سأحضر لك طبيبًا.

- أليس من المستحسن أن تكون بجانبي، طوال حياتك وأنت بجانبي يا مردخاي، لا تتركني في تلك الساعات بل ربما الدقائق أو الثواني أو اللحظ...

وقبل أن تنهي جملتها كانت قد سلمت روحها لبارئها.

-٢-

بعد مرور عامين

كان لا يـزال مردخـاي يعمـل بسـقاية اليهـود المرتاديـن لحائـط الـبراق والحجـاج المسـيحيين بالإضافـة لمـلء خزانـات المسـجد الأقـصى راضيًـا بمـا يمنـون عليـه بـه مـن المـال. في أحـد الأيـام كان مردخـاي يسـقي رواد الحائـط مـن اليهـود، وكان مـن بينهـم فـوج يمـاني، مـر مردخـاي عـلى الفـوج يمـرر المـاء عليهـم واحـدًا واحـدًا، فاسـتوقفه أحدهـم:

- هل تعمل هنا منذ زمن؟

- نعم أعمل بالسقاية وورثتها عن أبي وجدي.

- هل لديك ابن؟

- لم يرزقني الله بأي ولد.

- ياللأسف.

- لما سألتني إن كان عندي ابن أم لا؟

- إني رجـل لا أهـل لـه ولا نسـب إلا مـن ابنـة واحـدة تدعـى آسـيا، يتيمـة الأم وإني أخـاف عليهـا غـدر الزمـن إن تركتهـا، إن أحـوال اليهـود في أي بلـد غـير جيـدة، خاصـة وإني أعيـش في بلـدة أنـا اليهـودي الوحيـد فيهـا، وإني سـألتك إن كان لـك ابـن حـتى أزوجهـا لـه واهبًـا إياهـا وذريتهـا لـلأرض المقدسـة.

طأطـأ مردخـاي رأسـه ثـم رفعهـا عـلى مهـل محـاولًا تفـادي أعـين الرجـل اليمـاني لمـا قـال:

- هل تزوجني إياها؟

- لا أدري، لماذا من دون اليهود في القدس سألتك أنت إن كان لديك ولد أم لا، ربما لذلك حكمة لا يعلمها إلا الله وحده، اسمع يا رجل انظر لتلك الشجرة بجانب البئر، هناك تجلس فتاة ملتفة بملاءة سوداء تلك هي ابنتي آسيا.

ثم نظر إليه الرجل مارًّا بجسده وقال:

- ألا تجد نفسك كبير السن على ابنتي، إنها فتاة في العشرين من عمرها، جميلة رغم مسحة اليتم على وجهها، رقيقة رغم خشونة الحياة التي تعيشها، لا تحمل في الحياة أي خبرة سوى خبرتها في خبز البوريك وطبخ الشفوت.

- وأنا رجل رغم شيب شعري، غض القلب ورغم خشونة آدمي لين الطبع، ورغم كبر سني يكسر سني اللوز، زوجتي ماتت منذ عامين ومن بعدها أعيش وحيدًا.

- ها هي آسيا هناك لنسألها. تعال معي.

ما أن رأت الفتاة الرجل الغريب حتى انكمشت بداخل ملاءتها ململمة أطرافها.

- آسيا هل أذيتك في يوم ما أو قسوت عليك؟

نظرت الفتاة من وراء غلالة غطت وجهها إلى أبيها وقالت على استحياء:

- لا يا والدي.

- إن هذا الرجل تقدم لخطبتك، وإني لا أرى فيه عيبًا فما رأيك؟

صمتت الفتاة.

- أجيبيني يا زهرة عمري.

وبصوت منكسر قالت آسيا:

- كما تشاء يا والدي.

- بل كما تشاء إرادتك بنيتي.

- إني أخشى فراقك والدي.

- ستفارقينني أبيتِ أم شئتِ، وهل لنا على الموت سلطان، لكني أردت استوداعك في أرض طاهرة تطمئن روحي فيها عليك، ارفعي عن وجهك غلالتك وانظري لهذا الرجل الطيب.

رفعت آسيا الغلالة، ثم رفعت رأسها نحو مردخاي الذي استقبلت عيناه عيناها السوداوين الواسعتين:

- حتى إن أشعر الشعراء لا يجد وصفًا لجمالك يا آسيا، إني أسحب طلبي أيها الرجل اليماني فوالله ما يستحق ابنتك سوى السلطان بنفسه.

غطت آسيا وجهها بسرعة خجلًا.

- لكن لن يقدرها سواك يا مردخاي. ماذا قلتِ يا ابنتي؟

- قلت لك من قبل كما تشاء يا والدي.

-٣-

شتاء عام ١٩٠٩

في منزل حجري قديم عند التل الغربي بجانب أسوار القدس كانت تعيش آسيا مع مردخاي، وكان نهار يوم مضبب أسود ينبئ بهطول أمطار، حين وقفت آسيا في منتصف صحن الدار بجانب شجرة البلوط القديمة واضعة يدها على بطنها، فارطة يدها الأخرى باتجاه السماء تستقبل ندعات المطر وتدعو في سرها أن يجعل من نسلها من يعز اليهود ويحقق آمالهم. إنهمر المطر الغاضب من السماء يلدع يدها، كما لو كان سوطًا مدهونًا بالزيت. مع أول هدرة رعد جاءتها آلام الطَّلْقِ فجلست آسيا في مكانها بجانب شجرة البلوط.

أرسلت القابلة إلى مردخاي خبر ولادة آسيا مع طفل صغير، أَبَى مردخاي أن يرحل قبل أن يدعو بجانب الحائط من أجل المولود، كانت العاصفة قد اشتدت وفي لفحة منها هوى مردخاي متدحرجًا لبعض أمتار، لم يستطع مردخاي الثبات حتى يكمل دعائه فقرر الذهاب لآسيا، كان المطر يقرع عبر الأزقة الضيقة ذات الأرضية الحجرية فتنسال المياه كشلالات صغيرة تسحل مردخاي، حتى أنه وإلى وصوله للمنزل كان قد تمزق ثوبه وامتلأت آدامه بالجروح.

هال مردخاي منظر آسيا وهي جالسة في الطل متكأة على شجرة البلوط متوسدة جزعها فوق السطح الحجري، ممددة أرجلها أمام القابلة التي نهرها مردخاي.

- أيتها القاسية أما استطعتِ إدخالها؟

عبس وجه القابلة وقالت:

- أدخلها أنت إن استطعت.

حـاول مردخـاي أن يزحـزح آسـيا لكنـه لـم يسـتطع، فلـم يجـد بـدًّا سـوى المكـوث بجانبهـا. مـع كل رعـدة وكل ومضـة كانـت تـصرخ آسـيا بـكل عزمهـا، والعاصفـة في كل مـرة كانـت تـؤتي أقـصى مـا عندهـا حـتى أن شـجرة البلـوط الراسـخة منـذ قـرون بـدا أنهـا لـم تعـد قادرة عـلى الصمـود أمـام عتيهـا. مـرت سـاعة تلتهـا سـاعة أخـرى حـتى أن القابلـة فقـدت الأمـل، وألـم الحـال بمردخـاي أن تمـنى المـوت لآسـيا عوضًـا عمَّـا تعانيـه مـن آلام متلاحقـة، نظـرت آسـيا نحـو مردخـاي وكانـت عيناهـا حمراويـن تـكاد تقطـر دمًـا بـرزت مـن وجههـا المنتفـخ بزرقـة قاتمـة فـوق شـفتين سـوداوين، خيـل لمردخـاي أن آسـيا قـد مسَّـها الشـيطان، فارتـد زاحفًـا عـلى أمشـاط قدميـه.

- لـن يـأت هـذا المولـود بخـير يـا مردخـاي، وإني أتمـنى مـوتي قبـل رؤيـاه، فمنـه سـتنبت نبتتـان إحداهمـا خـير والأخـرى شر، وإني أرى أن نبتـة الـشر سـتقضي عـلى الأخـرى ولـن يبقـى إلَّاهـا.

أغمضـت آسـيا عينيهـا إلى الأبـد لتصـدح في المـدى صرخـةُ حيـاة أخـرى، رجـع مردخـاي ببـطءٍ وحـذر يتحسـس جثـة زوجتـه، يشـوش تفكـيره صراخ المولـود.

- كفى أيها اللعين يا من قتلت أمك يوم ولادتك.

كان يقولهـا وهـو يبـكي بـين يـدي آسـيا يتـضرع لله أن يحيهـا مـرة أخـرى، صراخ المولـود كان أعـلى حـتى مـن صـوت الـبرق وثـورة الطبيعـة، فلملـم حولـه بعضًـا مـن نسـوة الحـارة ورجالهـا الذيـن

أتـوا لمواسـاة مردخـاي في فجيعتـه.

في صبـاح اليـوم التـالي وبعـد دفـن آسـيا وتـلاوة صـلاة القاديـش ناولـت إحـدى النسـاء مردخـاي لفافـة فيهـا الطفـل:

- خذ يا مردخاي ابنتك هي آخر ما تبقى لك من آسيا.

حمـل مردخـاي ابنتـه نظـر لوجههـا الـبريء ففرحـت نفسـه لثـوانٍ، بعدهـا تذكـر نبـوءة آسـيا، فحمـل الصغـيرة بـين كفيـه رافعًـا إياهـا نحـو السـماء:

- هـي أورشـا يـا إلهـي ابنـة الأرض المقدسـة سـتعيش حـتى المـوت مـبرأة لـلأرض وحـتى رجوعهـا إليهـا.

وهكذا نذر مردخاي أورشا للقدس.

وآزر أهـل الحـي مردخـاي بالبحـث لـه عـن مرضعـة لأورشـا. وقـد نصحـوه بميريـت وهـي امـرأة مسـيحية تسـكن ببيـت لحـم، امـرأة ولـود وكانـت قـد نـذرت بأرضـاع طفـل يتيـم بجانـب كل طفـل تلـده تـبركًا بـه؛ لـذا طلـب منـه الجـيران أن يذهـب إليهـا فقـد توافـق عـلى أخـذ أورشـا عندهـا وحـتى فطامهـا.

تبرعــت أحــد النســاء المقدســيات، وهــي زوجــة صديقــه عبــد الرحمــن بتوصيــل أورشــا لميريــت والاعتنــاء بهــا طــوال الرحلــة الطويلــة.

في منزل ميريت

كانت ميريت تقرأ في الكتاب المقدس حين طرقت رقية الباب، فتحت الباب:

- اسمي رقية من القدس.

- ادخلي أختي.

جلست رقية عند أقرب كرسي كاشفة عن وجه أورشا.

- أريد منك أن تنظري لذلك الوجه.

حملت ميريت الرضيعة بين يدها.

- يا إلهي إنه يضع كفه كله بداخل فمه، إنه جائع.

- بل هي جائعة، إنها فتاة. ماتت أمها يوم ولادتها فجر اليوم.

- ياللمسكينة.

- سمعنا أنك مرضعة.

- لقد فطمت آخر أبنائي منذ ستة أشهر، لكن لا تقلقي، ابنتي وضعت منذ ثلاثة أيام أظنها لن تمانع إن أرضعت اليتيمة، قلتِ لي ما اسمها؟

- اسمها أورشا ابنة مردخاي يعمل ساقي في ساحة المقدس.

- إنها إذا فتاة مقدسية مباركة.

نادت ابنتها

- ماري، ماري.

جائت ماري من أحد الغرف.

- نعم يا أمي.

- احملي تلك الطفلة المباركة، أرضعيها مع أبانوب.

بعدما رجعت رقية للقدس أسرع زوجها عبدالرحمن إلى صديقه مردخاي يخبره بأن أورشا في عناية الله في الأول، ومن ثم رعاية ماري ابنة ميريت. كان مردخاي لا يزال جالسًا أسفل شجرة البلوط، وحين أحس مردخاي باقتراب عبدالرحمن منه قال بصوت مسموع:

- انه لأمر معذب أن يفقد المرء قلبه وعقله على التوالي. كانت نيللي عقلي وآسيا قلبي.

- بارك الله في أورشا يا مردخاي كن قويًّا من أجلها.

جاء صوت كوهين:

- هل سمعتم الأخبار؟

سأله عبدالرحمن

- أي أخبار؟

- لقد تم عزل السلطان عبدالحميد.

عض عبد الرحمن على شفتيه أمام كوهين.

- وهل هذه أخبار تليق بأن تقال أمام رجل ملكوم كمردخاي، أنت تعلم كم يقدر مردخاي السلطان عبد الحميد، إلهي، أي النوائب تلك؟!

رفع مردخاي رأسه نحو السماء بعيون مغرورقة في الدموع.

- إنما المصائب إن أتت، أتت جماعات، رحمتك يا الله. هل هذا جزاء أنه ربط أجزاء الدولة العثمانية من المدينة المنورة إلى فلسطين مرورًا بالشام وحتى تركيا، أي عقل يسمح بذلك الظلم.

أردف عبـد الرحمـن وكان عضـوًا بـارزًا في جمعيـة مناهضـة للهجرات اليهودية:

- إنـه عقـل زعمـاء جمعيـة «تركيـا الفتـاة» بقيـادة كمـال أتاتـورك، والله إنهـا لحـرب بيننـا وبينهـم.

ثم وقف عبدالرحمن هاتفًا بصوت عالٍ:

- لا للخونة، لا للخونة.

ومنـذ تلـك اللحظـة قامـت الثـورات الشـعبية في القـدس وربـوع فلسـطين كلهـا، وقـد ازداد وطيسـها بعدمـا توطـد نفـوذ اليهـود في الحكومـة التركيـة، بجعـل السـلطة محكومـة في ثـلاث وزراء يهـود مـن أصـل ثلاثـة عـشر وزيـرًا وقـد دنـا الثـوار مـن النـصر إذ قتلـوا أعضـاءً مـن الحـزب والجمعيـة وأعـادت السـلطان.

إلا أن كمـال أتاتـورك لـم يتوقـف طموحـه، وحلـم بالاسـتقلال بحكـم تركيـا، فحـرك جيشًـا مـن سـيلانيك في تركيـا مسـقطًا حكـم السـلطان عبدالحميـد ونفيـه خـارج الخلافـة العثمانيـة. مـات الكثـير مـن شـباب العـرب في تلـك الحـرب وعـدد كبـير مـن المجاهديـن الفلسـطينيين، بعدهـا بـدأت النـاس تشـعر بتحـرك مشـاعر الكراهيـة تجـاه اليهـود كلهـم، ومـن ضمنهـم يهـود العـرب خاصـة في فلسـطين بعـد إصـدار حـزب الاتحـاد والـترقي الحاكـم قانونًـا مفـاده السـماح بالهجـرة اليهوديـة وشراء الأراضي عـلى أرض فلسـطين.

-٤-

شتاء عام ١٩١٠

أرسلت ميريت رسولًا لمردخاي تطلب حضوره على وجه السرعة، ارتعشت أطراف مردخاي خوفًا أن يكون قد ألمَّ بوحيدته خطب ما، ترك قِربَه في باحة المسجد وهرع مسرعًا لبلدة تل الربيع. قرع باب المنزل بتواصل غير منقطع، من داخل المنزل:

- اللهم سترك يا رب، صبرك أيها الطارق.

فتحت ميريت.

- مردخاي.

- هل أورشا بخير؟

- ادخل.

دخل مردخاي.

- هل حدث مكروه لابنتي.

- اجلس.

قالتها بلهجة حادة ودخلت أحد الحجرات.

بعدها بدقائق خرجت وبيدها أورشا طفلة تبدأ خطواتها الأولى بتعثر تمسك بأحد يديها كسرة خبز.

- إنها تمشي، حبيبتي أورشا تعالي في حضن والدك.

- اندفعت الصغيرة ترفع رجل وتخفض الأخرى كبجعة صغيرة.

- ماتخاي بابا.

قالتها بطريقتها الطفولية بينما كان يحملها مردخاي.

- إنها الآن تستطيع قضم الخبز ومضغه.

- شكرًا ميريت جزاك الله خيرًا لحسن صنيعك بتلك اليتيمة.

- لـم أرسـل إليـك لتشـكرني، كنـت أود لو وصلتـك الرسـالة بمغزاها الصحيـح، هـا هـي ابنتـك تمـشي وتقضـم الخـبز أظـن يكفيهـا هـذا، إن مـاري فطمتها وتسـتطيع أخذهـا الآن.

- لكنهــا لا تــزال صغــيرة، لقــد عرضــت عليــكِ مــن قبــل أجــرة رعايتهــا، لكنــكِ رفضــت، هــا أنــا أجــدد عــرضي، احســبي العــام الفائــت والعــام المقبــل معــه لــو شيءتي.

- ليس الأمر كما تعتقد.

- ما الأمر إذا؟

فقدت ميريت أعصابها وصرخت في وجه مردخاي قائلة:

- بسـبب بـني جنسـك قتـل زوج ابنـتي مـاري في الحـرب، فهـل مـن المعقـول أن ترضـع مـاري ابنـة قاتـل زوجهـا.

- بينمـا كانـت الحـرب مشـتعلة في تركيـا، كنت أنا أسـقي المسـيحيين والمسـلمين في القـدس، مـا شـأني أنـا حـتى لـو كان مـن قتـل زوج ابنتـك هـو أخـي نفسـه.

- أنتــم جميعًــا فصيــل واحــد، خــذ ابنتــك واخــرج مــن بيــتي مردخــاي.

حمـل مردخـاي أورشـا راجعًـا بهـا، في اليـوم التـالي أخـذ معه أورشا إلى البـئر حامـلًا القـرب عـلى كتفـه، نظـر مردخـاي نحـو أورشـا والقرب بتــأسي، وظــل واقفًــا بــلا حركــة، بــلا أي إحســاس ســوى بذلــك

الشـعور بالقفـر وجفـاف حياتـه، متذكـرًا الأمـس القريـب حـين لـم تفـرق يهوديتـه بينـه وبـين أي مسـلم أو مسـيحي، فلقـد ولـد يهوديًّا مزراحيًّا منتميًا لـلأرض المقدسـة منـذ أن هاجـر أجـداده مـن الجزيـرة العربيـة قبـل مئـات السـنين، شردتْ مـن مردخـاي دمعـة لحقهـا سـيل مـن الدمـوع لـم يسـتطع إيقافـه.

- هل تبكي يا مردخاي.

- الشيخ سعيد الدين الخطيب، عذرًا فلم أرك.

- ما بك أيها الأخ الصالح؟

- هـل تذكـر يـا شـيخنا يـوم دعـوت لي بالذريـة، ليلتهـا توفـت زوجـتي نيلـلي، بعدهـا بعامـين رزقـت بزوجـتي الثانيـة آسـيا، وقـد رزقـني الله منهـا بأورشـا لكـن المسـكينة توفـت يـوم ولادتهـا، وهـا أنـا غـارق في الحـيرة مـا بينهـا وبـين قِـربِي.

- لتتزوج يا مردخاي.

ضحك مردخاي وهو يمسح بكفيه وجهه.

- ماتت على يداي زوجتان، رفقًا بالنساء شيخنا.

_كيف ستعيش إذا بدون عمل؟

- لا أدري.

لحظات سكون، ثم قال أمام المسجد.

- لدي أبناء كثير، والمنزل يتسع لأكثر هاتها تتربى بينهم.

أنـار وجـه مردخـاي بالفرحـة أن شـعر بـالأرض المباركـة مـا تـبرأت منـه وأنـه لا يـزال فلسـطينيًّا.

ترعرعـت أورشـا بـين جنبـات المقدسـات جميعًـا، عاشـت في مـنزل الشـيخ سـعد الديـن يهوديـة فلسـطينية الهويـة حـتى النخـاع. لـم

يكـن أحـد يميزهـا وهـي طفلـة عـن أقرانهـا المسـلمين أو المسـيحيين حـين كانـت تلعـب معهـم، فالجميـع قديمًـا كانـوا فلسـطينيين، الجميـع كانـوا أصحـاب الأرض.

-٥-

ربيع عام ١٩١٥

في منزل عبدالرحمن، كان البيت يعج بالضيوف من أهل القدس في عقيقة ابنه، كان لابد أن تتطرق الجلسة للسياسة، وتبتعد عن كونها سهرة أنس وسمر طالما هي في منزل عبدالرحمن، لكن سرعان ما احتد النقاش بين عبدالرحمن والشيخ سعد الدين الخطيب إمام المسجد الأقصى، لما عبر كل منهما عن رأيه في دعم الشريف حسين أمير الحجاز الذي تمرد على الخلافة العثمانية، ناقدًا تصرف العرب أن آزروا الخلافة العثمانية التي ورطها الضباط الاتحاديون لتكن شريكًا لألمانيا في الحرب العالمية الأولى رغم عزلها للسلطان عبد الحميد، والقوانين التي سنتها بالسماح لليهود بالهجرة لفلسطين؛ لذا خرجت حركة الأمير حسين بعدما تيقن جزء كبير من العرب أن مساندتهم للأتراك ما هي إلا مساندة لليهود الذين يملكون مقدرات الدولة العثمانية وأمورها بشكل غير مباشر؛ إذ ورطوها في تلك الحرب ليس لشيء فيه مصلحة للدولة إنما لاستنزافها وإسقاطها.

- هل ما زلت على رأيك شيخ سعدالدين في مناصرة الأمير حسين.

- إن لم ننصر إخواننا المسلمين يا عبدالرحمن إذا من سننصر؟ يهود الدونمة مثلًا. عليك الانضمام للجمعية العربية الفتاة كأي مواطن عربي عنده ولاء لقوميته العربية يا عبدالرحمن.

- ولائي الأول والأخـير لديـني شـيخ سـعدالدين وليـس لقوميـتي، وهـل تنكـر أن الأمـير حسـين رفـض إعطـاء الثـورة العربيـة طابعًـا إسـلاميًّا مقتـصرًا عـلى كونهـا عربيـة فقـط.

- وهـل يعيـش عـلى الأرض فئـة واحـدة؟ إن معنـا مسـيحيين ويهود يعيشـون على نفس الأرض.

- لـم يخطئ الأمير حسـين حـين قـال: نحـن عـرب قبـل أن نكـون مسـلمين، أليـس كذلـك؟

- للرجـل أن يقـول مـا يشـاء يـا عبدالرحمـن الله أعلـم بنوايـاه. لكنـه حتمًـا يريـد لنـا الخـلاص، إن الأتـراك بـدأوا يحرفـون في الشريعـة بشـكل لا يحتمـل السـكوت عليـه؛ لـذا حتـمٌ علينـا الانفصـال.

- للديـن ربٌّ يحميـه يـا سـعد، وليـس هـذا مـبررًا للتحالـف مـع بريطانيـا وهـل سـتحمي الإسـلامَ بريطانيـا؟!

- العالـم كلـه منقسـم يـا عبدالرحمـن ووجـب عـلى الأمـير حسـين البحـث عـن قـوة يسـتند إليهـا، مـن أيـن لنـا الخـبرة والتمويـل للدخـول في ثـورة كبـيرة كتلـك. الرجـل نوايـاه حسـنة يـا عبدالرحمـن، إنـه يفعـل كل مـا في مقـدوره، وهـل فـزع أحـدٌّ غـيره لنـصرة العـرب.

- الله أعلـم بنوايـاه، ولكـن نوايـا بريطانيـا أبـدًا لـم ولـن تكـن حسـنة.

لـم يعجـب الحديـث الشـيخ سـعد الديـن؛ لـذا قـرر الاسـتئذان والرحيـل. عنـد البـاب أوقـف مردخـاي الشـيخ سـعد الديـن:

- مساء الخير شيخنا الطيب.

- مساء الخير مردخاي.

- لقد أتمت أورشا ستَّ سنوات.

- الأيام تمر سريعًا.

- شكرًا لرعايتك لها.

- أورشا فتاة طيبة ومطيعة مردخاي.

- إني أود استرداد الأمانة سيدي.

- أمانتــك كانــت مصانــة حــتى يــأتي اليــوم لتطلبهــا، تعــال غــدا وخذهــا مــن المــنزل إن شــاء الله.

-٦-

خريف ١٩١٩

كانت أواخر الخريف وكان الجو ينبئ بشتاء قارس. الماء في البئر بارد والخزانات التي كانت تملأ في الصيف مرتين وثلاثة بالكاد تملأ مرة واحدة، ورواد الحائط والحجاج الذين كانوا يطلبون الماء على الدوام شح طلبهم. قلة العمل جعلت مردخاي يعمل لمنتصف النهار قاضيًا جزءًا من النهار قبل رجوعه لمنزله في قهوة يلعب الطاولة ويسمع أخبار الحرب.

دخل شابان القهوة وأخذا يتحدثان عن أخبار الحرب، وكان فيهما على ما يبدو شاب قد عاد للتو من الحرب ودار بينهما ذلك الحوار على مرأى ومسمع من مردخاي:

- أي حزب تعتقد قد يكسب الحرب يا علي.

- بعد دخول روسيا الحرب لا مجال للاستطلاع الحرب محسومة يا شباب.

- أنت مخطئ يا علي، لينين أقام الدولة الشيوعية وأسقط القيصر، على روسيا الانسحاب إن أرادت ترتيب أمورها الداخلية.

- وهل ينسحب الدب الأبيض؟

انتبه مردخاي لكلام الشابين، وكان مهتمًّا بتتبع أخبار الثورة العربية، جر كرسيًّا وجلس بجانبهما:

- أعتذر منكما إن تدخلت في حديثكما.

- لا عليك أيها الأخ.

- اسمي مردخاي، فيما يبدو أنكما غرباء.

نظر الشابان نحو بعضيهما فأردف مردخاي.

- لا تقلقا أعلم أن يهود الخارج قد شوهوا صورة يهود الداخل. هل تعرفان أي شيء عن الثورة العربية؟

- بريطانيا خانت العهد مع الأمير حسين، الصحف المصرية فضحت كل شيء عن اتفاقية سايكس بيكو التي ما عادت سرية، والتي أبرمت بين فرنسا وبريطانيا. وها هو الأمير فيصل قائد الجيش العربي ابن الأمير حسين والإنجليز يتسابقان على دخول فلسطين من أمام العقبة.

انقبض قلب مردخاي وشعر بتنميلة تسري في جسده، ثم قال في حنق:

- لهم الله الثوار من خلفهم نيران دولة الخلافة، ومن أمامهم بحر الإنجليز وليس معهم سترة نجاة، ولا هم مدربون على العوم.

- الأيام المقبلة عصيبة، وعلينا جميعًا أن نهيئ أنفسنا لحرب قد تطول، وربما لن تنتهي في القريب العاجل.

رجع مردخاي منزله مهمومًا مكتئبًا مما سمعه، ليجد ابنته أورشا وقد جلست في ركن مظلم.

مر عامان منذ أن تركت أورشا منزل الشيخ سعد الدين، وانتقلت للعيش في كنف والدها مردخاي، لم يئل مردخاي جهدًا في إسعاد ابنته الوحيدة، وإن كلفه ذلك العمل ليل نهار. ورغم سخاء عاطفة ويد مردخاي على أورشا إلا أن الصغيرة عانت من شدة خوف أبيها عليها. إذا ما خرج أغلق عليها الأبواب، وإذا

مـا اجتمـع الأطفـال أمـام بـاب البيـت طالبـين أورشـا للعـب معهـم نهرهـم مردخـاي. وعـلى هـذا الحـال عاشـت أورشـا.

_- ألم تشعري بوقع خطواتي حين أتيت يا أورشا؟

- بلى .... سمعت.

- لمـاذا لـم تقبـلي عـليَّ تسـألينني إن كنـت أحـضرت لـك الحلـوى أم لا؟

- لأن الحلـوى لـم تعـد هـي الـشيء الـذي يسـعدني؟ الـذي يسـعدني هـو حريـتي.

- فتـاة في عمـرك تتحـدث عـن الحريـة، مـن أيـن أتيـتِ بتلـك الكلمـة يا أورشـا؟

- من دار الشيخ سعد الدين حين كنت أعيش معهم.

- غدا سأذهب بك للشاطئ؟

- وبعد غد؟

- سنتجول في الحديقة.

- وبعد غد الغد؟

- ألا يكفي يومين من التنزه.

- أريد الخروج كل يوم.

ذهب مردخاي حيث أورشا جالسة رافعًا رأسها ناحيته.

- أورشـا انظـري إليَّ واسـمعيني، حـين ولـدتي نذرتـكِ لـلأرض المقدسـة، هـل تعلمـين مـا معـنى نـذر؟

- لا.

- النـذر هـو مثـل القربـان أن تهـب شـيئًا بـدون أن تطلبـه ثانيـة،

هـل تمانعـين الذهـاب للمعبـد.

- لا أمانع يا أبي.

كانـت أورشـا تظـن أن المعبـد هـو نزهـة أخـرى مثـل الشـاطئ والحديقـة، وأن أي مـكان بعيـد عـن الـدار يمثـل الحريـة، لـم تكـن تـدري الصغـيرة مـا يـدور في عقـل والدهـا، كان مردخـاي يفكـر في المسـتقبل، فلـو دخـل الإنجلـيز أرض فلسـطين، فإنهـم ممـا لا شـك فيـه سـيفتحون بـاب الهجـرات عـلى مصراعيـه، وسـتزداد أعـداد اليهـود الأغـراب في القـدس عـن عـدد اليهـود العـرب، وأنهـم إن أتـوا فسـيأتون بعاداتهـم وأخلاقهـم وحتمًـا سـتختلط أورشـا بهـم؛ لأنـه لـن يقـدر عـلى حبسـها في المـنزل أكـثر مـن ذلـك، الفتـاة بـدأت تكـبر، وإن كانـت سـمعت كلمـة حريـة مـن قبـل فقـد بـدأت اليـوم تفهـم معناهـا؛ لـذا فـان المعبـد كان خـير وسـيلة كمـا ظـن مردخـاي لحمايـة ابنتـه.

في اليـوم التـالي أخـذ مردخـاي أورشـا متجهًـا للمعبـد وفي الطريـق وجـد جماعـة مـن الشـباب تجـري وهـي تهتـف مبـشرة: «لقـد دخـل الثـوار العـرب فلسـطين، دخـل الثـوار فلسـطين، انتـصر الأمـير حسـين والأمـير فيصـل» التـف أهـل القـدس حـول الشـباب رافعـين أيديهـم مكبريـن، ومـا كان مـن مردخـاي إلا أن رفـع يديـه هـو الآخـر مكـبرًا «الله أكـبر، الله أكـبر».

عمَّـت الفرحـة ربـوع القـدس في سـاحة المسـجد الأقـصى وحـول الكنيسـة وأمـام المعبـد، وكان الرجـال في الشـوارع يهنئـون بعضهـم البعـض، والنسـاء تـزور بعضهـا في المنـازل، ومـن النـاس مـن ذبـح الذبائـح، ومنهـم مـن وزع الحلـوى مباركـة بدخـول العـرب وتنبَّـأ بقيـام دولـة عربيـة كـبرى تضـم الشـام ومـصر والسـعودية.

عـدل مردخـاي عـن فكـرة إلحـاق أورشـا بالمعبـد وقـرر لهـا المكوث بجانبـه ومسـاعدته في السـقاية. كانـت أورشـا تحمـل القـرب بجانـب والدهـا تمـلأ معـه الخزانـات والفناطيـس، ثـم تصـب المـاء مـن القـرب إلى الأواني النحاسـية معلقـة الأكـواب في حـزام حـول خصرهـا، تمـر بهـا عـلى الحجـاج المسـيحيين ومرتـادي الحائـط مـن اليهـود.

لـم تلبـث تلـك الفرحـة بضعـة أيـام حـتى انطفـأ وهجهـا، وبـدأ الخـوف والترقـب يخيـم فـوق أرض القـدس مظلـلًا أهلهـا بالهـم والسـوء.

كان الهـدوء يعـم أرجـاء الباحـة الواسـعة وقـت الظهـيرة لمـا ظهـر كوهـين، كان مردخـاي يمـلأ في الأواني، وقـف كوهـين أمامـه عاقـدًا سـاعديه فـوق صـدره، اعتـبر مردخـاي وجـوده كأن شـيئًا لـم يكـن، وأخـذ يمـلأ في قِربِـهِ غـير آبـهٍ بكوهـين:

- ألن ترحب بأخيك يا كوهين.

- منذ أن استوطنتَ مع هؤلاء الأغراب الأنجاس تبرأتُ منك.

ضحك كوهين.

- هـؤلاء الأنجـاس كمـا تقـول سـبب الخـير عـليَّ، انظـر لتلـك الأمـوال.

ثـم أخـرج مـن حافظتـه رزمـة أوراق ماليـة، وبسـخرية قـال لـه مردخـاي:

- إنهـا أمـوال قـذرة، إنـك مجـرد قـوَّاد رخيـص مـرابي لعـين. تلـك الأمـوال أمـوال الفلسـطينيين الذيـن أجبرتهـم عـلى رهـن أراضيهـم.

- لـم أجـبر أحـدًا، بـل إن نزواتهـم هـي الـتي أجبرتهـم، لـم يسـتطيعوا كبحهـا حـين سَـالَ لعابهـم وجـرى ريقهـم عـلى بنـات

اليهـود، فرهنـوا أراضيهـم لقـاء مصاحبتهـن، لا تتهمـني بإجبارهـم إنمـا أنـا وسـيط.

- اغرب عن وجهي يا قذر.

ثم خلع مردخاي حذاءه ورماه في وجه كوهين.

- لـن أغـرب قبـل أن أحـرق قلبـك، سـمعت أنـك كنـت ترقـص وتهلـل مـع النصـارى والمسـلمين بعـد دخـول الأمـير فيصـل فلسـطين، اسـمع ذلـك البيـان، اسـمع:

أخرج كوهين لفافة ورق من جيبه وأخذ يقرأ ما فيها:

في الثاني من نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٩١٧

عزيزي اللورد روتشيلد

يـسرني جـدًّا أن أبلغكـم بالنيابـة عـن حكومـة جلالتـه، التصريـح التـالي الـذي ينطـوي عـلى العطـف عـلى أمـاني اليهـود والصهيونيـة، وقـد عـرض عـليَّ الـوزارة وأقرتـه:

«إن حكومـة صاحـب الجلالـة تنظـر بعـين العطـف إلى إقامـة مقـام قومـي في فلسـطين للشـعب اليهـودي، وسـتبذل غايـة جهدهـا لتسـهيل تحقيـق هـذه الغايـة، عـلى أن يفهـم جليًّـا أنـه لـن يُـؤتى بعمـل مـن شـأنه أن ينتقـص مـن الحقـوق المدنيـة والدينيـة الـتي تتمتـع بهـا الطوائـف غـير اليهوديـة المقيمـة في فلسـطين، ولا الحقوق أو الوضـع السـياسي الـذي يتمتـع بـه اليهـود في أي بلـد آخـر».

وسـأكون ممتنًّـا إذا مـا أحطتـم الاتحـاد الصهيـوني علمًـا بهـذا التصريـح.

المخلص

آرثر جيمس بلفور

أمسك مردخاي بياقة كوهين:

- أنـت كاذب وهـذا لـم يحـدث ولـن يحـدث ولـن يكـون عـلى تلـك الأرض سـوى وطـن واحـد وهـو فلسـطين.

أزاح كوهين يد مردخاي عنه وأخذ يرتب في هندامه.

- لقـد جعلـت ملابـسي تتسخ، عـلى كلٍّ الأيـام بيننـا. وأعـدك أنـك لـن تـرى في القـدس وجـه أي مسـلم أو مسـيحي.

بعـد وعـد بلفـور سرعـان مـا دخلـت بريطانيـا فلسـطين مسـتولية عـلى بـئر سـبع، وفي شـهر ١٢ مـن عـام ١٩١٧ احتلـت جنـوب ووسـط فلسـطين ودخلـت القـدس. لـم يؤثـر غضـب العـرب وانتفاضـة الثـورات عـلى وضـع بريطانيـا. وكان أسرع طريـق بالنسـبة للعالـم الغـربي بعـد انتهـاء الحـرب العالميـة الأولى عـام ١٩١٨ لـوأد الحـركات العربيـة هـو تقسـيمها لدويـلات والمراوغـة قـدر الإمـكان مـع الأمـير فيصـل، وكان عـام ١٩١٩ هـو العـام الفاصـل الـذي اعتـبر العـرب فيـه أن قضيـة فلسـطين هـي القضيـة القوميـة الأهـم، وبعـد تخليهـم عـن القضيـة برمتهـا تاركـين السـاحة للمجاهديـن والمقاومين العـزل إلا مـن بعـض الأسـلحة البدائيـة بعـد عقـد مؤتمـر الصلـح في باريـس، والـذي انتهـى بإقنـاع الأمـير فيصـل بإعطائـه دولـة مقابـل التخـلي عـن قضيـة القـدس، وهـذا هـو مـا فعلـه معتـبرًا أن القـدس قضيـة دوليـة.

تلـك هـي كانـت بدايـة المـاضي الذي صـبَّ لعناتـه عـلى جيروزاليم «القـدس»، أعقبـه تـوالي أربعـة أجيـال مـن الخـذلان نُهبـت فيهـم واسـتوطنت، قُسـمت ثـم احتلـت حـتى تمـام انهيارهـا. لـم يكـن تعـداد اليهـود في فلسـطين يزيـد عـن خمسـة في المائـة مـن مجمـوع السـكان الفلسـطينيين ورغـم هـذا وعدتهـم بريطانيـا العظمـى

بإنشاء وطن قومي لهم.

استقبل اليهود نص الوعد الناظر إليهم بعين الشفقة والعطف بإحساس مضاعف بالاضطهاد خاصة من هؤلاء الأشكناز الأوربيين، تجاه الفلسطينين من المسلمين واليهود والعرب عامة، مما زادهم إصرارًا على فكرة الانفصال.

أول بقعة سوداء فوق الأرض المقدسة كانت بيارة مونتفيوري*، كان من ضمن العائلات التي قسمت عليهم البيارة عائلة ديفيد. وكان ديفيد أيامها شابًّا لا يتعدى عامه الرابع والعشرين. احتفظت عائلة ديفيد بالولاء لعائلة روتشيلد والسير موشي مونتفيوري لما وهبه إياهم من أرض ومأوى، وقد انضمت العائلة لمنظمة الهاغانا اليهودية ضد القوميين العرب. تغذى ديفيد على كراهة العرب بجميع فصائلهم، ظانًّا منه أن فلسطين كلها يهودية، وإنما يعيش فيها الباقي محتلين مغتصبين لها. لم يعش ديفيد طفولة بريئه بلهاء، منقاة من سموم الحقد كما الأطفال، إنما تربى على حمل السلاح خوفًا من تُؤخذ الأرض من أسفل أرجله.

لم يكن للعائلات الأشكناز علاقة بالأخرى المزراحية. وإن كان

---

* هو أول مجمع استطياني يهودي، ففي عام ١٨٤٢ اقتنى الحاخام اليهودي يهودا هليفي مرغوزا، رئيس الجالية اليهودية في يافا، قطعة أرض عند وادي المُصرارة شمال شرق يافا، زرعها حمضيات بالإضافة لبعض المناطق الأخرى في الجليل، ثم في عام ١٨٥٥ اشترى منه هذه القطعة الثري اليهودي الإنكليزي موشي مونتفيوري، فعُرفت باسمه وتم جرف الأرض بأكملها وبيعت قطعًا لعائلات يهودية متوسطة الحال؛ لتقيم عليها منازل لها، وكان ذلك في عام ١٩٢٢.

الجيـل الجديـد قـد أصبـح أكـثر تفهمًـا عـن الجيـل السـابق الـذي تأصـل بـالأرض واندمـج بهـا.

مـن جانـب آخـر ومـع تزايـد الهجـرات الصهيونيـة بعـد وعـد بلفـور بتحريـض مـن بريطانيـا، صار انتمـاء اليهـود الفلسـطينيين للصهيونية بمثابـة انتمـاء قومـي، وعـدم الانتمـاء صـار تهمـة وأصبـح صاحبـه يدفـع ثمنًـا باهظًـا مـن النبـذ والمقاطعـة، بـل وفي مرحلـة معينـة كانـت الوكالـة اليهوديـة تسـتطيع طـرده. وبعـد إقـرار وعـد بلفـور بـدأت الهجـرات الغربيـة تتسـلل لفلسـطين عامـة وللقـدس خاصـة. كان اليهـود الآتـون مـن الغـرب والأشـكناز عـلى عكـس اليهـود الأصليـين، آتـون بوطـن آخـر في قلوبهـم يدعـى أرض الميعـاد، يحلمـون بفـرش أراضيـه فـوق تـراب الوطـن الأصـلي. أغـراب، أغراب، أغـراب، لا يتكلمـون العربيـة، لا يعرفـون معالـم الأرض وأسرارها، ولا يجيـدون التعامـل مـع الغـير.

تحـول الأغـراب مـن مجموعـات لتكتـلات سرعـان مـا التأمـت لتصبـح كيانًـا واحـدًا، وكان عـلى أورشـا الدخـول في هـذا الكيـان، وإلا نُبـذت وأُبعـدت وكفِّـرت. تطرفـت أورشـا عـن وطنيتهـا الأصليـة لتمـتزج أكـثر مـع الكيـان الجديـد متشربـة منه شـعار: «نحـن أصحاب الأرض الأصليـون». أصبحـت أورشـا في الثالثـة عـشر مـن عمرهـا، نضجـت الفتـاة كمـا نضـج بداخلهـا حلـم الاسـتقلال اليهـودي. أصبحـت واحـدة مـن هـؤلاء الحالمـين بـأرض الميعـاد، وصولجـان هيـكل سـليمان، ومـع اختـلاط القوميـات بـدأ الخـوف يلاعـب عقـل مردخـاي مـن أن يـأتي ذلـك اليـوم الـذي تتحقـق فيـه رؤيـة زوجتـه آسـيا، فحجـب ابنتـه أورشـا في المـنزل مـرة أخـرى مبعـدًا إياهـا عـن

أي مجتمـع يهـوديٍّ مختلـط.

ثـلاث سـنوات مـرت، أصـاب مردخـاي العجـز، وضعفـت فقـرات ظهـره، بالرغـم مـن أن السـقاية أصبحـت أيـسر بعـد مـد خطـوط أنابيـب المـاء عـبر المقدسـات جميعًـا، ومـا عـاد يحمـل القـرب عـلى كتفـه وفـوق ظهـره؛ لـذا اضطـرت الفتـاة أن تأخـذ مـكان والدهـا في السـقاية، كان آخـر يـوم مـن سـنة ١٩٢٥ هـو أول يـوم لأورشـا في سـقاية الحجيـج والمتعبديـن منـذ ثلاثـة أعـوام، فتـاة مرتعشـة مضطربـة تخـشى النظـر في وجـوه النـاس، غاضـة الطـرف، تتلبـك في مشـيتها، حـتى أنهـا كثـيرًا مـا كانـت تقـع بإبريـق المـاء فترجـع لملئـه. أرادت أورشـا التخفـي عـن النـاس فأظهرهـا خوفهـا فأصبحـت واضحـة بشـكل جـلي.

يومهـا كان ديفيـد واقفًـا أمـام حائـط المبـكى، حـين لاحـظ الفتـاة تتنقـل بـين المتفجعـين أمـام الحائـط حاملـة إبريـق مـاء تسـقيهم. لفـت نظـره خفتهـا الـتي تماثـل الريشـة المتمايلـة هنـا وهنـاك، ذلـك الجسـد الذابـل النحيـل لـم يؤثـر عـلى وهـج عينيهـا المتقدتـين بالحمـاس والنشـاط، كانـت الفتـاة ترتـدي مـا سـتر جسـدها جميعـه، إلا مـن يديـن دقيقتـين متشـبثتين بالإبريـق والكـوب. يعلـو رأسـها منديـل خفيـف، هربـت منـه ضفـيرة شـعر سـوداء كثيفـة امتـدت لأسـفل خصرهـا. انتظـر ديفيـد دوره في السـقاية لكـن المـاء وقـف عنـده ونفـذ، رجعـت الفتـاة لمـلء الإبريـق لكـن ديفيـد لـم يصـبر وقـرر الارتـواء مـن عينيهـا عوضًـا عـن المـاء. أثنـاء التفافهـا أمسـك ديفيـد بزراعهـا مديـرًا إياهـا باتجاهـه، وقـف أمامهـا لبضـع ثـوان يصـلي قبالـة وجههـا صـلاة باسـمه. اسـتكانت روحـه الثائـرة أمـام عينيهـا وهـو يـرى المسـيح مصلوبًـا بينهمـا، وعـلى جبينهـا اكتمـل

بنيـان الهيـكل، لـم يقـل لهـا سـوى عبـارة واحـدة: «سـيكون لي منـك ابنـة وسأسـميها جيروزاليـم تيمنـا بعينيـكِ وبـالأرض». ارتفـع رأس أورشـا قليـلًا بمقـدار أن التقـى سـواد الليـل في عينيهـا بزرقـة البحـر في عيونـه، غـرق الليـل في البحـر وطفـت فوقـه النجمـات، لـم تعـرف أورشـا معـنًى لبريـق ذلـك الشـهاب الـذي مـرق عـلى قلبهـا، فـأراق مشـاعرها واسـتحل فؤادهـا، كان هـذا هـو الحـب، أحبـت أورشـا المزراحيـة ديفيـد الأشـكنازي.

قـضى ديفيـد النهـار جالسًـا أسـفل الحائـط موليًـا نفسـه نحـو أورشـا يراقـب خطواتهـا المتعـثرة، حـتى انقضـاء النهـار وتـواري الشـمس خلـف سـتائرها، لملمـت أورشـا حاجياتهـا واتجهـت لمنزلهـا، كانـت تحـس بوقـع خطواتـه عـن بـاقي البـشر تتبعهـا، فأبطـأت أكـثر وتهـادت في مشـيتها حـتى يطـول بهـا معـه الطريـق، دخلـت الزقـاق المـؤدي للبيـت، خافـت أن يلحظهـا أحـدٌ فأسرعـت الخطـى، أسرع هـو خطـاه، توقفـت، فتوقـف ثـم التفتـت غاضبـة قائلـة لـه:

- إنك شاب صفيق، تلاحق الفتيات في طرقاتهم.

- وهل المحبة صفاقة؟

أكملت أورشا طريقها، ثم توقفت مرة أخرى.

- ماذا تقصد بالمحبة يا هذا؟

- سأعرف منزلك وسأطلب يدك من والدك.

خطـت أورشـا بضـع خطـوات متجهـة ناحيـة حجـر ضخـم بجانـب أحــد الحوائــط، جلســت فوقــه تخــبئ وجههــا بــين يديهــا قائلــة لديفيـد:

- إن طبـع أبي معـي أقـسى مـن هـذا الحجـر الـذي أجلـس عليـه،

بـل إن الحجـر رغـم قسـاوته كان أحـن فسـمح لي بملامسـته، إن أبي يـراني نذيـر شـؤم متهمًـا إيـاي بقتـل أمـي؛ لأنهـا ماتـت يـوم وُلـدتُ وقالهـا لي صراحـة: «نذرتـكي يـا أورشـا لـلأرض ولـن أسـمح لغريـب أن يلـوث أرضـكِ المقدسـة، أنـتِ لهـا ومنهـا حـتى الممـات». كمـا أن هيئتـك توحـي بكونـك مهاجـرًا أوروبي، وأبي لا يمقـت في الدنيـا سـوى يهـود الغـرب.

- لقـد أصبحـتِ منـذ اللحظـة هـدفي وقضيـتي يـا أورشـا، أيـن تسـكنين؟

أشارت أورشا بسبابتها لآخر الشارع العتيق.

- هنالك آخر منزل في هذا الصف، وأنت أين تعيش؟

- في حي مونتفيوري.

نهضتْ أورشا سريعًا.

- إن أبي سـيقتلك حتمًـا، اذهـب ولا ترجـع ثانيـة، إن زواجـك بي أمـر محال.

ثم هربت أورشا سريعًا من أمام ديفيد.

رجـع ديفيـد عاقـدًا النيـة عـلى امتـلاك أورشـا مهمـا كلفـه الأمـر، في اليـوم التـالي لـم يذهـب ديفيـد ليصـلي عنـد الحائـط، إنمـا ذهـب لمـنزل أورشـا مبـاشرة، كان ديفيـد «جـزارًا» بحـق، منـذ أن اندلعـت أعمـال التمـرد في أوسـاط اليهـود اتحـد فيهـا الأيشـوب، وهـي الجاليـات اليهوديـة مـع منظمـات إرغـون وتسـيفي ليئومـي إيسـتل ومنظمـة الهاغانـا مـن أجـل هـدف واحـد، وهـو إثـارة الشـغب بـين اليهـود والعـرب؛ حـتى تجـد بريطانيـة ذريعـة للتدخـل في فلسـطين ومـن ثـم تقسـيمها، جنبًـا بجنـب مـع الاضطهـاد النـازي، ومـن قبلهـا

الاضطهاد العنصري والقوانين التمييزية في أوروبا الشرقية، ومنه زادت أحقاد اليهود.

كان ديفيد مشهورًا باسم «الدباح»؛ لأنه كان معروفًا بذبحه للعرب، مما وطد ذلك علاقته مع عائلة روتشيلد التي أعطت له دورًا قياديًّا رغم صغر سنه.

ذهب ديفيد لمنزل أورشا بعد أن حد سكينه واضعًا إياها في حزامه خلف ظهره. طرق الباب ففتح له مردخاي، لكنه تشكك فيه منذ أول وهلة حين صدمته ملامحه الغربية، وراح يغلق الباب في وجهه:

- عفوًا لا أستقبل يهودًا مهاجرين.

دفع ديفيد الباب بقوة.

- بل ستستقبلني أنا، هنالك ما يخص أورشا.

سمح له مردخاي بالدخول، أغلق ديفيد الباب من ورائه، ثم نظر لمردخاي نظرة تحدي وهو يقول:

- جئت لأطلب يد ابنتك.

أشاح مردخاي بيده وهو يقول:

_لن تدنس ابنتي ما حييت.

- سأتزوجها.

- ليس ليهودي مغتصب.

- ألستَ يهوديًّا مثلنا.

- بل فلسطيني يا أرعن، لماذا أتيتم لأرضنا؟ لفظكم العالم كله، وحين أويتم لأرضنا ارتكبتم المجازر، وأشعلتم الفتنة، واستثرتم الغرب ضددنا، ارحلوا لبريطانيا التي أهدتكم وعودها،

إنمـا كانـت تطردكـم مـن أرضهـا. أيهـا الأشـكناز، إن الـرب ناقـم عليكـم.

لـم يـدري ديفيـد بنفسـه إلا وهـو يطعـن مردخـاي عـدة طعنـات ناعتـًا إيـاه بالخائـن، أفـاق ديفيـد عـلى لـون الدمـاء، نظـف نفسـه وهـرب سريعًـا.

رجعـت أورشـا بعـد انتصـاف النهـار، وجـدت البـاب مفتوحًـا أمامهـا ممـا أثـار ريبتهـا. ظلـت تنـادي عـلى والدهـا: «أبي لقـد جلبـت لـك الحلـوى اليمانيـة الـتي اشـتقت إليهـا، جماعـة مـن الحجـاج اليمـن أعطـوني اياهـا». لـم يطـل سـمعها أي إجابـة. المـنزل كان مظلمًـا، ولـم يكـن ذلـك مـن عـادة مردخـاي؛ إذ أنـه لـم يكـن يكـره شـيئا في حياتـه قـدر الظـلام. راحـت أورشـا تبحـث عـن مصبـاح الغـاز لتوقـده، تسـارعت ضربـات قلبهـا حـين لمسـت أرجلهـا سـائلًا لزجًـا، انخفضـت أورشـا بجسـدها متحسسـة بيدهـا مـا عـلى الأرض، غاصـت يدهـا في السـائل حـتى تعـثرت أصابعهـا بـرأس والدهـا.

***

بعـد مـوت مردخـاي بأربعـة أشـهر، واتهـام جماعـة عـز الديـن القسـام الداعـي للثـورة ضـد اليهـود بقتلـه، رجـع ديفيـد للحـي اليهـودي في القـدس قاصـدًا مـنزل كوهـين عـم أورشـا، طالبًـا يدهـا مـرة أخـرى، وقـد كُلـل طلبـه بالموافقـة؛ حيـث وجـد كوهـين أن ذلـك نسـبٌ شريـفٌ، سـيوطد علاقتـه أكـثر بالمنظمـات الصهيونيـة؛ لتنتقل أورشـا مـن حي اليهـود في القـدس لحـي مونتفيـوري، الحـي الشـعبي المكتـظ بالمنـازل والسـكان ذو الشـوارع الضيقـة جـدًّا والمبـاني

المتلاصقة تقريبًا، حيث كان يصعب على العرب الدخول إليه والتجول فيه، وهو حي يهودي خالص، ومغلق على نفسه، وكان يقع على طريق رئيس، وهو مخرج من مخارج القدس والطريق إلى بيت لحم.

كان المكان غريبًا على أورشا كما الوجوه، فقد كانت الوحيدة بين قاطني الحي التي تتسم بملامح عربية، لم تجد أورشا نفسها وسط العالم الجديد، فانتحت منذ أول أيامها هناك جانبًا. فلم تختلط بأحد أو تصادق أحدًا؛ إذ إن التأقلم بالمجتمع الأشكنازي لم يكن بالهين عليها.

كان ديفيد بالنسبة لها غامضًا رغم الحب في قلبها له، في أغلب الأحيان صامتًا، بل وكثيرًا ما كانت ترتاب منه، خاصة حين كان يأتي بمجموعة من رفقائه وينزل بهم لسرداب المنزل، هذا المكان المنغلق دائمًا.

في يوم كان ديفيد خارجًا من السرداب مع مجموعة من المنظمة، وكان ديفيد لم ينته بعد من حديثه مع كوهين:

- لن تهدأ ثورة العرب إلا بقتل رأس الأفعى عز الدين القسام.

- إنه يمارس معنا ما فعله مع فرنسا في سوريا، أنا لا أفهم البتة لما لم يتم طرده على الأقل من الأراضي المقدسة؟ بالرغم من أن المندوب السامي البريطاني السير هيربت صمويل يهودي صهيوني، ها هو عز الدين القسام يجمع حوله الشباب العربي الثائر في جمعية أسماها الشبان المسلمين.

- لن يهنأ لليهود بالٌ حتى يتم اغتياله.

فوجئ ديفيد بأورشا أمام السرداب، فنظر إلى رفاقه:

- غدًا نكمل اجتماعنا.

بعد رحيلهم...

- ديفيد، أشهر طويلة وأنا هنا في منزلك، ومن المفترض أن يكون لي علم بكل جزء فيه، أليس كذلك؟

- أنتِ حتمًا تسألين عن السرداب.

- نعم يا ديفيد.

- إن بداخل السرداب أشياء لم تريها في حياتك قط، لن يكون الأمر سهلًا كما تظنين إن نزلتُ بكِ للسرداب.

- ماذا يكون يا ترى بداخله؟

- ما صنف الأفكار التي تدور برأسك يا أورشا؟

- ليس برأسي أية أفكار يا ديفيد، لكن من المستحسن عقد هدنة دائمة مع العرب يمكننا العيش جميعًا جنبًا إلى جنب على نفس الأرض.

- إذن لا يزال انتمائك لفلسطين وليس لليهود، ستظل رأسك هكذا فارغة يا أورشا من الأفكار حتى يتضح لي ولاؤك.

***

وضعت أورشا أول وآخر أبنائها بعد تسعة أشهر من زواجها من ديفيد في بداية عام ١٩٢٦، وقد أسماها والدها كما نذر «جيروزاليم». لم تكن أورشا سعيدة مع ديفيد، لكنها كانت راضية، أو لعلها كانت تحاول ادعاء الرضا، بعدها حملت أورشا بالكثير من الأبناء، لكن لم يبق لها منهم سوى جيروزاليم،

أمـا الآخـرون فقـد أسـقطتهم أجنـة قبـل اكتمـال نموهـم، الرفـض وحــده كان السـبب وراء ذلـك، بعدمـا اتضحــت الحقائــق أمامهــا مــع أول مجــزرة حدثــت أمامهــا؛ إذ تــم اختطــاف عــددًا مــن الشـباب الفلسـطيني، وقـام ديفيـد متعمـدًا بذبحهـم أمامهـا داخـل الـسرداب، بعدهـا طلـب منهـا ديفيـد المثـول أمامـه، ووقفـت أورشـا قرابـة الخمـس دقائـق ثابتـة، تبـكِ في صمـت حـارق، بينمـا كان ديفيـد يتحقـق مـن ملامحهـا، أزاح عنهـا منديـل شـعرها، ثـم قـال لهـا وهـو يفـك ضفيرتهـا:

- كل شـعرة مـن هـذه قـادرة عـلى الفتـك برجـل عـربي، تخيـلي كـم رجـلًا قـد يصرعهـم شـعرك هـذا؟

كانـت سـتصرخ لكنـه وضـع يـده عـلى فمهـا مسـتكملًا حديثـه بعـد أن أغـرق سـكينه في دمـاء الشـهداء الثلاثـة.

- أتدرين ماذا أفعل بسكيني تلك؟

ثـم مـرر السـكين برفـق عـلى وجـه أورشـا مخضبًـا وجههـا بالدمـاء وأكمـل قائـلًا:

- إني أقتـل بهـا فلسـطينيًّا أدفنـه تحـت الأرض، وأنبـت عوضًـا عنـه يهوديًّـا، كل مـا أريـده منـكِ هـو اسـتدراج هـذا الفلسـطيني لهـذا المـنزل، ودعـي لي أمـر اسـتخدام السـكين، فأنـا أجيـد اسـتخدامها أفضـل منـك.

إن رفضـتْ أورشـا قتلهـا، ولكانـت هـي مـن ضمـن قتـلى الـسرداب، لكنهـا وافقـت، الخـوف أرغمهـا عـلى القبـول، كانـت تلـك هـي مهمـة أورشـا؛ اصطيـاد العـرب أيًّـا كانـت ديانتهـم مسـيحيون أو مسـلمون، تقـوم بغوايتهـم حـتى توصلهـم لـسرداب ديفيـد، ومـن ثـم يقـوم ديفيـد عـلى طريقتـه بذبحهـم، لـم يقتـصر الأمـر عـلى الخطـف

والقتـل.

كان ديفيـد يتعامـل مـع جيكـوب سـليل عائلـة روتشـيلد، الأمريـكي الـثري، صاحـب شركات المقـاولات العالميـة الراعيـة للهجـرات اليهوديـة، وأكـبر ممـول لعمليـات الاسـتيطان وشراء الأراضي الفلسـطينية، وتوريـط الفلسـطينيين في القـروض ومعامـلات الربـا الـتي سـلبتهم أراضهـم، جيكـوب مـن الباطـن كان يعمـل في السـلاح، ممـولًا الجماعـات اليهوديـة أثنـاء الحـرب الأهليـة الـتي اشـتعلت وتيرتهـا منـذ عـام ١٩٣٦ بـين العـرب والكيـان الصهيـوني، لكـن في الواقـع كان فتيـل الحـرب قـد اشـتعل منـذ عـام ١٩٢٢؛ أي منـذ نشـأة حـي مونتفيـوري.

في عـام ١٩٤٤عندمـا أتمـت جيروزاليـم ثمانيـة عـشر عامًـا، أرادت أورشـا التهويـن عـلى جيروزاليـم مـا عانتـه في تلـك الفـترة، منـذ بدايـة الحـرب الأهليـة مـن آلام نفسـية جعلتهـا دائمـة الصمـت والانطـواء، لـم يكـد الطعـام أن يدخـل جوفهـا حـتى تلفظـه، ولـم يكـد يغمـض لهـا جفـن حـتى تقـوم فزعـة؛ لـذا أخذتهـا أورشـا إلى بسـتان قـبر المسـيح عنـد المقلـع القديـم، خـارج أسـوار كنيسـة القيامـة، كنزهـة للترويـح بهـا عـن نفـس ابنتهـا.

أشارت أورشا بيدها لصهريج الماء والمعصرة قائلة:

- هنـا عـاش الجـدود، وهـذه أملاكهـم، وإننـا نحـن أصحـاب الأرض يـا جيروزاليـم، ابنـتي، لا تنـسي هـذه الحقيقـة.

- وهـل هـذه هـي حجـة والـدي في محاولـة جعـلي غاويـة للرجـال، مثلك .

- جيروزاليـم، لتعلمـي أن مـا أقـوم بـه أنـا ويقـوم بـه والـدك هـو واجـب مقـدس، إن الـرب سـيكافئنا عليـه، إن لـم نقتـل لقتلنـا

وطردنـا مـن ديارنـا وشردنـا.

- كفـاكِ أمـي، أعلـم مـا سـتقوليه حـتى قبـل أن تنطقيـه، تعبـت من تلـك الـدروس في المـنزل، وفي المعبـد، وفي كل مـكان في مونتفيوري.

امتـلأت جيروزاليـم وفاضـت جنباتهـا بمـا أشـبع بـه والدهـا قلبهـا وعقلهـا وجوارحهـا مـن أحقـاد شـتات اليهـود وتيههـم، فأزاحـت عـن نفسـها تلـك الغمامـات باحثـة عـن السـلام بـين الزهـور، وحـول الطبيعـة النقيـة مـن الآثـام والأحقـاد.

هنـاك رأتـه، كان بـزي النسـاك واقفًـا يقلـم فـروع أحـد الأشـجار، انجذبـت إليـه، ثـم أقبلـت نحـوه، اقتربـت ثـم اقتربـت حـتى تراجـع هـو، سـألته عـن اسـمه فقـال لهـا:

- أنا الراهب بولس.

- وأنا جيروزاليم يهودية أعمل وأسرتي في المعبد.

ليتراجـع بعدهـا بولـس أكـثر ويختفـي في ومضـة خاطفـة، رجعـت جيروزاليـم مـع والدتهـا أورشـا حاملـة بولـس في قلبهـا إلى الديـار، ومنـذ تلـك اللحظـة أصبحـت كل يـوم تذهـب بمفردهـا للبسـتان تبحـث عـن حريتهـا في عينيـه الواسـعتين بحجـم العالـم، ووجهـه الغـارق في ضيـاء نـور القـدس، تسريبـات الأمـل المنسـابة مـن صوتـه والأمـاني المعلقـة بـين يديـه، فارسًـا يمتطـي جـواده، لكـن جيروزاليـم أصابهـا اليـأس مـن أن تجـد فارسـها، ولـم تعـد تذهـب للبسـتان.

أمـا بولـس الناسـك العاشـق الـذي عـاش حياتـه متأمـلًا بين السـماء والأرض، بالنسـبة لـه جيروزاليـم كانـت حـدودًا أخـر ى، منطقـة بكـر جديـدة للتأمـل لـم تمتـد بصـيرة أحـد لهـا، مـا كان قلبـه ليتشـبث بأحـد غـير جيروزاليـم وإن شـيبه العمـر، كان ولمـدة هـذا العـام

يراقبها هـو مـن وراء الأشـجار ومـن خلـف النوافـذ والصخـرة الكبـيرة، عشـق الراهـب جيروزاليـم، افتقدهـا بولـس الـذي رأى في وجههـا ملامـح الـشرق الممتزجـة بالغـرب، رأى في مقلتيهـا التقـاء الحضـارات وعـلى شـعرها تسترسـل الترانيـم والأسـفار، نحـت خصرهـا كعـود ياسـمين شـامي غـض تفـوح منـه رائحة مسـك الغـزال العـربي في قنينة بخـور فرعـوني، ومـن بـين يديهـا يجـري نهـر بالأزاهـير الفينيقيـة، إنهـا جيروزاليـم الـتي عـلى امتـداد عينيهـا الصافيتـين كانـت تـشرق الشـمس شـلالات ضـوء مسـكوبة فـوق حافـة أنفهـا الإغريقـي.

لـم يكـن تعلـق جيروزاليـم ببولـس تعلـق الأنـثى بالرجل، بـل تعلق الـروح بالحريـة السـجينة داخـل المعبـد والـسرداب، المكبلـة بأوامـر والدهـا الإرهـابي المتشـدد، كـم تاقـت نفـس جيروزاليـم لالتقـاط صـورة فوتغرافيـة كمـا الفتيـات في عمرهـا في الأعيـاد والمناسـبات، ولأن الصـور في العقيـدة محرمـة منعهـا والدهـا، لـم يكـن لهـا كمـا الأطفـال دميـة تسـميها ابنتهـا تحتضنهـا حـين تنـام؛ لأن المجسـمات المصـورة كذلـك محرمـة، رأت جيروزاليـم بولـس قابعًـا في عالـم آخـر بعيـدًا عـن عالمهـا، في حيـاة أخـرى، في أرض مختلفـة.

تبدلـت الأدوار بينهمـا، أمـسى هـو مـن يبحـث عنهـا، قـرر دخـول حـارة اليهـود رغـم توتـر الأحـداث بـين اليهـود المهاجريـن والفلسـطينيين العـرب، ظنًّـا منـه أنهـا تسـكن هنـاك، لعلـه يهتـدي إليهـا، فالوصـول إلى جيروزاليـم في قناعتـه نـوع مـن أنـواع الهدايـة الربانيـة لروحـه الضالـة عنهـا. خلـع بولـس زي الرهبنـة، كان ذلـك صعبًـا عليـه كانسـلاخ الجلـد مـن لحمـه، واللحـم مـن عظمـه، لكنهـا جيروزاليـم مـن في يدهـا صـك غفرانـه، مـشى في طرقـات الحـارة كمـن يمـشي حـافي القدمـين بـين الأشـواك، دخـل المعبـد، أنـار شـمعة ثـم

مـر بالبيـوت المغلقـة، كان منتشـيًا بروحهـا، أليـس المـرور بطرقـات خطتهـا جيروزاليـم وهـواء استنشـقته سـببًا للانتشـاء؟ وإن لـم ينـل الغفـران. هكـذا واسى الراهـب العاشـق نفسـه، خيـل لـه أن كل فتـاة مـارة هـي، وكل نسـمة رائقـة هـي، وكل شـذى عطـر هـو لهـا، رآهـا في كل شيء، وإن لـم يجدهـا رحـل بعـد أن تـرك رسـالة لهـا حفرهـا عـلى شـجرة البلـوط:

إني في الهوى هويت

على ظلالكم

فما بالكم

إن عيناي

رأتكم

***

عـام مـضى تـلاه آخـر، نضجـت مشـاعر الأنـثى في قلـب جيروزاليـم تفتـح برعـم القلـب، وكانـت زهرتـه متجهـة نحـو بنيامـين برغـم أن روحهـا الطاهـرة مـن الآثـام مـا زالـت معلقـة ببولـس، أعجبهـا في بنيامـين مـا يمكـن أن يعجـب أي فتـاة في عمرهـا إنـه شـاب يحمـل مواصفـات الشـاب اليهـودي الـثري المهاجـر مـن أمريـكا، الطمـوح المنفتـح والسـخي، شـاهدها أول مـرة في منزلهـا مـع والـده؛ حيـث كان مـنزل ديفيـد مقـر اجتماعـات عصابـات اليهـود المشـعلة لنـيران الحـرب الأهليـة بـين السـكان الأصليـين واليهـود المهاجريـن، دخلـت جيروزرليـم عليهـم بعصـير التـوت الفلسـطيني، فتـاة بسـيطة الهيئـة

والملبــس ليســت كفتيــات أمريــكا الــلائي لا يملكــن ربــع جمالهــا، ويشـعرونك أن الشـمس إذا مـا غضـبن غربـت عنـك مـن بـين أيديهن، وإذا مـا رضـين عنـك تحولـت أنـت لهيراقـل وشمشـون وفاتـح بأمرهـن خزائـن الكـرة الأرضيـة.

غافـل بنيامـين الجمـع ولحـق بجيروزاليـم الـتي كانـت تقـف أمـام موقـد غـاز، وبـدون أن تشـعر بخطواتـه تقـدم نحوهـا، حـين اقـترب منهـا بنيامـين أحسـت بوهـج أنفاسـه الغريبـة تلـدغ أذنهـا، همـس لهـا قائـلًا:

- سـألقاكِ غـدًا عنـد شـجر التـوت الـذي صنعـتِ منـه هـذا العصـير.

تجـرع بنيامـين كـوب العصـير دفعـة واحـدة، وتسـلل مـرة أخـرى ليجلـس في مكانـه وسـط الجمـع، لـم يكـن ديفيـد سـاذجًا حـتى لا يلاحـظ تتبـع بنيامـين لابنتـه، ابتسـم ابتسـامة خفيفـة ماكـرة، فمـا كان ليطمـح في أكـثر مـن أن يعجـب سـليل عائلـة روتشـيلد بابنتـه.

في أول لقـاء لهمـا عنـد حديقـة التـوت صـارح بنيامـين جيروزاليـم بأنـه سيسـمح لمـن سـتكون زوجتـه ارتـداء ملابـس البحـر، والاسـتلقاء أمـام الشـاطئ، سـيشرب معهـا النبيـذ في الحانـات، ويراقصهـا هنالـك حـتى الصبـاح كمـا أنـه سـيلتقط لهـا صـورة كل يـوم، راقـت لهـا أفـكاره، عاشـت معـه حلـم التحـرر، كانـت صغـيرة الإدراك لتعـي معـنى الحريـة، فكونهـا امتلكـت جناحـين مـن كلامـه لا يعـني أنهـا حـرة. بـل إن الحريـة هـي قدرتهـا عـلى اسـتعمال جناحيهـا والتحليـق بهمـا، أعجبتهـا أفـكاره وأناقتـه في الحديـث، وضـع العالـم في يديهـا ثـم أغلـق عليـه راحتيهـا.

أغـدق بنيامـين عـلى جيروزاليـم الهدايـا، أسـاور وعقـود، شرائـط

شعر حريرية، وعطورًا فرنسية وكل ما تشتهيه نفس الأنثى، الأب المتشدد لم ير أي ضرر في كل ما يجري؛ حيث إن بنيامين وعدها بالزواج، كان يترك لها الهدايا ويأخذ هو الأموال، بل وجعلها تطلب من بنيامين مرتبًا شهريًّا، وقد فعلت ولم يبخل هو لقاء أن تمضي معه النهار، أباح له والدها جسدها كما يحب، ولكنه لم ينس التشديد عليه ألا يورط نفسه في علاقة تلزمه بجيروزاليم طوال العمر، وألا يلتقط صورًا فوتغرافية لها، فينزل بهما غضب الرب وتحترق مشاعر الصغيرة وتهدر براءتها أسفل أقدام الثري الأمريكي.

لطالما وضعت جيروزاليم بيدها قيد مستعبدها حول رقبتها، خشية فقدان الرفاهية وأحلام الحرية المختزلة في ثوب سباحة وزجاجة نبيذ فاخرة والتقاط صورة عارية لها أسفل فراش من الدولارات.

كان كل شيء يحدث تحت سمع ونظر أورشا، لكنها الأم المكبلة بقلة الحيلة والضعف أمام زوجها السفاح، كانت تخبئ القهر بداخل نفسها، وتحمل الخزي والعار ناحية ابنتها فلم تكن تشعر بأمومتها، لم تكن جيروزاليم بعيدة عما يدور بنفس أورشا أو جاهلة بما في قلب أمها من الرفض، لكن بريق الذهب ورائحة النقود كانا أكثر تأثيرًا عليها، وفي يوم جلست جيروزاليم أسفل أقدام أورشا، ورفعت رأسها نحوها قائلة:

- أعلم أنك مقهورة ومغلوبة على أمرك يا أمي ... لكن، إن كان الرفض لن يجني ثمارًا ولن يأتي سوى بالألم، إذن لما لا نقبل إذا كان في القبول نفع ومصلحة.

مسحت أورشا بيدها على شعر جيروزاليم:

- الحق معك، فلنحيا بعارنا مدام الرفض لن يجني ثمارًا ولن يؤتي سوى بالألم.

ضمت جيروزاليم بقبضتها تراب الأرض الجاثية فوقها، وهي مغمضة عينيها بشدة مانعة دموعها من الانجراف، وقالت:

- لماذا خلقنا يهودًا يا أمي.

- من أجل أن نعاني يا ابنتي.

هنا فاضت دموع جيروزاليم فوق بين أيدي أورشا.

- إني أكره بنيامين يا أمي، لكن هذا الشيء الفاسد في دمي يجعلني متعلقة به، يجعلني لا أهتم برؤية الدماء المنسابة من أسفل باب السرداب، ولا تلك الأسلحة الكثيرة يؤرقني وجودها في المنزل، بالأمس بينما كنت أمشي مع بنيامين حول قلعة داود، مر بجانبنا طفل عربي صغير فرمانا بحجر وهرب، لم يتركه بنيامين وظل يلاحقه حتى أمسك به، ثم أعطاني سكينًا وقال لي: اذبحيه. رفضتُ فعل هذا، ثم ألح مرة تلو أخرى، فأمسكت بالطفل وبالسكين وقلت له: سأذبحه هنالك بجانب سور القلعة حتى يراق دمه على حائطها، وطلبت منه إغماض عينيه حتى أفاجئه، جريت بالطفل لمسافة طويلة، ثم طلبت منه الهروب.

بعدها رجعت لبنيامين الذي عنفني كثيرًا، ثم أمسكني من ذراعي وجرني حتى وصلنا لمنزله هناك في حديقته، فتح باب بحيرة التماسيح ثم جعلني أقترب من السلك الفاصل بيني وبينهم حتى لاصق وجهي فك أحدهما، وهددني إن لم أفعل ما يريد سيقدمني طعاما للتماسيح، إني أبغضه يا أمي أشد البغض وأبغض يهوديتي من أجله.

أخذت أورشا جيروزاليم في حضنها وهي تمسح دموعها بكفها:

- كل شيء سيمضي يا ابنتي، لن يبق حال على حاله، اصمدي وإياكِ أن تلوثي يديك بالدماء إنما أنتِ منها بريئة.

في عيد الفصح من عام ١٩٤٧ خرج بنيامين من المعبد ممسكًا بيد جيروزاليم كمن يسوق شاة صغيرة، أوقفته طالبة منه أن يسمح لها اليوم باختيار مكان نزهتهما معًا، إن ذاكرة جيروزاليم القلبية ما زالت متعلقة بالشخص الذي رأته لمرة واحدة، وكأنها العمر كله ما سبق وعاشت وما ستعيش. قالت لبنيامين إنها تود لو تذهب لبستان قبر المسيح، ثم أردفت قائلة تحثه الذهاب إلى هناك: «إن في البستان فراشات وأنت تهوى اصطيادها».

راقت له الفكرة لأن بها ما تميل له نفسه. وليس لأن جيروزاليم تود ذلك؛ لذا أخذ شبكته الصغيرة وصندوقه الزجاجي وجيروزاليم وذهب إلى البستان.

كان بنيامين يبحث عن الفراشات بينما كانت جيروزاليم تتلفت باحثة عنه، التقط بولس عيناها، فدار في مجرتهما القاحلة يزرع النجوم والكواكب ويزينها بالأقمار، نمت مجرتها في لحظة خاطفة حين انسحب نظرها تاركًا العالم كله؛ ليسكن عينيه زلزلت نظرتها له أركانه، كبناء بلا أساس هو الآن لا يتذكر من حياته سوى ذلك المشهد الذي يرى فيه جيروزاليم أمامه ولقطات سابقة لها، تدارك بولس بسرعة سقطة كاد سيسقطها، واتجه نحوها آخذًا من بين يديها الصندوق محررًا الفراشات قائلًا:

- لا تُسجن الفراشات إنما خلقت لتتذوق طعم الحرية.

نهره بنيامين وكاد أن يشتبك معه، أدار بولس ظهره يقلِّم شجرة كان يقلمها من قبل، أمسك بنيامين بيد جيروزاليم يجرها

خلفه، لكنها أبت أن ترحل هكذا خاوية من دون بولس، سحبت يدها من قبضة بنيامين واتجهت نحو بولس تزجره هي الأخرى، تعاتبه في قرارة نفسها، تستر مشاعرها الحقيقية وراء عبوسٍ مصطنع بين حاجبيها، لم تستطع حجب ابتسامة روحها، كل ذرة في نفسها كانت تتراقص كما الفراشات المحررة، وكان بولس صامتًا يقف على حافة بركان يخشى النظر إليها فيسقط فيه، أعاد بنيامين إمساك قبضته على جيروزاليم قائلًا:

- ما لك وراهب أبله يا حبيبتي؟

أعادها بولس:

- ارحلي، مالك وراهب أبله يا جيروزاليم.

جيروزاليم، قالها! إنه ما زال يذكر اسمها، كانت تلك اللفتة لترضيها أن ما ضاع لقاؤها به سدى.

في اليوم التالي استيقظت جيروزاليم مبكرًا ليس كعادتها، ذهبت للبستان حاملة معها ما كانت تحيكه لأيام من أجل بنيامين، وأخذت طاليتًا وطاقية معها، وأخذت تردد الدعوات كي ترى بولس وألا يخيب أملها، ذهبت هناك، لم تبحث عنه كثيرًا فقد كان موجودًا كأنه كان ينتظرها، تقدمت نحوه في آمان وأعطته الطاليت والطاقية، كان على بولس أن يرفض، كيف لراهب أن يقبل زيًّا يهوديًّا، وكان عليها ألا تتعلق به ولو أنهما فعلًا ذلك لاختصرا عقودًا من الألم توارثتها الأجيال.

جلسا يومها معًا هي تسأل وبولس يجيب، أرادت فتح جميع خزائن أسرارهما، لم تترك شيئًا للمفاجأة أو الصدفة، علمت أنه مصري أتى مع والديه حين كان صغيرًا جدًّا للحج، قال لها:

- تـاه والـدايَّ عـن الطريـق في ذات يـوم وانفـردا عـن الجمـع، تجمـع حولهمـا مجموعـة مـن قطـاع الطـرق سـلبوهما أموالهمـا وكل مـا كان معهمـا، حـاول أبي مقاومتهمـا فطعنـوه، وإمعاننـا في طمـس كل الدلائـل المشـيرة لهـم قتلـوا أمـي أيضـا ثـم تركـوني بجانبهمـا، يقـال إن مـن فعـل ذلـك هـم مجموعـة مـن اليهـود المهاجريـن الأوائـل الذيـن اسـترزقوا عـلى السرقـة ونهـب حقـوق الغـير، مـر أحـد النسـاك بالمـكان لـم يجـد مـع والـدي أو والـدتي سـوى ورقـة، مـا زلـت أحتفـظ بهـا كانـت، معلقـة برقبـتي في حجـاب، فيهـا اسـمي بالكامـل وعنـواني في مـصر، أخفاهـا عـني الناسـك وذهـب بي للكنيسـة حـتى كـبرت واشـتد سـاعدي، أعطـاني الناسـك ورقـة إثبـات نسـبي، لكـني رفضـت البحـث عـن بقيـة أهـلي راضيًـا بالبقـاء في أرض النقـاء.

قصـت جيروزاليـم لـه حكايتهـا مـع بنيامـين لكـن بولـس لـم يعقـب فاسـتحثته قائلة:

- إني أفكـر جديًّـا في تـرك بنيامـين، إذا وجـدت فقـط مـن يحـررني منـه.

صمـت بولـس ولـم يجـب، وودت جيروزاليـم أن يعدهـا بـأن يكـون هـو محررهـا، تحدثَّـا كثـيرًا كثـيرًا حـتى غربـت الشـمس عنهمـا، ثـم تركتـه واعـدة إيـاه بلقـاء قريـب.

عنـد أول الحـي كان يجلـس بنيامـين مترقبًـا رجـوع جيروزاليـم بعـد أن بحـث عنهـا في كل شـبر، هجـم عليهـا حـين رأى خيالهـا يلـوح أمامـه مـن بعيـد، انقـض عليهـا ماسـكًا طرفهـا:

- ألـم أقـل لـك إيـاكِ أن تخرجـي دون إذني، إننـا عـلى أعتـاب حـرب قـد تنشـب في أي لحظـة.

ابتعدت جيروزاليم لخطوات عنه خائفة وهي تقول:

- ليس عليك لي إذن بنيامين من اليوم.

سمع بنيامين كلماتها، ثم لم يترك لها فرصة حتى أن تاخذ أنفاسها فانهال على جسدها الضئيل ضربًا ناعتًا إياها بأبشع الصفات:

- أيتها العاهرة المسترزقة على جسدها، السارقة الكاذبة، أنت لست سوى جارية حقيرة باعها والدها بمرتب شهري.

ثم أطاحها أرضا، ورفسها بأرجله ثم مسك بذراعها يسحلها وهي دامية على الأرض حتى وصل بها لمنزل ديفيد، وهناك تركها أمام باب المنزل، كان الناس في الحي شهودًا على ما فعله بنيامين بجيروزاليم، لكن أحدًا منهم لم يجرؤ على إيقاف بنيامين، كيف لهم ردع أمريكي ثري، يملك والده شركة مقاولات كبرى بالإضافة إلى أنه يمتلك أكبر مساحة أرض اشتراها بفوائد القروض التي أعطاها للفلسطينيين مقابل رهن أراضيهم، احتضنت أورشا ابنتها بينما جلس ديفيد مرتديًا تيفلونه يتعبد، غير مبال بحال ابنته الملقاة أمامه يبكُّ منها الدم بينما فزعت الأم نحو ابنتها، وهي تحث ديفيد على نجدة ابنته.

- لعنك الله يا ديفيد بما فعلته في ابنتي، انهض يا رجل لترى ما فعله بنيامين بجيروزاليم.

رمق ديفيد جيروزاليم بنظرة خاطفة وقال:

- أنا أعرف بنيامين، وكم يحب جيروزاليم، إنه لم يتجرأ على هذا إلا لأنها أخطأت، ومن يخطئ يستحق العقاب.

- قاس القلب.

قالتها أورشا في حنق، ثم لم تجادل ديفيد وشرعت في أخذ

ابنتهـا بـين ذراعيهـا.

- لا عليـك يـا صغـيرتي كل شيء سـيمر يـا حبيبـتي وسـيزول، وسـيصبح عـن قريـب طيًّـا مـن النسـيان.

وبصوت منتحب قالت جيروزاليم:

- إنه يمر نحو الأسوأ يا أمي.

لـم تكـن جيروزاليـم قـادرة عـلى احتمـال حـتى حضـن أمهـا مـن فـرط قسـوة الآلام.

- رويدًا رويدًا يا أمي إن جسدي لا يحتمل.

لـم تكـن جيروزاليـم قـادرة عـلى خلـع ملابسـها، فقصتها أورشـا من عـلى جسـدها وهـي واقفة لم يكـن في اسـتطاعتها النـوم أو الجلوس، أمـا أورشـا الأم المتصـدع قلبهـا تجـاه وحيدتهـا المسـتضعفة بقهـر رجـل فاقـد الرحمـة لـم تجـد سـبيلًا لتخفيـف آلام ابنتهـا سـوى المواسـاة. ليلـة أمضتهـا جيروزاليـم واقفـة، وقـد خدرهـا الألـم عـلى أن تحـس بـأي وجـع.

في الصبـاح كانـت جيروزاليـم بالـكاد قـادرة عـلى الاسـتناد عـلى جانبهـا، جلبـت لهـا والدتهـا خلطـة دهنـت بهـا جسـدها تـداوي جروحهـا وكدماتهـا، كانـت يـد الأم ثقيلـة عـلى الجـروح وبأنـين ضعيـف قالـت جيروزاليـم:

- أمـي لا أسـتطيع تحمـل حـتى دهـان جروحـي، اتـركِ الجـروح، فلربمـا تلتهـب وتتقيـح، ثـم ليسـعدني الحـظ بعـد ذلـك بمـوتي.

أبعـدت أورشـا قطعـة القطـن الـتي كانـت تمسـح بهـا جسـد ابنتهـا واضعـة إياهـا في الإنـاء، ثـم وضعـت يدهـا فـوق وجههـا قائلـة:

- أمـي كانـت يمانيـة ورثـتِ عنهـا يـا جيروزاليـم العينـين البنيتـين

الواسـعتين، وجـدتي عراقيـة بابليـة أخـذتِ منـه كثافة الشـعر وطوله، أبي مـن سـكان القـدس مـن اليهـود الأصليـين قبـل أن تكـون مـأوى المشـتتين، ومنـه أخـذتِ حسـن البنيـان والقامـة، والـدك ألمـاني أمـه يونانيـة، أخـذت منـه الشـعر الأشـقر الحريـري، ومـن أمـه الفـم والذقـن الإغريقيـة، وتلـك الثغـرة أسـفل الفـم، لأمـا الأنـف فهـو آشـوري؛ لأن إحـدى جداتـك الـتي كانـت إيرانيـة، ثـم يـأتي أمريـكي مجهـول الهويـة لقيـط الأصـل يؤذيـك ويسـتعبدك، اه يـا ابنـتي مـن قهـر مـا بعـده قهـر.

اتسعت عينا جيروزاليم وهي تقول:

- سيحررني مصري، سيحرر جيروزاليم مصري يا أمي.

علمــت حينهــا أورشــا أن جيروزاليــم عــلى علاقــة بشــخص غــير بنيامــين.

كانـا يومـان بالنسـبة لجيروزاليـم كفيلـين لإخـراج بنيامـين مـن بـين جنباتهـا، لـم تـترك في قلبهـا شـيئًا معلقًـا بـه، كان كقيـح ممتـلئ بالصديـد يسـمم جسـدها، جمعـت هدايـاه كلهـا وذهبـت لمنزلـه، مـنزل قابـع في منطقـة بعيدةعـن حـارة مونتفيـوري، مـنزل فخـم يحوطـه سـياج عظيـم مرتفـع أمـام بوابتـه، يقـف حـراس كجيـش منظـم حاملـين أسـلحة غريبـة وحديثـة بالنسـبة لجيروزاليـم، لـم يكـن ليسـمح لهـا بنيامـين أن تـزور منزلـه بـلا إذن منـه، كان الحـراس يعرفونهـا فيمـا بينهـم بلقـب حظيـة السـيد المدلـل.

قالـت للحـراس إنهـا عـلى موعـد مـع السـيد بنيامـين، ففتحـوا لهـا الأبـواب مرحبـين، مشـت جيروزاليـم حيـث الممـر الطويـل الفاصـل بـين جانـبي الحديقـة الشاسـعة وهـي حديقـة بشـعة يخـال لـك أنهـا جميلـة مسـالمة بينمـا هـي موحشـة مقفـرة، العصافـير والطيـور

مسـجونة داخـل أسـوار، بهـا بيـوت للزواحـف والثعابـين، وبحيرتهـا مليئـة بالتماسـيح.

تذكـر جيروزاليـم أنـه يـوم أغضبـت بنيامـين فـأتى بهـا للبحـيرة يفصـل بينهـا وبـين تمسـاح ضخـم أسـلاك سـور البحـيرة، هددهـا بأنـه سـيطعمها لهـذا التمسـاح إن أغضبتـه مـرة ثانيـة، أمـا اليـوم فـلا ترهبهـا.

وقفــت أمــام المــنزل الضخــم الــذي يشــبه منــازل الرعــب في القصـص الخرافيـة، مـنزل أبيـض الواجهـة أسـود داخلـه، ففتـح لهـا الخـدم يهـود عـرب مـن كافـة البلـدان، اليهـود الأجانـب كانـوا قادريـن ماديًّـا أكـثر مـن أمثالهـم مـن العـرب الذيـن وجـدوا أن مـنزل بنيامـين عائـن، طـال انتظـار جيروزاليـم لبنيامـين، وبعـد وقـت كبـير جـاء يقابلهـا بـبرود متعلـلًا بانشـغاله، فأعطتـه هدايـاه قائلـة:

- هاذي هداياك أشتري بها حريتي.

حاول بنيامين استمالتها.

- حبيبتي جيروزاليم ...

- يجدر بك القول جاريتي.

أمسـك بنيامـين بذراعهـا بقـوة وشـدها إليـه بعنـف، ثـم قبلهـا على غـير رغبـة منهـا، ومـا كان مـن جيروزاليـم إلا أن أخرجـت مـن جيبهـا سـكين فجرحتـه جرحًـا بطـول كتفـه ناحيـة القلـب، هـال بنيامـين منظـر دمائـه، فوقـف ثابتًـا تسـيل منـه الدمـاء، مذهـولًا مـن رد فعـل جيروزاليـم الـتي تركتـه بـلا عـودة.

ذهبـت بعدهـا جيروزاليـم لبسـتان قبر المسـيح، كان بولس جالسًـا كعادتـه متأمـلًا متعبـدًا، جلسـت جيروزاليـم أسـفل قدميـه تعبـة

مرهقـة، وضعـت يديهـا بـين يديـه قائلـة: «يمكنـك رؤيـة سلاسـل القهـر المكبلـة بهـا حـرر قيـدي يـا بولـس»، فطلـب منهـا الرحيـل قائـلًا لهـا: «ارحـلي يـا جيروزاليـم حيـث أهلـك وديانتـك». أعـادت عليـه طلبهـا باكيـة مترجيـة: «حـرر قيـدي يـا بولـس، حـرر قيـدي»، لكنـه أصر طالبًـا منهـا الرحيـل، أعـادت سـؤالها مـرات كثـيرة، وفي كل مـرة كان يطلـب منهـا الرحيـل ... رحلـت عنـه مخذولـة مطعـون فؤادهـا ألـف طعنـة، يوجعهـا الخـذلان، توجعهـا القسـوة، يوجعهـا جـراح ضربـات بنيامـين لجسـدها، لا لـن ترجـع لبنيامـين ولا لبولـس كان هـذا قرارهـا، بولـس الـذي في الحقيقـة كان قـد دفـن قلبـه حيًّـا بحبهـا، ليحـترق قلبـه ولا تـؤذى هـي.

-٧-

كان هـذا في بدايـة عـام ١٩٤٧، وكانـت الحـرب الأهليـة على أشـدها، انضـم بنيامـين لجماعـة يهوديـة لمحاربـة الفلسـطينيين الأصليـين، وجعــل ديفيــد مــن سرداب المــنزل مخــزن ســلاح وقنابــل ومقــرًا للاجتماعـات، كان الغـرب يـبرم الاتفاقيـات ويعطـي الوعـود لليهـود بـلا رادع، أو مبـال مـن العـرب مـع تمويـلات أمريكيـة ماليـة وحربيـة لليهـود.

أمـا جيروزاليـم فقـد تعافـت تمامًـا مـن كل جروحهـا، لكـن روحهـا ظلـت ببولـس متعلقـة غـير قـادرة عـلى الاستشـفاء منـه، في هــذا اليــوم أتى والدهــا ومعــه بنيامــين، ســمعت جيروزاليــم عبــارات الترحيـب والثنـاء فاحتمـت بحجرتهـا، بينمـا انتحـى ديفيـد بأورشـا جانبًـا، سـمعت جيروزاليـم صـوت والدتهـا تـصرخ وتتشـاجر بشـكل لـم يسـبق لـه مثيـل مـن قبـل مـع والدهـا، لكنهـا لـم تسـتوضح المغـزى سـوى أن الأمـر كان يخصهـا فجـأه صمـت شـجارهما.

لـم تجـد جيروزاليـم بـدًّا مـن الاسـتيقاظ في جـو يلوثـه بنيامـين بأنفاســه فــأوت لفراشــها، وفي مرحلــة الغفــوة مــا بــين النــوم واليقظـة، إذا ببنيامـين يقـف بجانبهـا، هـي تحلـم صدقـت أنـه حلـم وأغلقـت عينيهـا مـرة أخـرى كان الكابـوس الأسـوأ في حياتهـا، أغمضـت جيروزاليـم أعينهـا وهـي تـردد بداخـل نفسـها: «لا تفتحـي عينـاكِ يـا جيروزاليـم، لا تفتحيهـا، إنـه كابـوس لا تفتحيهـا» اختلـط عليهـا الأمـر وكأن الواقـع هـو الكابـس الـذي أرادت الهـروب منـه.

شـعرت جيروزاليـم بـشيء سـاخن يطبـع عـلى وجههـا حـين لثـم

بنيامين وجنتيها، لم تكن تلك يديه التي كانت تمر فوق جسدها، إنما نصل سيف حاد يمزق أوصالها، رغم أن جيروزاليم أباحت لبنيامين جسدها إلا أنها رفضت تمامًا التفريط في عذريتها، ظانة أن ذلك سيجعل بنيامين يفكر جديًّا في الزواج بها حتى ينالها كليًّا، أما بنيامين فقد وجد أن النيل من جيروزاليم هو مسألة وقت ليس أكثر ما دامت خاضعة، لكن حين رأى منها التمرد وجد أن هذا الأمر قد أصبح مستحيلًا، وأنه لا طريقة للاستحواذ على جيروزاليم سوى اغتصابها، ومن ثم تصبح رهن إشارته.

ولما بدأ يخلع عنها ثوبها فتحت جيروزاليم أعينها محاولة الإفلات لكنه كان قد تمكن منها، صرخت صرخة واحدة ضاعت في المدى، وبسرعة كتم فمها بيده مستمرًا في الإنهاء عليها، اغتصبها اللعين، كيف حدث ذلك؟ وكيف لم يسمع صرخة استنجادها الوحيدة أحد؟ وكيف تركت له نفسها؟ فريسة مذبوحة ومطهية بالطريقة التي يفضلها، وبالشكل الذي يريده، فقد قدمها له ديفيد وجبة رئيسية بلا مقبلات، مقدمة لوحش بشري ليأكل في نهم وهو جوعان، الحقيقة أن والدها هو من سمح له بالتهامها والقضاء عليها، بعد أن قيد أورشا خوفًا من أن تنفر لنجدة ابنتها.

أفاقت جيروزاليم من كابوس لا يقظة منه، خرجت عارية من إنسانيته، مسلوبة من حريتها تمشي شبه مغيبة، رآها بنيامين فأخذ اثنين من حراسه وتتبعوا طريقها، حتى وصلت للبستان، لم تجد بولس وقتها لكنها كانت مصممة على لقائه، مصممة على منحه نفسها وعمرها الآتي كله بلا مقابل سوى الحرية، جلست في نفس مجلس بولس تنتظره وكان بنيامين يراقبها.

ساعتان لم تتحرك فيهما جيروزاليم أو تلتفت حولها كتمثال بشري منزوعة روحُه كانت تجلس. أقبل بولس نحوها على عجل حين رآها واقترب بمحاذاتها بادرته القول: «وها أنا قد أُذيت، ما أنت فاعل بولس؟» ركع بولس جاثيًا بين يديها، وقد رآى في نبرة صوتها ومن الآثار على جسدها وثوبها ما حل بها.

في تلك اللحظة حسم بنيامين أمرهما، ضرب بولس فوق رأسه ضربة أفقدته الوعي، وكتف جيروزاليم، أخذهما الاثنين حيث منزل ديفيد، ووضعهما أمامه قائلًا وهو يشير لجيروزاليم: «خائنة تنقل الأخبار لهذا القس ضددنا»، هنا جائت الفرصة لديفيد للانتقام، هتلر وقع في يده، الفلسطينيون وكل العرب وقعوا تحت رحمته، ها هي فرصة الانتقام سانحة، تجمعت الأحقاد وتكورت بداخله ناسيًا أن تلك التي أسفل قدميه ابنته، أسقط الأحقاد كلها على بولس الذي حكم عليه بالصلب ساعة غسق اليوم التالي، وجيروزاليم التي بعد مشاهدتها لعملية الصلب ستكون من نصيب بنيامين هو حر في غنيمته يفعل بها ما يشاء.

كتَّفا الاثنين، وأزيح بهما في السرداب، كتمت أورشا ما بداخلها، فلو أبدت ولو دمعة أو إيماءة رفض لزُج بها هي الأخر ى معهما، لم يكن بولس قادرًا على مواجهة عينا جيروزاليم لإحساسه بالخذلان تجاهها، وكانت هي كما هو لشعورها بالذنب تجاهه لما ورطته فيه.

كان السرداب مظلمًا إلا من بصيص ضوء خافت لفتيل سراج صغير، علق على الحائط متوسطًا جيروزاليم وبولس من الناحية المقابلة لهما، أسلحة متنوعة متراصة بجانب حوائطه بالطول

والعـرض، وقـد نفـذ مـن أرض البـدروم رائحـة مسـك دمـاء الشـهداء الموتوريــن عــلى يــد ديفيــد وأعوانــه، كان الــسرداب غــير محــدد المعالــم أو مقســم، ويبــدو كمــا لــوكان بهــوًا فســيحًا، لــم يكــن يســمح لأورشــا أو جيروزاليــم دخولــه، ولــم يكــن لواحــدة منهــن الرغبـة لدخولـه لبشـاعة مـا يحـدث فيـه، عنـد آخـر الـسرداب كان هنـاك حفـرة عميقـة بدايـة لنفـق طويـل يصـل لمنطقـة المقدسـات داخـل أسـوار القـدس.

أورشــا الأم الــتي انتهكــت ابنتهــا أمــام عينهــا ولــم تســتطع أن تتفــوه بشــطر كلمــة، احتقــرت نفســها الضعيفــة أمــام ســطوة ديفيــد، لا حــول لهــا ولا قــوة، أثقــال القهــر ازدادت، تقــوس بهــا عمرهـا، لـم تعـد أورشـا قـادرة عـلى تحمـل هـوان مـا كانـت تعيـش فيـه، سـيضيع قلبهـا بـلا رجعـة سـتفقد جيروزاليـم، كانـت تلـك هـي الليلــة الفاصلــة، هــي مقابــل ابنتهــا، آخــر فرصــة أمامهــا المــوت أم المـوت؟ في كل الحـالات المـوت هـو المحتـوم، فلتمـت راضيـة غـير نادمـة، أعـدت أورشـا العشـاء مضيفـة لـه جرعـات منومـة، كان ديفيـد يجلـس مـع بنيامـين في إحـدى حجـرات المـنزل يلعبـان الـنرد بـكل بـرود، ينتظـران إتمـام مسـاعدي بنيامـين لبنـاء الصليـب في أحـد أركان الــسرداب، وضعــت أورشــا الطعــام أمامهمــا ونزلــت بصنيــة أخــرى للباقــين، وبعدمــا اطمئنــت أن الجميــع راح في ســباته نزلــت للقبــو، كان الصليــب الخشــبي ممــدًا عــلى الأرض، هالهــا المنظــر وهــي تتخيــل بولــس معلقًــا عليــه، هممهــت بداخــل نفســها وســارت بخطـى حثيثـة تجـاه جيروزاليـم وبولـس:

- «إن من يذبح شاة لا يريها سكينة يال بشاعة قسوتهم».

قالـت أورشـا بصـوت هامس، ثـم فكت قيـدي بولـس وجيروزاليم،

حضنـت أورشـا ابنتهـا كمـا لـو أنهـا آخـر مـرة تلقاهـا فيهـا، فللفـراق رائحـة مميزة للمفطـورة قلوبهـم عنـد الرحيـل، أعطـت أورشـا لفافـة التـوراة خمسـة أسـفار، شـهادة التوحيـد ومبـادئ الأخـلاق لابنتهـا بعـد أن وضعتهـم في صنـدوق خشـبي مصـدف كان ملـكًا لمردخـاي أهـداه لـه صديقـه عبدالرحمـن والـذي أحـضره معـه مـن الحجـاز بعـد عودتـه مـن الحـج. ثـم سـلمت أورشـا الاثنـين الصنـدوق وجيروزاليـم لبولـس:

- بولـس، عـدني أن تكـون عـلى قـدر تحمـل الأمانـة، إن كنـت لا تسـتطيع اتركهـا.

نظـر بولـس نحـو جيروزاليـم الـتي بادلتـه بنظـرات ترجـي، ثـم أمسـكت بمعصـم يـده ضاغطـة عليـه وقالـت:

- لـن أسـامحك مـا حييـت إن لـم تحـررني يـا بولـس، وسـتلاحقك لعنـة خذلانـك لي طـوال عمـرك.

أخذ بولس من يدها لفافات الأسفار وفي تحدي قال:

- هيا يا جيروزاليم معي لن أتركك ما دام في عمري لحظة.

أشارت عليهما أورشا أن يتخذا النفق.

- أذا مـا قـدر لكمـا الوصـول بسـلام إلى القـدس ابحثـا عـن الشـيخ المجاهـد عبـد الرحمـن النيشـاني فقـد كان صديقًـا لجـدك مردخـاي هـو رجـل صالـح ولـن يـأل جهـدًا في مسـاعدتكما.

كان النفـق ضيقًـا يتسـع عرضـه لفـرد واحـد يعـبره حبـوًا عـلى يديـه ورجليـه، ولـم يكـن أي منهمـا يعـرف لأي مـكان ينتهـي النفـق. توقـف بولـس سـائلًا جيروزاليـم :

- ماذا لو كان النفق ينتهي بالمعبد.

- لا يمكـن أن تكـون تلـك نهايتـه، لمـاذا يصنـع أبي ورفقائـه نفقًـا إلى المعبـد في حـين أنـه مـن الممكـن أن يمـروا بسـلام إليـه مـن الشـوارع الرئيسـية والطـرق العامة.

استمر بولـس وجيروزاليـم في سـيرهما حـتى وصـلَا لصخـرة ضخمـة أغلـق بهـا منفـذ النفـق، أعطـى بولـس لجيروزاليـم مصبـاح الغـاز الصغـير، وراح يضغـط بيديـه عـلى الصخـرة، كان شـكل الصخـرة يـدل عـلى أنهـا وضعـت مـن خـارج النفـق، حـاول بولـس زحزحتهـا لكـن بـلا أي جـدوى.

***

كان الصديقـان ناجـي مصطفـى وعبـد القـادر التونـسي عائديـن مـن اجتمـاع تكويـن أول جماعـات الجهـاد ضـد إرهـاب اليهـود، وكانـت الجماعـة معروفـة بـين بـاقي الفصائـل باسـم (جماعـة الجهـاد المقـدس)، وهـي جماعـة أصيلـة تدعـو للسـلام ومحاربـة الإرهـاب، توقـف ناجـي مصطفـى وعبـد القـادر أمـام الصخـرة المتزحزحـة يتأملانهـا لثـوانٍ قبـل أن يهمَّـا برفعهـا في حـذر.

سـقطت أضـواء مصابيـح ناجـي وعبـد القـادر عـلى وجهـي بولـس وجيروزاليـم، فصـوب الآخـران مسدسـاتهما نحوهمـا عاجلهمـا بولـس:

- يا أخي إنما نحن هاربان أعزلان، ونسألكما السلام.

كان الوضـع مريبًـا بالنسـبة لناجـي وعبـد القـادر اللذيـن أمسـكا بهمـا يسـاعدانهما عـلى الخـروج، وقـف ناجـي قبالتهمـا مصوبًـا

المسـدس، وراح عبدالقـادر ينظـر لداخـل النفـق ولكـن حـين هـم لدخولـه حـذره بولـس:

- احذر يا أخي إنما هو عش دبابير، لا تدخله.

- إلى أين يتجه؟

- لمنزل في حي مونتفيوري.

نظر عبد القادر لناجي وهو يقول له:

- إنهما بالتأكيد يهودًا متآمرين.

رد بولـس: أنـا راهـب مسـيحي، وكان مـن المفـترض إعدامـي غـدًا، وهـذه خطيبـتي جيروزاليـم، يهوديـة لكنهـا مسـالمة لا تقلقـان منهـا أمهـا عربيـة خالصـة.

فتـش عبـد القـادر وناجـي بولـس، ولـم يمسسـا جيروزاليـم، ثـم أخذوهمـا لمـنزل الشـيخ عبـد القـادر الحسـيني، وهــو واحـد مـن زعمـاء المقاومـة الذيـن أخـذوا عـلى عاتقهـم مهمـة تحرير فلسـطين، في منزلـه روى بولـس قصتـه هـو وجيروزاليـم، ثـم أنهـت جيروزاليـم حديثهـا بمـا طلبـت منهمـا أورشـا:

- إن لي طلبًـا منكـم، وهــو إيصـالي بالشـيخ المجاهـد عبدالرحمـن النيشـاني.

قال عبد القادر: ومن أين لك معرفة الشيخ عبدالرحمن؟

- والـدتي اسـمها أورشـا، وهـي ابنـة مردخـاي المزراحـي، وهــو رجـل يهــودي كان يعمــل سـاقيًا في الأماكــن المقدســة في القــدس، وكان عبدالرحمـن النيشـاني صديقـه.

طلـب عبـد القـادر مـن أحـد الشـباب أن يذهـب لمـنزل الشـيخ عبدالرحمـن والإتيـان بـه للوقـوف عـلى صدق روايـة جيروزاليـم مـن

كذبهـا، لكـن ناجـي اسـتوقفه.

- لنتريـث قليـلًا يـا رجـال، هـذان الغريبـان قـد أتيـا مـن نفـق يصل لحـي اليهـود، النفـق ذاتـه أول علامـات الشـك في صدقهمـا، ثـم إن يهوديـة الفتـاة ألا تشـتمون منهـا الغـدر؟ ألا تعطيكـم انطباعًـا بـأن مـا نحـن فيـه ليـس إلا مؤامـرة؟

علت الأصوات ...

- نعم.

- عندك حق.

- لنتخذ رد فعل صارم تجاه تلك المؤامرة.

قاطعتهم جيروزاليم.

- عـلى مهلكـم يـا رجـال فلسـطين، إن يهوديـتي لا تثبـت صهيونـتي، وليـس بالـضرورة أن يحمـل كل يهـودي أفـكارًا صهيونية بداخلـه، إني لا أمانـع مطلقًـا في العيـش جميعًـا عـلى نفـس الأرض، وأن نتحـرر مـن بريطانيـا، وأن توقـف حـتى الهجـرات اليهوديـة، إننـا لـم نكـذب في شيء، وأنـا مصممـة عـلى مقابلـة الشـيخ عبدالرحمـن.

رد ناجي التونسي:

- تتكلمـين بثقـة وبمنطـق معقـول، الفجـر عـلى أذان، ننتظـر حـتى خـروج الشـيخ عبدالرحمـن للصـلاة، ونطلـب منـه المجـيء لا داعـي لإقـلاق منـام الرجـل.

انتظـرت جيروزاليـم في شـطر المـنزل النسـائي، بينمـا ظـل بولـس مـع رجـال المقاومـة الذيـن أعـدوا لهـم طعامًـا وشرابًـا، وأكرموهـم بطيـب وفضـل أخـلاق المسـلمين.

بعـد صـلاة الفجـر حـضر الشـيخ عبدالرحمـن، وقـد أصبـح رجـلًا

طاعنًا في السن يتكئ على عكازه، قال أحد الرجال:

- جيروزاليم تقول إنها حفيدة صديقك مردخاي، ما رأيك في حديثها شيخنا؟

نظر الشيخ مطولًا إلى جيروزاليم ثم قال:

- إنها بالفعل حفيدته، وبصورة لا يرق إليها الشك، إني أرى أن أصولها العربية لغالبة، لقد عاشرتُ جدها مردخاي سنوات طوال أتذكر كيف تكون تعابير وجهه، إذا ما فرح أو حزن أو غضب، كيف تكون نظرته المضادة تجاه كل ما يخيفه ويفزعه، وها هي تلك النظرة تتمثل أمامي، إن هذه الفتاة خائفة ومزعورة تجاه ما تركته خلفها، وما ستستقبله من أمامها، قولي لي يا جيروزاليم، كيف مات جدك؟

- سمعت من أمي أن من قتله فرد من جماعة عز الدين القسام؟

تنهد عبد الرحمن وهو يستند على يد أحد الرجال كي يجلس وقال:

- ااااه، حتى إنهم اتهموني أنا شخصيًّا بقتله.

أحسن الجمع بهما الظن، وأنزلوهما منزلة الأهل والأقارب، لم يمر أسبوعان إلا وأَشَهَر بولس وجيروزاليم زواجهما، والغريب أن بولس وجيروزاليم طلبا من الشيخ عثمان المأذون أن يزوجهما بعقد قرآن بالطريقة الإسلامية تبركًا وتيمنًا، وبهذا أشهرا زواجهما هناك في حفل تليتْ فيه بعض آيات القرآن من قبل الشيوخ، تبعه بولس ببعض من الإنجيل، ومن ثم أسفارًا من التوراة أوردتها جيروزاليم، عشرة أشهر مضت، لم يهنأ لجيروزاليم

بــالٌ، تتضــارب الاحتمــالات في مخيلتهــا كمــا القذائــف والصواريــخ المتبادلـة، وكأنهـم قسـموا السـماء كمـا الأرض، سـماء مـزروع تحتهـا أمهــا وأهلهــا، طرقــات طفولتهــا وصباهــا، أحلامًــا خبأتهــا أســفل وســادتها، ثوبًــا نصــف محــاك محــالٌ أن يلبــس، وســماء أخــرى تحميهـا تغطيهـا تغسـل أمطارهـا ذنوبهـا، وتمسـح دمعاتهـا داخـل عيونهــا، لأي ســماء تنحــاز يــا تــرى؟ حــتى أتى اليــوم الــذي حســم قرارهـا، كانـت تنظـر مـن شرفـة المـنزل الـذي أهـداه لهمـا الشـيخ عبــد الرحمــن، وإذا بهــا تــرى يهــوذا جارهــم الــذي كان يعمــل في الربـا في حـارة اليهـود، كيـف لـه أن يدخـل المدينـة في الحـرب هكـذا، بعثــت جيروزاليــم للشــيخ عبدالرحمــن مــع بولــس مــا رأت واصفــة زيــه وملامحــه.

أتى بولـس آخـر النهـار كظيـم الوجـه مكفهـر عـلى الرغـم مـن أنـه حــاول تزييــف مشــاعره بابتسـامة كاذبـة وقبلـة عـلى جبينهـا مرتعشـة، أعــدت جيروزاليــم الطعــام، ثــم وضعتــه عــلى الطاولــة وجلســت بجــوار بولــس، تحدثــت معــه في أمــور يومهــا العاديــة بــلا أمــل أن يفاتحهــا في موضــوع يهــوذا، كأنــه تعمــد عــن قصــد مــواراة الخــبر عنهــا، ســألته متعجبــة:

- ترى ما قصة يهوذا؟

أجابها بولس وهو يكاد يخبئ وجهه في الطبق الذي أمامه:

- خائــن ينقــل الأخبــار والمعلومــات متســترًا بصفــة تاجــر مســلم يدعــى عبــد الــراضي.

تركـت جيروزاليـم كرسـيها وجلسـت أسـفل أقـدام بولـس متوسـلة إليــه بــالله وبــكل الأديــان أن يصارحهــا، مــاذا فعلــوا بأمهــا؟ هــي توقـن أن بولـس سـأله عنهـا بالتأكيـد، صمـت بولـس فألحـت عليـه

جيروزاليم تستجديه بمن في رحمها إن لم يجب عليها سيخنقه القهر بداخلها، باحت دموعه من قبل أن ينطق بكلمة قال لها:

- إن والدك حين استيقظ ولم يجدنا جن جنونه، وأخذ يهذي، اتهم أورشا بالخيانة، وأنها تعمل لحساب المقاومة الفلسطينية، لكن في المساء حدث ما لم يتوقعه أحد، كان صراخ أورشا يهز الحارة كلها، دخل الناس وكسروا الباب الموصد ثم نزلوا للقبو حيث الصرخات المتتالية ليجدوا بنيامين معلقًا أورشا، صالبًا إياها على الصليب، كان بنيامين من بين من كانوا مع الجمع أخرج سكينًا وغرزه في قلب أورشا لترتاح من آلامها، انقض ديفيد على بنيامين الذي عاجله وبنفس السكين بضربة قاتلة ليموت ديفيد وأورشا، ليس هذا فقط فالأخبار الآتية من الكنيسة وإن قلَّت وحشية، فهي لا تقل وجعًا، حين أحسوا بفقداني هنالك ظنوا أن سوءًا لحق بي، أفرغوا حجرتي ليجدوا بها الطاليت والطاقية اللذين أهديتني من قبل، اتهمتُ بالخيانة وحكم عليَّ بالإعدام وإراقة دمائي.

كشجرة انتزعت من أرضها، وجردت من جميع معاني الحياة، ملقاة على الطريق، كانت هذه هي حال جيروزاليم، كبير هو الحزن على أن يتسعه قلبها، متشعب ملتف حول رقبتها يكاد يخنقها، ذُعر بولس حين رآها ممددة على الأرض لا هي غائبة عن الوعي، ولا هي متيقظة، أطرافها باردة تنسحب منها الحياة، طلب منها بولس أن تقاوم، أن تزرع نفسها بنفسها من جديد، وأن تزيل بيدها أغصان الحزن الملتفة حولها ... بينما كانت الحياة تتراجع عنها أبى جنينُها إلا أن يعيش وأن يقاوم بدلًا منها، أمسك بزمام الحياة المنفلتة من أمه: لا لن تسقطي جيروزاليم،

تشـبثي بحريتـك، قاومـي مـن أجـلي. كان يـردد صـدى بداخلهـا حـتى ضـاع صوتـه منهـا وتـلاشى. اسـتيقظت لتجـد نفسـها بـين ذراعـي منقذتهـا الصغـيرة جـدًّا، ممسـكة متشـبثة بيدهـا، كأنهـا تقـول لهـا: جيروزاليـم لا تخـافي ولا تحـزني أنـا معـك. وضعـت جيروزاليـم ابنتهـا مريـم وهـي شـبه فاقـدة الوعـي رحمـة لهـا مـن الله.

-٨-

بداية هلاك جيروزاليم (القدس) بدأت من حي مونتفيوري في ١٩٤٨/٢/١٠ حين قام بنيامين بقتل عربي أثناء مروره في الحي على مسمع ومرأى كل من في الحي، ثم طاف بجثمانه في الحارات والشوارع ماسكًا بيدٍ رأسه وباليد الأخرى باقي جسده، آثار ذلك حمية نيران الحقد في يهود الحي مما جعلهم يتجهوا نحو حي الشماعة العربي لينسفوا عددًا من بيوته، وبعد يومين هب العرب للأخذ بالثأر.

تجمع القادة في منزل المجاهد عبدالقادر الحسيني الذي أقر إعلان الحرب بشكل رسمي بما معه من ذخيرة، كانت ألمانيا قد مدت المقاومة الفلسطينية بها عن طريق وساطة قام بها المجاهد أمين الحسيني مع هتلر إبان الحرب العالمية الثانية بالنكاية في بريطانيا، وتدريب المجاهدين العرب على يد الألمان الذين دخلوا فلسطين عن طريق ليبيا، وكان أمر الحرب بالنسبة لليهود بدون تعقيدات وذلك لإمداد أمريكا لليهود بالأموال والعربات المجنزرة على مرأى ومسمع من العالم كله المليئة بالأسلحة بالإضافة لعشرين طائرة حربية أمدت بها بريطانيا الجيش اليهودي.

أقر القادة الخطة بأن ينقسموا لثلاث فرق؛ واحدة منهم لحماية المنازل والنساء والأطفال، اعترض بولس:

- أريد أن أكون مع المقاتلين.

أجابه الشيخ عبدالرحمن:

- اسمع يا بولس، في الحرب قد تجد ثكنة بأكملها تهب لإنقاذ فرد، دورك وباق المجاهدين المرابطين هنا في الأحياء العربية لا يقل أهمية عن هؤلاء الذين في أرض المعركة، ثم إن الفكرة كلها تكمن في أنك غير مدرب على الدخول في حرب منظمة وحمل السلاح، المعركة يا بني ليست سهلة كما تظن.

أما باقي الفرق فقد كان فريق منهم يطلق النار من ناحيتي النبي داوود والثوري بقصد التغطية، وأغلق فريق آخر طريق ماميلا بالسيارات والحافلات خشية أن تأتي اليهود نجدات بريطانية من هذه الجهة.

في حين تمركز عدد من المناضلين في حي النبي داود والثوري (من أحياء القدس)، وراحوا يطلقون النار تغطية لقوة الهجوم التي انطلقت من باب الخليل، وانقضت على حي مونتفيوري واقتحمته ونسفت منازله رغم المقاومة العنيفة التي أبداها سكانه مع تمويل من شركات جيكوب الرأس مالية في أمريكا وغيرها من المنظمات الصهيونية والنجدات التي وصلت إليهم من البلاد الأخرى، وكاد الحي بأكمله أن يسقط بيد العرب لولا تدخل البريطانيين بوازع من المسئولين البريطانيين المنتدبين في فلسطين، وإنذارهم المناضلين بوجوب الجلاء عن الحي خلال نصف ساعة وإلا تعرضوا للنيران البريطانية.

دخلوا الحي بعزائمهم وأرواحهم الفدائية إيمانا بأن تلك الأرض إنما هي وطنهم، وأنهم الأحق بها من شتات البشر، لكن الإنجليز لم يرضوا إلا بمساعدة حلفائهم اليهود، فأقام الإنجليز قوتين: إحداهما في الحي نفسه، والأخرى على سير

المدينــة تجــاه حــي النــبي داود.

في الســاعة السادســة مــن مســاء ٢٣ مــارس اقتحــم حــي مونتفيــوري المناضــلان ناجــي مصطفــى وعبــد القــادر بســيارة كبــيرة محملــة بالألغــام، وقــد ســلكا الطريــق الفرعيــة المؤديــة إلى الحــي بــين الشــماعة وبركــة الســلطان، وقطعَــا الأســلاك الشــائكة الــتي وضعهــا الصهاينــة لحمايــة الحــي، بينمــا كانــت مجموعــة مــن المناضلــين تقــوم بتغطيتهمــا بالنــيران مــن مواقــع عــدة: النــبي داود، وعمــارة شــامية، والثــوري. ودخــل المناضــلان الحــي وتــركَا الســيارة فيــه، ومــا كاد اللغــم الكبــير - كان حــوالي نصــف طــن مــن مــادة ت ن ت صنعــه فــوزي القطــب - يتفجــر حــتى هــوى عــددٌ مــن المنــازل وانهــارت جميــع الطبقــات العليــا في الحــي وقتــل عــدد كبــير مــن ســكانه وجــرح كثــيرون.

وتمكــن العــرب مــن اقتحــام الحــي، ومــن نســف بعــض منازلــه، وأخرجــوا اليهــود المقيمــين في أطرافــه، وكاد الحــي كلــه أن يســقط مــرة أخــرى لــولا تدخــل البريطانيــين، وأنذرهــم قائدهــم أنهــم إن لــم ينســحبوا في خــلال نصــف ســاعة ســيضطر لإخراجهــم بالقــوة، فانســحبوا، وكانــوا يومئــذ لا يرغبــون في الاصطــدام بالجنــد، كي لا يقاتلــوا جيشــين في آن واحــد.

وقــد أسرع الناجــون إلى إخــلاء الحــي، وكان بامــكان المناضلــين احتلالــه بــدون أي عائــق، ولكنهــم كانــوا يســتهدفون وفــق الخطــة الــتي كان قــد وضعهــا المناضــل عبــد القــادر الحســيني نســفه لا احتلالــه، وربمــا كان ســبب ذلــك نقــص في الرجــال والســلاح اللازمــين للدفــاع عنــه بعــد احتلالــه، بعــد أن رجــع مــن اجتمــاع الجامعــة العربيــة لا يحمــل ســوى كيــس مملــوء بالرصــاص بعدهــا أطلــق

صيحتــه الــتي أثــارت الحماســة:

«نحــن أحــق بالســلاح المخــزن مــن المزابــل، إن التاريــخ ســيتهمكم بإضاعــة القــدس وحيفــا وغيرهــا، إن رجــال الجامعــة والقيــادة يخونــون فلســطين، وإنني ســأموت في القســطل قبــل أن أرى تقصيركم وتواطؤكــم» وفي الواقــع فــإن الأمــم المتحــدة قــد أصــدرت قانونًــا بمنــع إمــداد الــدول العربيــة أي إمــدادات عســكرية تذكــر، وأن إمــداد المقاومــة كان يعــني إفــراغ بــاقي الــدول مــن الســلاح، وهــو في حــد ذاتــه خطــر لا يقــل عــن خطــر الحــرب في فلســطين.

وقــد تــم نســف حــي مونتيفيــوري انتقامًــا مــن الصهاينــة الذيــن كــثرت اعتداءاتهــم عــلى طريــق المــواصرت العربيــة، ولا ســيما عنــد مســتعمرة النــبي يعقــوب عــلى طريــق القــدس؛ لــذا قــرر بنيامــين تجميــع كتائــب اليهــود الــتي سرعــان مــا انتظمــت وتوحــدت لتكويــن جيــش، وقــد قــاوم اليهــود مقاومة شــديدة، ولمــا رأوا تدفــق المدنيين لنجــدة المجاهديــن اســتنجدوا باليهــود القاطنــين في الأحيــاء الغربيــة، فأتتهــم نجــدات كبــيرة، ولكنهــا صــدت.

قتــل في هــذا الحــادث ستة مــن العــرب وجــرح ســبعة، وأما خســائر اليهــود فبلغــت عشريــن بــين قتيــل وجريــح، وأقــام الإنجلــيز، إثــر ذلــك قوتــين: واحــدة في الحــي نفســه، وأخــرى عــلى ســور المدينــة تجــاه النــبي داوود.ومــن هنــا بــدأت شــوكة اليهــود تتقــوى وتتعــافى تحــت حمايــة الغــرب. وبتزايــد أعــداد المختطفــين والمقتولــين مــن العــرب بــدا أمــر الحــرب وشــيكًا، ســقطت حيفــا في 22 أبريــل ١٩٤٨ وغادرهــا أهلهــا عــن طريــق البحــر، فريــق منهــم هبــط عــكا وفريــق ذهــب إلى صيــدا وصــور وبــيروت، ولــم يبــق في المدينــة ســوى أربعــة آلاف فلســطيني.

اقـترف اليهـود بعـد احتـلال حيفـا مـن الآثـام مـا تقشـعر لـه الأبـدان، فقتلـوا ونهبـوا كل مـا وجـدوه في منـازل الفلسـطينيين مـن مـال ومتـاع، وراحـوا يلقـوا بجثـث الشـهداء أمـام الأشـخاص الذيـن اختـاروا البقـاء في منازلهـم ليخـاف هـؤلاء ويتركـوا منازلهـم، ولقـد قلـب اليهـود مسـاجد المسـلمين إلى إسـطبلات ووضعـوا فيهـا الـدواب، وهدمـوا معظـم المنـازل العربيـة، ولا سيما تلـك الـتي تقع بـين ساحة الخمـرة ومحطـة السـكة الحديديـة، حـتى حجـارة القبـور، اقتلعوهـا مـن المقابـر، ومعظمهـا مـن الرخـام، واسـتعملوها في بنـاء منازلهـم ومتاجرهـم.

في ٢٣ أبريـل ١٩٤٨ انسـحب الإنجلـيز مـن حيفـا بعـد أن شـطروا المدينـة شـطرين، ووقفـوا عـلى بوابـات المدينـة يمنعـون وصـول النجـدات العربيـة، ولـم يقومـوا بمثـل هـذا العمـل تجـاه النجـدات اليهوديـة؛ إذ راحـت تنسـل إلى قلـب المدينـة مـن مشـمار هعيمـك ومـن المسـتعمرات الأخـرى.

بعـد أن انسـحب البريطانيـون مـن المدينـة إلى منطقـة المرفـأ شـن اليهـود هجومًـا خاطفًـا عـلى العـرب، فشـطروهم إلى شـطرين، واسـتولوا عـلى مراكزهـم، فاتصـل المجاهـدون بقنصـلي سـوريا ومـصر وبقـادة الجيـش العـربي الـذي كان يرابـط عـلى مقربـة مـن حيفـا، قيـل إن اللجنـة العسـكرية قـررت أن تـزود حيفـا بفصيـل اليرمـوك، عـادت وعدلـت عـن رأيهـا وأرسـلته إلى القـدس، وأمـا الجيـش فـإن السريـة الأردنيـة الـتي كانـت عـلى مقربـة مـن حيفـا لـم تتقـدم للنجـدة.

وهكـذا تمكـن اليهـود مـن احتـلال حيفـا عـلى مـرأى مـن سـبعمئة جنـدي مـن جنـود الجيـش العـربي، وتوالـت لحظـات الخـذلان

وحـتى وصـول المـدد والأسـلحة غـير المـدرب عليهـا لجنـود الجيـش العــربي؛ ليمــوت العــرب بعدهــا مرتــين وتوئــد المقاومــة حيــة، كانــت جيروزاليـم (القـدس) قريبـة جـدًّا مـن الانتصـار الـذي كان يمـد لهـا يـده، لـولا أن قطعـت تلـك اليـد لانتـصرت جيروزاليـم، وربمـا اختـصرت كثـيرًا مـن الآلام والعذابـات الـتي مـرت بهـا جميـع الأجيـال، الـتي ولـدت ضعيفـة تنهـش فيهـا الذكريـات الموتـورة المسـعورة لبعـض مـن الانتقـام تشـفي غليلهـا.

-٩-

ظل بولس على ديانته المسيحية، بينما احتفظت جيروزاليم بيهوديتها مع اعتناقها المسيحية والإسلام، غريبة جيروزاليم كانت في تلك الفترة من حياتها تؤدي كل فرائض الديانات آمنت بالتوحيد، تحلت بأخلاق المسيح واتبعت وصايا موسى، لم ترتدِ التيفلون، ولم تعلق الصليب، وكانت تسبح على يدها وتتبع السنة في حياتها، إلا أن الحرب وما أتبعها خاصة بعد علم جيروزاليم بقيام دولة إسرائيل رسميًّا، وذلك في ١٤ مايو من عام ١٩٤٨ بدعم من الأمم المتحدة ذات نفسها، بالإضافة لما حدث لوالديها أصابها ذلك بحالة اكتئاب، وبدا للناس أنها فقدت إيمانها، وكذلك شهيتها نحو العبادة والحياة، تمنت جيروزاليم لو أن أورشا فقدتها كما فقدت باقي أخوتها في رحمها قبل خروجهم عوضًا عن فقدها في بستان قبر المسيح، حفرت لنفسها قبر ولما أتمت حفره جلست بجواره تنتظر الموت، انفطر قلب بولس عليها أشد الانفطار، بكى أمامها يستجديها بدموعه حاملًا رضيعته لعلها ترجع لنفسها من تيهها وشتاتها.

- جيروزاليم، إنما أنت تقتليني، إن تدفنيني في قبرك هذا أهون عليَّ من انتظارك للموت وأنا بجانبك، هل الموت أصبح أحب على قلبك مني؟ وهل الفراق صار أعز عليك من مريم؟

لم تجبه جيروزاليم، كأنما لم تسمع كلماته من الأساس أحس بولس بالحقارة لذاته التي لم تستطع الوفاء بعهده، لم يستطع تحرير جيروزاليم، لفظته الكنيسة بسببها ولفظها

المعبـد بسـببه ولفظـت هـي نفسـها مـن الحيـاة.

في عـام ١٩٥٠ وبعـد أن أعلنـت إسرائيـل أن القـدس أصبحت عاصمة إسرائيـل رسـميًّا نصـح المقاومـون بولـس بالذهـاب بجيروزاليـم نحـو الحـدود الفلسـطينية نحـو هضبـة الجـولان مبتعـدًا بهـا قـدر الإمـكان عـن الحـرب، حـتى لا تتدهـور حالتهـا أكـثر مما هـي عليـه، رحـل بولـس بمسـاعدة رجـال مـن المقاومـة حيـث الشـعاب الواسـعة والمرتفعـات والمنخفضـات المتتاليـة، طبيعـة جغرافيـة آمنـة يسـتطيعا الاحتمـاء بهـا، الرجـال وبعـض النسـوة سـاعدوهما في تأسـيس وفـرش مـنزل متواضـع، مـنزل بالطـوب الحجـري مسـقوف بجـزوع الشـجر يتوسـطه فسـحة مفروشـة بالكليـم الفلسـطيني اليـدوي، والمسـاند الصوفيـة المزخرفـة، كان بـه غرفـة عـلى اليمـين بهـا سريـر خشـبي ومرتبـة قطنيـة، فوقهـا لحـاف قديـم لكنـه نظيـف ووسـادة ناعمـة، عـلى الأرض وضـع سـجادة يدويـة الصنـع، معقـدة الرسـومات والنقشـات، حريريـة الملمـس وفي المنتصـف عـلى اليمـين كان يقبـع صندوقـان واحـد كبـير للملابـس، وآخـر صغـير مصـدف حفظـت فيـه لفائـف التـوراة والإنجيـل والمصحـف، الحجـرة الأخـرى لـم تختلـف عـن الأولى إلا أنـه عوضًـا عـن الصنـدوق المصـدف كان آخـر حـوى عرائـس صغـيرة صنعتهـا نسـاء القـدس لمريـم، خـارج المـنزل وضـع موقـد جـاز وفرنًـا، أُنهـك بولـس في البدايـة حيـث كان عليـه الاعتنـاء بالصغـيرة وجيروزاليـم معًـا، كان مصـدر رزق بولـس هـو قطعـتي أرض زرعهمـا يتنـاوب عـلى حصادهمـا، ثـم يأتيـه مـن يأخـذ الحـرث يبيعـه لـه في المدينـة.

أمـا مريـم فلـم تكـن أقـل جمـالًا مـن والدتهـا، قمحيـة اللـون ذات عينـين لا تـدري إن كانـت خضراوتـان أم زرقاوتـان أم رماديتـان، لـون

عيـون مهجنـة نـادرة الوجـود بنفـس ذات ملمـس شـعر والدتهـا، كان أسـودَ فحميًّـا طويـلًا، نفـس الأنـف والفـم وتلـك الثغـرة المتوارثـة مـن جـدة الجـدة، لـم تمتلـك مريـم المولـودة مـن رحـم الحـرب بـراءة جيروزاليـم، كمثـل الهضـاب والطبيعـة الجبليـة، كانـت صعبـة المـراس حـادة النظـرات، بداخلهـا بـركان خامـد ينتظـر الانفجـار لـم تأخـذ مريـم مـن الطبيعـة المختلطـة سـوى شراسـتها، تحسـن حـال جيروزاليـم وإن لـم تعـد كالسـابق لكـن عـلى الأقـل وجـدت في هـذه الأرض مـا يسـتحق المقاومـة مـن أجـل الحيـاة.

سـت سـنوات لـم تخلـوا مـن مغازلـة إسرائيـل للجـولان بالحـرب، صـاروخٌ طائـش، عبـوة ناسـفة، وربمـا حملـة تمشـيطية، في يـوم صـارح بولـس جيروزاليـم بأنـه ينـوي الرحيـل بهـم لمـصر، موطنـه الأصـلي، كانـت جيروزاليـم تعـد الخـبز التنـوري أمـام الفـرن في الخـلاء، وكانـت مريـم تطـارد أرنبًـا بـري، جلـس بولـس بجانبهـا واضعًـا رأسـه بـين يديـه، أزاحـت جيروزاليـم يديـه مـن عـلى وجهـه لتشـاهد مـا لـم تـراه منـه طيلـة حياتهـا، إنهـا دموعـه:

- كنـت أظـن أنـك لسـت كبقيـة البـشر، وأن بـئر دموعـك جـاف قفـر.

- مصر.

- ما لها يا بولس؟

- منـذ عرفـت حقيقـة أصـولي وموطـني لـم أنفـك عـن التفكـير في حقيقـة كينونـة الوطـن ظانًّـا أن الوطـن هـو الأرض الـتي نشـأنا فوقهـا ليـس أكـثر، لـم أكـن أعلـم، وحـتى اليـوم حقيقـة أننـا نولـد وبصمـة الوطـن مطبوعـة في قلوبنـا مهمـا تغربنـا أو عشـنا في البـلاد سـتظل تلـك البصمـة تلاحـق الوطـن الأصـلي كبوصلـة متجهـة نحـوه.

نظرت جيروزاليم للنيران بعمق وهي تقول:

- الوطنيـة إنمـا هـي انصهـار دماؤنـا في معـنى الوطـن، مـن لـم تنصهـر دمـاؤه داخـل عروقـه تجـاه وطنـه لا يسـتحق الحيـاة عـلى أرضـه ولا يسـتحق الانتمـاء إليـه.

وبصوت عال منتحب يشوبه الألم قال بولس:

- وهـا هـي دمـائي تغـلي في عـروقي يـا جيروزاليـم، وهـا أنـا كلي أنصهـر.

- ماذا حل بمصر يا بولس.

- عدوان ثلاثي ينتصفه اللعنة المسماة إسرائيل.

صمتـت جيروزاليـم أمـام هـول مـا سـمعت لثـوانٍ، ثـم قالـت وهـي تحملـق في النـيران محاولـة السـيطرة عـلى حمـم أنفاسـها الـتي كانـت تغـلي بداخـل صدرهـا:

- تبًّـا لهـا مـن لعنـة تنتقـل كمـا المـرض الخبيـث، وإني إحـس بقربهـا يـا بولـس - ثـم نظـرت نحـو السـماء - إلى أيـن المفـر يـا إلهـي إنمـا نحـن حتمًـا هالكـين.

أمسك بولس بيدي جيروزاليم قائلًا لها:

- سـاعديني في قـراري الـذي اتحذتـه يـا جيروزاليـم، وأيديـني فيـه وشـدي مـن أزري.

أجابتـه جيروزاليـم بنظـرات الدهشـة الغارقـة في الدمـوع فأكمـل بولـس.

- سنرحل عن قريب لمصر.

ابتسـمت جيروزاليـم في رضـا رسـمته عـلى وجههـا لتخفـي عـن قصـد انقبـاض قلبهـا تجـاه مـا يخبئـه القـدر وقالـت:

- بعد القدس لا فرق عندي، كل البلاد سواء.

في تلك الأيام كان قلب بولس معلقًا جدًّا بجيروزاليم ومريم، لا ينقطع عن النظر إلى وجهيهما حتى تغفو عينيه، بالكاد يزورهما السبات ليستيقظ كي يملء منهما ناظريه، أحيانا يستثير غيرة جيروزاليم بالنوم على حجر مريم، فتغار الزوجة آخذة مكان ابنتها ليحمل بولس بعدها جيروزاليم على كتفيه يركض بها أمتارًا تتعالى ضحكاتها، فتغار مريم ليُنزل والدتها حاملًا إياها، سعادة ما عاشتها جيروزاليم من قبل، ولا عاشت مثلها فيما بعد.

ذات ليلة كانت جيروزاليم قد أعدت عشاءًا فلسطينيًّا أصيلًا، جلست الأسرة ملتفة حول الصينية، وأثناء تناولهم الطعام سمعوا أصوات سيارات تجول بالمكان، أسرع بولس بإغلاق باب المنزل، لكن فجأة وعلى بغتة دخل جنود إسرائيليين أطاحوا بصينية الأكل بأرجلهم وصوبوا بنادقهم على جيروزاليم وبولس ومريم، فزعت مريم وقفزت منقضة على عنق أحد الجنود، أزاحها والدها عنه ناصحًا إياها بالصمت، أجلسها في ركن بعيد ثم لثمها على جبينها وقال لها:

- عديني أن تجلسي هنا ثابتة يا مريم كوني على العهد يا حبيبتي.

لحظات سكون مرت قبل أن يتفرق الجنود للإفساح لقائدهم، لقد كان هو بنفس تعاليه بنفس تكبره بنفس النظرة الباردة إنه بنيامين، نظر بولس في عيني جيروزاليم.

- إن قصتنا يا حبيبتي طويلة، ولن تكون تلك هي نهايتها على كل الأحوال، ولن تقاس بالزمن بل بالمدى الحقيقي الذي شغلته

داخل قلبينا.

لم يكد بولس يلتفت لابنته مريم حتى، قام بنيامين بفعل مباغت لم يستغرق سوى ثوانٍ معدودة، ولكنه ترك أثره في حياة مريم مدى الحياة، فقد أطاح برأس بولس لتسقط بين أرجل مريم بالضبط، كما كان منذ قليل يضجع عليها صرخت الصغيرة في هيستيريا وتشنج:

- لا يا أبي .. لا أود رأسك .. خذيها يا أمي.

اتجهت جيروزاليم صوب حجرتها أخذت الصندوق المصدف حامل الرسالات وأمسكت بيد ابنتها تجري هاربة بها. قهقه بنيامين الذي كان قادرًا على الإمساك بهما، لكنه كعادته في اصطياد الفراشات تركهما معطيًا لنفسه فرصة التمتع باصطيادهما، ومن ثم استقل دبابة يطاردهما، فراشتان تعلمان مصيرهما متعلقتان بأمل مطعون يصارع الموت، ويقاومه بقلب خافق ود الخروج من بين أضلاعهما، لم تكن تلك في الواقع مقاومة بل كانت انتشاء الروح في سكرات الموت، وفي لحظة كأنما سرقت من الزمن زهقت روح الأمل ... أمسك بهما.

في معسكر في غزة احتفظ بنيامين بغنيمتيه صامدتين متحاملتين، صمود المهزوم أمام هزيمته، فالأمر لا يحتمل مضاعفة الهزائم، لم ترد جيروزاليم لهازمها رؤية انتصاره في دموعها وجزعها، لا، ليس بنيامين من ستسقط دموع جيروزاليم راكعة أسفل قدميه، أما مريم فقد التزمت بآخر نصائح والدها، ملتزمة الصمت باقية على العهد، استفز بنيامين صمود جيروزاليم، حجز عنها ابنتها، هددته بقتل نفسها مفوتة عليه فرصة التفنن في إذلالها، منع عنها ومريم الشراب والطعام فردته بالأذكار والترانيم والأسفار؛

كان غذاؤهمـا مـن السـماء، يفطـران قرآنًـا، وغذاؤهمـا التـوراة، والعشـاء إنجيـل.

أنهـى كل حيلـه واسـتنفذ كل مـا لديـه، لكـن ولا نظـرة هـوان منهـا كان يلقاهـا تـبرد تأجـج نـيران قلبـه، لـم يعـد في جعبتـه القـذرة سـوى حيلـة الضعفـاء؛ حيـث كان طـرف القـوة بيـد المـرأة، فـكان يغتصبهـا في كل يـوم عـلى مـرأى ومسـمع مـن مريـم، الطفلـة المسكوب عـلى حجرهـا دمـاء والدهـا، وهـل يـضر الشـاة سـلخها بعـد ذبحهـا، وصـل الوجـع منتهـاه حـتى انتهـى منـه المنتهـى، أنـت إذا مـا حفـرت في الأرض ولا وصلـت لنارهـا وإذا مـا اسـتمريت لوصلـت لسـمائها، وكانـت جيروزاليـم قـد وصلـت لحـدود السـماء.

في يـوم دخـل بنيامـين حجـرة جيروزاليـم ركـع أمـام أقدامهـا، مطأطئًـا الـرأس أمـام وجههـا البائـس وقـال لهـا:

- ألا تعلمـين أني أحببتـك ومـا زلـت يـا جيروزاليـم، قسـوتي هـي آخـر طريـق عنـدي أوصـل بـه لـك حقيقـة أني أحبـك. جيروزاليـم، مـاذا أفعـل وأنـت لا تريديـن إيصـال تلـك الحقيقـة لقلبـك؟

دمعـت عينـا جيروزاليـم، فمـد يـده نحـو وجههـا ليمسـح دموعهـا، أزاحتهـا جيروزاليـم عنهـا بـشيء مـن الضعـف والهـوان قائلـة لـه:

- بل تدمع عيناي اشتياقًا لبولس.

بنفـس ذات اليـد الـتي كانـت تمسـح دموعهـا أمسـك برقبتهـا ضاغطًـا عـلى عروقهـا بشـدة، جحظـت عينـا جيروزاليـم حـتى كادت تخـرج روحهـا، بنفـس ذات اليـد ضرب بنيامـين يـده في الحائـط غيظًـا وحقـدًا لمـا أدرك أن جيروزاليـم وإن كانـت في يـده فهـي ليسـت لـه، تركهـا لمـا شـعر أنهـا تمـوت بـين يديـه لتقـع جيروزاليـم عـلى الأرض منهمـرة دموعهـا، ومنكـس وجههـا قالـت لـه:

- لما لم تكمل؟ لما؟ كنتُ قاربتُ الوصول إليه؟

لـم يجـب وتركهـا ورحـل حـين أيقـن أنـه لا فائـدة، فبولـس لا يـزال حيًّا بداخـل جيروزاليـم يـرزق مـن حبهـا لـه.

شـاء القـدر لجيروزاليـم أن تحتفـظ مـن بولـس بقطعـة واحـدة منـه وهـي مريـم، كمـا شـاء القـدر أن تهـب بنيامـين قطعـة أخـرى منهـا، رضيـت أم أبـت لـم يكـن ذلـك اختيارهــا، حـين علمـت ببـوادر حملهـا منـه، ورغـم تقززهـا ممـا يحملـه رحمهـا ومحاولتهـا إجهاضـه لإحساسـها بتسـمم بدنهـا بـه، إلا أن جسـدها لـم ينفـره وتشـبث بـه بالرغـم مـن رفـض الـروح لـه، قضـاء لا مفـر منـه إنهـا نبتـة الـشر الـتي انبسـقت مـن أرض الـبراءة غصبًـا، أحـس بنيامـين أخـيرًا بزهـوة النـصر منتشـيًا إياهـا مـع كل نفـس يتنفسـه جنينـه في رحـم جيروزاليـم، الـذي نقلهـا ومريـم بعـد مـا ظهـرت عليهـا بـوادر الحمـل إلى مـنزل والـده، خادمـة ليـس أكـثر متمتعـة ببعـض المزايـا عـن غيرهـا، أمـا مريـم فقـد كرهـت فكـرة أن يكـون لهـا أخ مـن قاتـل أبيهـا، هـو الحقـد بداخلهـا ينمـو مـع نمـو جنـين أمهـا، وبرغـم ممـا طوتـه نفسـها إلا أنهـا كانـت كمـا نصحهـا والدهـا ثابتـة عـلى العهـد صامتـه.

تسـعة أشـهر مـن حربهـا مـع نفسـها خاضتهـا جيروزاليـم تـود لـو لـم تهـزم، فقـط لينتهـي هـذا الـصراع بينهـا وبـين نفسـها وتهنـأ بالراحـة ممـا تحمـل مـن الخـزي والانكسـار، أتى شـهرها التاسـع وازداد معـه ثقلاهـا ثقـل القلـب وثقـل البـدن معًـا، تـورم جسـدها وازرق، شـخَّص الطبيـب حالتهـا عـلى أنهـا تسـمم حمـل لـم تكـن جيروزاليم قـادرة عـلى التحـرك إلا بواسـطة كـرسي متحـرك، أو التنفـس إلا عـن طريـق أسـطوانة أكسـجين وصلـت بقنـاع لأنفهـا، احسـاس يـدور في

رحاياهـا أن مسـخها لـن يخـرج منهـا قبـل تدميرهـا، ازداد بهـا الوهـن، هـي الان في آخـر شـهرها التاسـع لا تقـوى حـتى عـلى فتـح أعينهـا، معلقـة بيدهـا الأنابيـب مرتديـة قنـاع التنفـس، أقـر الطبيـب بـأن ولادتهـا مسـتعصية وأن ضررًا مـا لا بـد أن يحـدث لـلأم أو الجنـين صـاح بنيامـين: «أنقـذ ابـني أولا، ثـم ابـذل مـا في وسـعك لإنقـاذ الأم».

ليسـت غريبـة عـلى بنيامـين هـذه الحطـة والندالـة، إنـه يحـب جيروزاليـم لكنـه يعشـق ذاتـه أكـثر، كانـت مريـم منزويـة في ركـن تسـتمع لكلمـات الطبيـب بـلا أي رد فعـل منهـا، تنتظـر فقـد أمهـا هـي الأخـرى في اسـتكانة ومشـاعر متبلـدة، سـمعت الطبيـب يقـول: إنـه سيشـق بطنهـا، اتجهـت نحـوه تسـأله الرأفـة بهـا، طالبـة منـه أن يـترك رأسـها معلقـة بجسـدها، اندهـش الطبيـب مـن طلـب مريـم، فأشـفق عليهـا وربـت عـلى كتفهـا هامسًـا في أذنهـا أنـه لـن يسـمح بضيـاع الأم مقابـل الجنـين، سـتكون بالفعـل خسـارة، وأيًّـا كان لـن تكـون جيروزاليـم.

وقـف الطبيـب هـو ومسـاعداه أمـام جيروزاليـم، وهـي ممـدة فاقـدة الوعـي، قـال لهـم: سـنقلل الخسـارة قـدر الإمـكان كي نبـق عـلى الطفـل والأم معًـا، إن صمـدت الأم وقاومـت، ربمـا سـتعيش إنمـا بـدون مقاومـة سـنخسرها لا محالـة، إذا نبـدأ التصويـت. رفعـوا جميعًـا أيديهـم مصدقـين عـلى قـرار رئيـس مجلـس الأطبـاء.

أنجبـت جيروزاليـم جيكـوب كمـا أسـماه بنيامـين عـلى اسـم والـده، ذكـرٌ أصفـر اللـون أشـقر الشـعر والحواجـب والرمـوش، بملامـح باهتـة وعينـين سـماوية بـاردة، أشـبه بشـقين لـم يأخـذ جيكـوب مـن جيروزاليـم أي ملمـح، بينمـا أخـذ الشـبه كل الشـبه مـن والـده، لـم

تشـأ جيروزاليـم النظـر إليـه، كي لا يتعلـق بـه قلبهـا كمـا امتنعـت رغـم امتـلاء ثديهـا أن ترضعـه، فجلـب لـه بنيامـين عوضًـا عنهـا خمـس مرضعـات عنـادًا في جيروزاليـم لإثـارة غيظهـا، لكـن جيروزاليم أغمضـت عينيهـا عنـه كأنمـا جيكـوب شـيئًا لـم يكـن.

كثـيرًا مـا اعتـصرت مشـاعر الأمومـة المكلومـة جيروزاليـم، وهـي تـرى أن مـن يرضـع جيكـوب امـرأة غيرهـا وهـي أمـه، شـهران لـم يجـف فيهمـا اللـبن بداخلهـا، مـا زالـت الأم تحـن لوليدهـا؛ ذات يـوم سـمعت جيروزاليـم بـكاء الصغـير بـلا مجيـب ولا سـائل، جذبهـا قلـب الأم، لتكـن هـذه أول مـرة تضمـه بـين ذراعيهـا، وتشـعر بنبـض قلبـه يلامـس قلبهـا، شـعرت بحـرارة تدفـق اللـبن بداخـل صدرهـا الـذي كاد أن ينفجـر مـن عروقهـا تجـاه الصغـير، الـذي وجـدت نفسـها بـلا وعـي وبفطـرة غريزيـة تنسـكب منهـا دمـوع ثديهـا المنفطـر عليـه، وصـادف أن مريـم كانـت تمـر مـن نفـس الردهـة حيـث حجـرة جيكـوب ورأت مريـم أمهـا ترضـع جيكـوب، فتسـمرت في مكانهـا لا يتحـرك شيء فيهـا سـوى الدمـوع المنسـالة بغـزارة في خيـط واحـد غـير منقطـع، انتبهـت جيروزاليـم لهـا نادتهـا لكنهـا هربـت سريعًـا، حينهـا أحسـت مريـم بفقـد الأب والأم معًـا عـلى نفـس اليـد القاتلـة، ذهبـت مريـم لحجرتهـا والتفـت بغطائهـا تبـكِ بحرقـة، تبعتهـا جيروزاليـم حـتى حجرتهـا، لمـا أحسـت مريـم بدخـول والدتهـا كتمـت دموعهـا بداخلهـا مدعيـة النـوم، فاقتربـت جيروزاليـم منهـا أكـثر وملسـت بيدهـا عـلى شـعرها وقالـت لهـا:

- حبيبتي، أصغِ إليَّ وانتبهي لحديثي هذا.

تنفست جيروزاليم بعمق، صمتت قليلًا ثم قالت:

- مريـم، عليـك الاعـتراف بجيكـوب، عليـك الاعـتراف بـه كأخ ...

أعلـم أن الأمـر والوضـع في مجملـه صعـب ... صعـب لكنـه حقيقـة.

ظلـت مريـم صامتـة بـدون أن تجيـب بكلمـة رفـض أو قبـول، لا يسمع لها سـوى ذلـك الأنـين المكتـوم داخـل الضلـوع الخـارج مـع شـهقات بكائهـا، لـم تعـترف مريـم بجيكـوب طيلـة حياتهـا، فلطالما كانـت عينـا والدهـا في رأسـه الملقـاة عـلى أرجلهـا تلاحقهـا، نظـرة قُـدِّر لهـا ألَّا تصـل، فكيـف لهـا أن تتواصـل مـع قاتلـه، هـو ثـأر شـخصي فالـدم لا يغسـله سـوى الـدم، ودمـاء والدهـا مـا زالـت متعلقـة بجلبابهـا الـذي تحتفـظ بـه في خزانتهـا مـا فرطـت فيـه طـول حياتهـا.

شـاع في المـنزل كلـه أن جيروزاليـم ترضـع جيكـوب، وصـل الخـبر لمسـامع بنيامـين الـذي وجـد أن جيكـوب هـو الثغـرة الـتي منهـا سـيصل لقلـب جيروزاليـم، رفـع بنيامـين شـأنها في المـنزل مـن خادمة لصاحبـة دار، لهـا الأمـر والنهـي، خـص لجيروزاليم ومريـم غرفتين في الطابـق العلـوي بعدمـا كانـا يقطنـان في أحـد غـرف الخـدم في الطابق السـفلي، خزائـن جديـدة، ألعـاب كثـيرة لمريـم، حفـلات يوميـة صاخبـة، ورحـلات سـفر لكـبرى مـدن العالـم، كانـت جيروزاليـم تمـر بمرحلـة ثانيـة مـن فقـدان اليقـين والإيمـان منغرقـة في العربـدة والمجـون حـتى الاختنـاق، تحولـت مـن مغتصبـة لعشـيقة تتبـادل نخـب الكئـوس مـع قاتـل أهلهـا وزوجهـا، وأمهـا وأبيهـا، خيانـة لا وصـف لهـا، هـوت بنفسـها في مسـتنقع الخيانـة الـذي لا يختلـف عـن مسـتنقع تماسـيح بنيامـين؟

لـم يكـن برغـم هـذا كلـه لمريـم أن تـترك والدتهـا رغـم حداثـة عمرهـا الـذي لـم يتجـاوز التاسـعة، كانـت تشـعر بنفـس المسـئولية الـتي كان يشـعر بهـا والدهـا تجـاه جيروزاليـم، تراقبهـا بنفـس ذات

الصمـت الـذي اعتادتـه، تنتظـر لحظـة إفاقتهـا بصـبر جميـل.

يومهـا كان يـوم ميـلاد جيكـوب الأول، وكانـت جيروزاليـم منهمكـة في إعـداد الحفـل والإشراف عليـه، أشـار لهـا بنيامـين بيـده أن تتبعـه، كانــت مريــم تراقــب جيروزاليــم مــن بعيــد كعادتهــا منــذ هجــر جيروزاليـم لهـا، والـذي كان غـير مفهومًـا لمريـم؛ لعـل هنـاك صلـة مـا بـين تلـك الحبـات الـتي كان يضعهـا بنيامـين في كأس جيروزاليـم مـن وراء نظرهـا وتصرفاتهـا غـير الواعيـة، أو لعلهـا الصدمـة أن يكـون لهـا ابـن مـن قاتـل والديهـا وزوجهـا، ولأن مريـم دائمًـا كانـت بجـوار والدتهـا مـن وراء السـتائر وخلـف الأبـواب تلاحظهـا عـن قـرب؛ لـذا تسـللت مـن وراء والدتهـا بـدون أن يلحظهـا أحـد.

دخــل بنيامــين ومــن ورائــه جيروزاليــم لقبــو في حديقــة المــنزل؛ بــاب صغــير عــلى منحــدر يأخــذك لأســفل الأرض، لــم تلحظــه جيروزاليـم أبـدًا لكونـه مغطًـى بالحشـائش وأغصـان شـجر العليـق، نزلـت جيروزاليـم ومـن خلفهـا مريـم، سـلم يهبـط بـك لا يرتفـع حـتى تصطـدم أرجلـك بـالأرض لتجـد ممـرًا طويـلًا ينتهـي بسـاحة واسـعة عـلى شـكل سـداسي مثـل خليـة نحـل، في أحـد جوانبهـا تتراكــم الأســلحة والذخائــر، واضــح أن بنيامــين لا يــزال يتاجــر في السـلاح وليـس العقـارات فقـط، في جانـب آخـر دولاب صغـير مثـل سـحارة قطعــة أثريــة مــن خشــب وتصميــم قديمــين، ربمــا يئــول عمـره لفـترة مـا قبـل الميـلاد، عليـه نقوشـات غريبـة هـرم فرعـوني، برجـل ومسـطرة، مجسـم لبنـاء مـا ضخـم، في المنتصـف حُفـر عليـه عـين بـارزة، فتـح بنيامـين الصنـدوق وأخـرج منـه قـلادة تتوسـطها عـين بحدقـة ماسـية، اتجـه نحـو جيروزاليـم وهـو ممسـكًا القـلادة، وقـال لهـا وهـو يضعهـا حـول عنقهـا:

- جيروزاليـم، معشـوقتي، في هـذه الليلـة المقمـرة بوجهـك، الصافيـة بأنفاسـك أشـعر وأني قـد امتـلأت بشـعر هومـيروس، ونـثر شكسـبير، مـاذا فعلـتِ بي وكيـف سـحرتني؟ ومـن ثـم أسرتـني جيروزاليـم.

قالت جيروزاليم بدلال:

- بنيامـين، بـل قـل لي أنـت كيـف فعلـت ذلـك؟ أن جعلتـني أنـسى كل آلامـي وأحـزاني؟ اه لـو تـدري كـم أنـا ممتنـة لـك؛ لمحـو ذاكـرة المـاضي المهـزوم مـن عقـلي.

التفت نحوها ممسكا يداها:

- إن نبيـذ إيطاليـا وعطـور باريـس قـادرة عـلى فعـل مـا هـو أكـثر مـن ذلـك عزيـزتي.

قرب يداها من فمه مقبلًا إياهما ثم قال:

- عزيـزتي ... أود إضفـاء صفـة رسـمية بيـني وبينـك جيروزاليـم، إنـكِ تسـتحقين أن تكـوني زوجـتي وأم أبنـائي التاليـين.

كانـت جيروزاليـم مندهشـة ممـا سـمعت، اكتفـت بابتسـامة رضى موجهـة عيناهـا نحـو القـلادة الثمينة، شـعر بنيامـين حينهـا بالارتياح، تقـدم بنيامـين بجيروزاليـم عـدة خطـوات للأمـام ثـم أجلسـها عـلى كـرسي فخـم وضخـم لكنـه قـاس وغـير مريـح، في جانـب آخـر مـن الـسرداب بوفيـه جلـب منـه إنـاءً ذهبيًّـا، صـبَّ فيـه زجاجـات نبيـذ وخمـور معتقـة منـذ سـنوات، وضـع الإنـاء أسـفل أقـدام جيروزاليـم وغسـلهما فيـه، بعدهـا أمسـك بيـد جيروزاليـم يسـاعدها عـلى الوقـوف، ثـم اتجـه بهـا مـرة ثانيـة نحـو المـرآة وأحـضر إنـاءً آخـر صـب فيـه أغـلى العطـور، خلـع عنهـا ملابسـها ومسـح جسـدها

بالعطـر، ومـن ثـم أدنى عليهـا قفطـان ذهـبي مرصـع باللؤلـؤ العاجـي عـلى الوسـط والأكمـام.

تقـدم بنيامـين بجيروزاليـم نحـو المـرآ ة العريضـة بطـول الحائـط قائـلًا لهـا:

- هذا ما تستحق أن تكون عليه جيروزاليم.

لعـل جيروزاليـم لـم تلحـظ انعـكاس الصـور خلفهـا في المـرآة، الصليـب المعلـق الـذي يشـبه ذلـك الـذي صلبـت عليـه أورشـا، السـكينة الـتي غـدر بهـا بوالديهـا وبولـس، وهـذا السـوط الـذي طالمـا حـددت معالمـه جسـدها، أو ربمـا غفلـت عـن وجـه ابنتهـا مريـم، في حـين أنهـا كانـت كمـن تسـلل مفعـول الكحـول لجسـدها شـبه مغيبـة، وقـد بلـغ تيههـا مبلغـه وهـي تشـخص نفسًـا غـير نفسـها الحقيقيـة متلبسـة بـروح غـير روحهـا.

بسرعـة أخـذت مريـم السـوط والخنجـر لا يوجـد متسـع مـن الوقـت اليـوم سـيعلنان نفسـيهما زوجًـا وزوجـة؛ قطعـت رءوس عرائسـها ولعبهـا جميعًـا، نثرتهـم عـلى سريـر جيروزاليـم، وضعـت السـوط في المنتصـف جرحـت يدهـا بالسـكين، ثـم رسـمت بالدمـاء شـكل صليـب مددتـه عـلى الوسـادة واضعـة أسـفله السـكين.

اتجهـت جيروزاليـم لحجرتهـا كي تتهيـأ للسـفر لأمريـكا لإتمـام مراسـم الزفـاف فرحـة، وإذا بصـوت الأوتغـراف يصـدح بأغنيـة غنتهـا لهـا أورشـا مـن قبـل، بينمـا كانـت تدهـن جسـدها الملتهـب بلسـعات سـوط بنيامـين:

- ليت الظلمة تغطي أعيننا.

- إلى أين نهرب من صوت قلبنا.

الذي يدعي:

- أليست أيدينا هي التي سفكت دماءنا.

- إلى أين نهرب أيضًا من وجوهنا؟

- آه، يا ليت الظلام يكسو عيوننا.

- إلى أين المفر من نداء قلبنا الداعي.

- ها هي أيدينا سفكت دماءنا.

- إلى أين المناص من وجوهنا.

- القلب جدب، الدم القذر يشرق.

- أنت، أنا، أنت.

- ما فعلناه حتى الإله واسع المغفرة لن يغفر.

- والمذعورون يتراكضون في مدينة الهلع.

(كلمات مقتبسة من الشعر اليهودي)

من عالم آخر رجعت إليها روحها الغائبة الضالة في غياهب البرزخ ما بين الحياة والموت، دبَّ النبض والحياة في قلبها، فاستفاق جسدها، تدفقت الدماء الهاربة من قبل فيها، لترجع اليوم لعروقها طواعية، ويدخل الهواء بعمق ويستقر بين ضلوعها خائفًا من زفرة طاردة.

دخلت جيروزاليم بتأني ترجف بداخلها الذكريات المشوشة، فتحت باب الحجرة في خوف بدأت تتضح معالم الذكرى ... نسخ رءوس بولس منشورة على السرير، مصلوبة أمها فوق الوسادة، مذبوح والدها بسكين بنيامين، يتراقص من حولها السوط ويتراقص معه جسدها من الألم.

خرجـت جيروزاليـم مـن حجرتها هائمـة لا تـدري وجهتهـا، تـتراءى لهـا الجـدران كأول مـرة تراهـا، تتسـائل إن كانـت بدلـت عيناهـا أم أن الأماكـن غـيرت معالمهـا، اتجهـت للطابـق السـفلي؛ حيـث حجرتهـا القديمـة باحثـة عـن مريـم، وأمسـكت المقبـض تنتفـض بداخلهـا الظنـون، شـدت المقبـض لأسـفل وفتحـت البـاب عـلى غفلـة، اتجهـت للفتـاة الجالسـة تنـادي عليهـا باسـم مريـم التفـت إليهـا الطفلـة، ذعـرت جيروزاليـم فلـم تكـن الطفلـة مريـم، صرخـت جيروزاليـم في وجـه الصغـيرة.

- أين ابنتي ماذا فعلتم بابنتي؟

دخلـت الخادمـة بسرعـة آخـذة طفلتهـا مـن بـين يـدي جيروزاليـم، نافيـة أن يكـون حـدث مكـروه لمريـم:

- مريم بخير سيدتي.

سألتها جيروزاليم فزعة:

- أيـن هـي مريـم الآن؟ إن كنـتِ تعرفـين مكانهـا دليـني عليـه، أشـعر وكأن زمانـًا مـضى منـذ آخـر مـرة رأيتهـا.

أجابتها الخادمة:

- لقـد خصـص لكمـا السـيد بنيامـين حجرتـين بالطابـق العلـوي منـذ أن بـدأتِ تهتمـين بجيكـوب.

تفاجـأت بإجابتهـا، هـي لا تتذكـر عـن تلـك الفـترة شـيئًا. سـألت جيروزاليـم الخادمـة عـن أحوالهـا في تلـك الفـترة.

- هل مر بي زمن طويل على هذا الحال؟

فقالت لها:

- سـيدتي أنـتِ لا تتركـين كأس الخمـر مـن يـدك ولـو للحظـة،

تعيشـين حيـاة صاخبـة مليئـة بالحفـلات والرحـلات، اعذريـني إن قلـت إنهـا مليئـة أيضًـا بالمجـون والعربـدة، الـكل يعلـم أنـكِ مجـرد عشـيقة للسـيد بنيامـين، وأن جيكـوب مـا هـو إلا ابنًـا غـير شرعـي لـه، لكنـكِ سـيدتي كنـتِ غـير مباليـة، بـل بـدا عليـكِ الرضـا والسـعادة، أمـا بالنسبة لمريـم فقـد أهملتهـا تمامًـا، حـتى إنهـا ذات يـوم جاءتـكِ لتجلـس بجانبـك فطردتهـا مدعيـة أنهـا ابنـة الخادمـة، أبعـدتِ مريـم عنـكِ، إلا أن مريـم أبـت أن تـتركِكِ فظلـت مراقبـة لوجـودك مـن بعيـد.

انجرفـت الدمـوع مـن عيـني جيروزاليـم، شـلالات منهمـرة مـن وراء سـد تحطـم للتـو، تترجـى الخادمـة أن تأخذهـا لمريـم.

- أسـتحلفك بـالله أن تأخذيـني لصغـيرتي، إني لا أذكـر شـيئًا ممـا تتحدثـين عنـه، كأنمـا كنـت أغـوص في نـوم عميـق أعيـش بداخلـه في كابـوس بشـع.

تركـت الخادمـة جيروزاليـم أمـام حجـرة مريـم، فتحـت البـاب بهـدوء، دخلـت مترقبـة رد فعـل مريـم، لكنهـا تقابلـت ووجـه بولـس الـذي ارتفـع بعينيهـا نحـو السـماء، حلـق بهـا بعيـدًا بعيـدًا عنـد نقطـةٍ التقـت فيهـا الشـمس بالقمـر، جـذب مـن عليهـا قـلادة بنيامين راميًـا إياهـا في فجـوة سـوداء عميقـة، أهداهـا عوضًـا عنـه عقـدًا بأحدَ عـشر كوكبًـا منمقـون عـلى قـوس قـزح، دار بهـا حـول الكـرة الأرضيـة فـوق غيمـة بيضـاء حـين كانـت الأرض بكـرًا لـم يمسسـها بـشر، بعدهـا تركهـا لتصطـدم بواقعهـا لتجـد بـين يديهـا فسـتان مريـم وقـد تخضـب بدمـاء زوجهـا.

احتضنـت جيروزاليـم مريـم واعـدة إياهـا بأنهـا لـن تتركهـا أبـدًا، ولـن تعـود لتيههـا وشـتاتها مـرة أخـرى، ظلـت تبحـث عـن حقيبـة

أو مـا شـابه لتضـع فيهـا الصنـدوق المصـدف، وصندوقًـا خشـبيًّا صغـيرًا بـه عـددٌ مـن الصـور، فيهـا أورشـا وبولـس وغيرهـا مـن الذكريـات، وجـدت كيـس قمـاش كبيرموضـوع فيـه بعـض وسـادات صغـيرة في أحـد أركان الحجـرة، فأفرغـت مـا في الكيـس ووضعـت مكانهـم الصندوقـين وتسـللت بمريـم قائلـة:

- سـنمر الآن ببهـو المـنزل، الخـدم كثـيرون وربمـا نقابـل بنيامـين، سـأتقدمك أنـا وظـلي، ابقـي خلفـي عـلى بعـد مناسـب حـتى لا يشـك فينـا أحـد.

هربـت جيروزاليـم ومـن ورائهـا مريـم، وفي منتصـف الطريـق تذكـرت الأم ابنهـا جيكـوب، لكنهـا خافـت أن ترجـع فتضيـع مـرة أخـرى، فأكملـت المسـير، كان مـنزل بنيامـين يقـع في مـرج بـني عامـر، بـين منطقـة الجليـل ونابلـس، قـررت جيروزاليـم اتخـاذ الطريـق الجبـلي رغـم خطورتـه، وكان مـن الممكـن أن يتخـذا طريـق حيفـا الممهـد بمحـازاة البحـر، لكـن وفـرة أشـجار البلـوط والسـنديان بالإضافـة إلى الشـعاب المتداخلـة كانـت خـير مـكان للتسـتر أثنـاء هربهمـا، سـلكا الجـرف في محـاذاة جبـل الكرمـل، ومنـه إلى جبـال القـدس، ومـن ثـم اسـتطاعا الدخـول إلى المدينـة، كلفهمـا ذلـك عناء ثـلاث ليـال نامـا في إحداهـا في مغـارة، وفي ليلتـين قضوهمـا وسـط الشـعاب، وكانـا يقتاتـا عـلى التـوت الـبري وبعـض ثمـار الأشـجار، أمـا المـاء فـكان متوافـرًا عـلى هيئـة بـرك خلفتهـا الأمطـار.

لـم يكـن أمـام جيروزاليـم سـوى مـنزل الشـيخ عبـد الرحمـن الـذي آوى جيروزاليـم مـن قبـل، الشـيخ كان قـد مـات، لكـن ابنـه كان يعـرف جيروزاليـم وبولـس، وقـد سـاعدهما في الـنزوح بالقـرب مـن هضبـة الجـولان، مـا أن رآهمـا يمشـيان في المدينـة يـدوران حـول

المـنزل في وقـت السـحر، حيـث لا تجـد في الطريـق وقـع قـدم أو تسـمع دبَّ حافـر، وهـم في حـال يـرثى لـه اقـترب نحوهمـا:

- جيروزاليم ؟

- نعم ألست أنت محمود ابن الشيخ عبد الرحمن؟

- رحمه الله.

- لله الدوام ... يال أسفي وحزني.

- لا يمكننـا المكـوث هنـا في الشـارع طويـلًا، فيمـا يبـدو أنكمـا مطاردتـين وقـد تكبدتمـا عنـاءً طويـلًا للوصـول إلى هنـا.

أخـذ محمـود جيروزاليـم ومريـم إلى منزلـه، قصت جيروزاليـم مـا تذكـره مـن تيههـا في مـنزل بنيامـين، كان الطعـام قـد أعـد وضعـت الصـواني أمـام جيروزاليـم ومريـم، وقـرب محمـود منهمـا الطعـام وهـو يقـول:

- تفضـلَا، لا تجهـدي نفسـك جيروزاليـم في التفكـير فيمـا مـضى، ارتاحَـا ولا تحمـلَا همًّـا، سـتكون الأمـور عـلى مـا يـرام.

ثلاثـة أيـام لـم تكـد تفـوق جيروزاليـم فيهـم حـتى ترجـع للنـوم ثانيـة، وكأنهـا كانـت عائـدة مـن رحلـة طويلـة شـاقة، ابتعـدت فيهـا عـن نفسـها، ثـم لاقتهـا مـن جديـد عنـد نقطـة الافـتراق الأولى، وبالـكاد التأمـت جـروح قدمـي مريـم الـتي تـأذت أثنـاء الرحلـة الشـاقة.

في صبـاح اليـوم الرابـع طلبـت جيروزاليـم مـن رقيـة زوجـة محمـود أن تعلمهـا الصـلاة؛ لأنهـا وعـلى فجـأة قـررت أن تكـون مسـلمة، رجعـت رقيـة إلى زوجهـا:

- محمود، إن جيروزاليم تود إشهار إسلامها.

- كيـف يكـون ذلـك، القـرار فجـائي يـا رقيـة؟ عليهـا التمهـل حـتى لا تضطـرب عقيدتهـا فتحيـد عنـه ثانيـة.

- كلمها أنت.

ذهـب محمـود حيـث الحجـرة الـتي كانـت جيروزاليـم بهـا ووقـف عـلى البـاب.

- هل تأذن لي الأخت بالدخول؟

- تفضل محمود.

في حجــرة مجلــس الضيــوف الملتفــة بالأرائــك والمســاند كانــت جيروزاليــم جالســة.

- هنالــك أمــر علينــا التحــدث فيــه يــا جيروزاليــم، وهــو مســألة إسـلامك، إنـه لأمـر مبهـج عـلى قلوبنـا جميعـا يـا أخـتي، ولكـن أليـس قـرارك هـذا متسرعًـا؟ إني أخاطبـك كأخ يـا جيروزاليـم.

- إنـني أعـرف ذلـك يـا محمـود، وأعـرف أن أهـل القـدس جميعهـم تجمعهـم الـروح الطيبـة، أنـا مـن غـير ريـب أشـعر وكأنـني حييـت مـن جديـد، بعثـت مـن جديـد كطفـل ولـد عـلى فطـرة هـو نفسـه لا يدركهـا مـع فـارق أن لهـذا الطفـل عقـل مكتمـل يسـتطيع تحديـد اختياراتــه؛ لــذا أرجــأت أمــر الإدراك للقلــب الــذي اســتفتيته وقــد سـيرني لهـذا الطريـق طريـق الإسـلام.

ابتسم محمود وهو يقول لها:

- لـم يحـدث قبـل أن تأثـرت بحديـث كمثل حديثـك يـا جيروزاليم، لكـن يـا إخـتي، للإسـلام أركان، وكأي ديـن لـه قواعـد وأسـس، الديـن هـو مـا صدقـه القلـب وأيـده الفعـل، أليـس كذلـك؟

- بالتأكيد.

- ستعلمك زوجتي بعض الأمور عن الصلاة والصوم والطهارة واللباس، وستأتي باقي الأمور تباعًا بتعمقك أنتِ بنفسك في الدين، ولتعلمي أن الأساس بجانب الظاهر والشعائر هو الباطن المتمثل في حسن المعاملة. ناولت رقية جيروزاليم رداءًا جديدًا فضفاضًا وحجاب رأس، قالت جيروزاليم:

- كنت أرتدي أنا وأمي حجابًا.

- كان هذا اسمه الحجاب اليهودي تغطي شعرك، ولا يهم إن كشف ما ترتديه أسفل جسدك، هذا حجاب إسلامي ليس أساسه فقط تغطية الشعر، إنما أن يكون ما ترتديه أسفله ساتر غير كاشف، ثم أحضرت رقية إناءً به ماء طهور لتغتسل وتتوضأ منه، ثم قالت مداعبة.

- وهل في اليهودية وضوء أيضًا؟

- لا بل صلاة فقط بلا وضوء.

ارتسم اليأس على وجه مريم التي لطالما كانت صامدة أمام تحولات أمها، لكنها لم تتصور أن التقلب سيكون سريعًا هكذا، وقفت أمامها مريم تلمس بيدها على خصلات شعرها المنداة بماء الوضوء قائلة لها:

- بالأمس القريب كنتِ عارية تغتسلين بالخمر والعطر، وها أنتِ اليوم يا أمي محتشمة محجبة تتوضئين.

ربما فهمت جيروزاليم تعابير وجه مريم بشكل خاطئ مما جعلها تقول لها:

- لا تخافي يا مريم لن تكوني إلا ما أراد قلبك وهداك يا حبيبتي، إن تبقي على ديانة والدك أنتِ حرة، أردتِ الإسلام أو

حـتى اليهوديـة فالاختيـار لـك، بالأمـس كنـت يهوديـة، ثـم مسـيحية واليـوم مسـلمة لا إكـراه في الديـن يـا حبيبـتي. هـداك الله.

بعـد أسـبوعين صرحـت جيروزاليـم لمحمـود أنهـا تـود تنفيـذ وصية بولـس بالذهـاب إلى مـصر، فتململ الشـيخ عثمـان وهـو يقـول لها:

- لا مانـع لـدي أن تكمـلي رحلتـك في مـصر لطالمـا كانـت مـصر هـي الامتـداد لـكل حضـارة والملجـأ لـكل محتمـي، لكـن لا طريـق للذهـاب لمـصر سـوى غـزة، والدخـول نحـو غـزة مـليء بالمخاطـر الـتي تجعـل النـار تجاهنـا.

صممت جيروزاليم وأطرقت رأسها ثم قالت:

- بل سأنفذ وصية بولس مهما كلفني الأمر.

وأمـام تصميمهـا لـم يجـد الشـيخ بـدًّا سـوى الموافقـة عـلى طلبها خاصـة حـين أقنعتـه بقولها:

- إن العــدو قــد يكــون قريبًــا منــا لكــن مــن المؤكــد أن الخيانــة أقـرب، مـن وشى لبنيامـين عنـا يـوم ذبـح بولـس أو بالأحـرى يـوم ذبحنـا جميعًـا بالتأكيـد لـم يكـن سـوى خائـن ... الخيانـة هـي طريـق العــدو الممهـد ...

بعـث محمـود بطلـب ابنـه الـذي يملـك سـيارة نصـف نقـل ينقـل عليهـا المـؤن مـن وإلى غـزة، أحـضر لـوح خشـبي مخـرم مـن الجانبـين وضعــه عــلى قــاع صنــدوق الســيارة بارتفــاع عشريــن ســنتيمترًا، تمـددت جيروزاليـم ومريـم أسـفل اللـوح الخشـبي ومـن فوقهمـا صناديـق خضـار وفاكهـة، وصلـت السـياره بسـلام في مـدة يومـين بسـبب التعنـت الإسرائيـلي ونقـاط التفتيـش، وصـل بهمـا لغـزة ومـن غـزة للحـدود الفلسـطينية المصريـه خلسـة.

-١٠-

انتقال جيروزاليم إلى مصر

وقفـت جيروزاليـم أمـام الحـدود المصريـة تنتظـر الغـوث في حالـة لا يمكـن وصفهـا، مطوقـة بالأفـكار السـلبية تجـاه مـا يمكـن أن يحـدث لـو أن بنيامـين اصطادهمـا عنـد الحـدود، أخـيرًا لمحـت جنديًّـا مقبـلًا نحوهمـا، أوقفهـا الجنـدي:

- من أنتما وما سبب وجودكما عند نقطة الحدود؟

- أطلب مقابلة قائد الجيش لو سمحت.

- قفا مكانكما ولا تتحركا.

بـلا مضـض ذهـب الجنـدي لإحضـار قائـد كتيبـة الحـدود الفلسـطينية المصريـة، والـذي التقاهـا مـن وراء الأسـلاك الشـائكة، اسـتمع لقصتهـا بـدون مقاطعـة، بعدهـا أنهـت جيروزاليـم حديثهـا معـه بعبـارة قويـة قائلـة لـه: «إن لهـا في مـصر إرثًـا ثـم أشـارت لـلأرض، وأن لمـصر عندهـا دمًـا وأشـارت لمريـم». استشـعر فيهـا القائـد الصدق؛ لـذا سـمح لهمـا بالعبـور، عبرتـا جيروزاليـم ومريـم حاملـين الصنـدوق المصـدف حامـل الرسـالات السـماوية، كانـت دمـوع جيروزاليـم هـي آخـر مـا أبقتـه عـلى أرض فلسـطين، ودعـت بهـم القـدس، والمعبـد، والكنيسـة، والمسـجد، ودعـت بهـم أغنيات أورشـا ودعـوات ديفيـد وعينـا بولـس، ولـم تنـس رضيعهـا جيكـوب رغـم تشـوه جيناتـه مـن والـده، لكـن في الوقـت نفسـه غـير قـادرة عـلى إنـكار حقيقـة أنـه خـرج مـن رحمهـا، فكيـف لهـا أن تنسـاه.

خصص لهما القائد حجرته الخاصة في المعسكر، واعدًا إياهما بالبحث عن عائلة مريم من والدها بولس، ظنت جيروزاليم أن ظلال السلام حطت فوقهما واستقرت لكن هيهات لجيروزاليم أن تهنأ بالسلام.

أسبوعان منذ وصولهما ... لم تكن مريم بأحسن حال، ازداد انطواؤها وصمتها، كانت تذبل أمام جيروزاليم يومًا بعد يوم، فكرت الأم كيف لها أن تجلب السعادة لابنتها في هذه الأرض الفاصلة بين زمنين وعمرين؛ طلبت من أحد الجنود طلقات رصاص فارغة في محاولة منها لابتكار شيئًا ما يفرغ هموم مريم وأحزانها.

أحضر الجندي لها الرصاص ... أخذت جيروزاليم مريم لأرض واسعة رملية شكلت بالرصاص لوحة؛ شمس وغيوم متفرقة أزهار نابتة وشجرة كبيرة بها عش خالٍ من عصفورة، ومن ناحية أخرى صنعت بالرصاص قمرًا غير مكتمل أسفل صحراء خاوية إلا من نبات الصبار المليئ بالأشواك وقفص عصفور مفتوح، وفي المنتصف ما بين المشهدين عصفور من الواضح أنه فارٌ من القفص للعش، حاوطت جيروزاليم العصفور كاتبة فوقه مريم، حاوطت مريم اللوحة بأكملها كاتبة فوقها جيروزاليم ... الشمس والقمر، الخضرة والجدوبة، الليل والنهار، والعصفور. قالت لها جيروزاليم: ...

لاحقتها بالرد مريم قائلة:

- ليتها ما كانت فارغة، لكان العصفور قتل سجانه قبل أن يسجنه.

لم تجد جيروزاليم مخرجًا سوى احتضان مريم ... هو وحده

الحضـن مخـرج الآلام ونافذتهـا الوحيـدة، ... حضـن يـواسي آلامًـا مـن ضعـف حيلتهـا، ويفتـح بابًـا آخـر للحـزن عنـد الابنـة لقلـة جـدواه.

في المكتـب المتواضـع مـن أسباب الرفاهيـة بمـا يليق بقائـد جيش، بعـث القائـد لهمـا، استشـفت جيروزاليـم أن الأمـر يتعلـق بموضـوع البحـث عـن عائلـة بولـس، فانقبـض قلبهـا، في قـرارة نفسـها ودت لـو يغلـق هـذا البـاب تمامًـا، لـم تـرد لأحـد أن يشـاركها في مريـم أو يأخـذ مكانهـا في تربيتهـا، في حـين أن مريـم رغـم انطوائهـا وصمتهـا المبهـم، مقتـت كونهـا نبتـة بريـة نشـأت في بيئـة غـير بيئتهـا، وودت لـو كان لديهـا عائلـة آخـرى، أو احتـواءً أكـبر؛ لأن كل النـاس حولهـا كانـوا جيروزاليـم ويـا ليـت جيروزاليـم كانـت قـادرة عـلى اسـتيعابها.

حاولـت جيروزاليـم اسـتقراء معالـم وجـه قائـد حـرس الحـدود، لكـن محاولتهـا فشـلت فترقبـت خـروج كلماتـه بقلـب ورقي يشـبه تلـك الأوراق الـتي كان يقلـب فيهـم القائـد، قلبهـا قـد تمزقـه أي محاولـة للفصـل بينهـا وبـين مريـم، أخـيرًا نظـر لجيروزاليـم قائـلًا:

- بالنسـبة لعائلـة بولـس والـد مريـم، فهـي بالفعـل موجـودة بمـصر عائلـة مسـيحية معروفـة، وهــذه الأوراق أمامـي إثباتـات لشـخصية ونسـب مريـم مـع شـهادة ميـلاد مصريـة؛ أي إن مريـم منـذ اللحظـة مواطنـة مصريـة.

التمعـت البهجـة عـلى وجـه مريـم لكـن سرعـان مـا انطفـأت حـين قـال:

- لكـني أخـشى أن الأخبـار الآتيـة سـتثير إزعاجكمـا؛ حيـث إن عائلـة بولـس حـين علمـت أن جيروزاليـم يهوديـة الأصـل مسـلمة الديانـة رفضـوا مقابلتكمـا، وفي الوقـت نفسـه لا يجـدون أي مانـع في تكفـل

مريـم إذا مـا تخلـت والدتهـا عنهـا، وهـذا مبلـغ مـن المـال لقـاء مـيراث قديـم لوالـد بولـس ووالدتـه.

ثم أخرج ظرفًا وضعه على الطاولة وأكمل حديثه:

- بالنسـبة لجيروزاليـم لـم نسـتطع التوصـل لأي إثباتـات هويـة نظـرًا لأن الأمـر معقـد وجذورهـا متشـابكة، لكـن لا تقلقـي فبداخـل الأوراق ورقـة رسـمية تضمـن لـك جميـع حقـوق المواطنـة والحمايـة.

انتظـر قائـد الجيـش أي رد فعـل مـن جيروزاليـم لكنهـا كانـت ربمـا متفاجئـة، ربمـا لـم تجـد مـا تقولـه لكنهـا مـن المؤكـد متحفـزة لمـا سـيقوله عـن مصيرهـا عـلى تلـك الأرض ... أكمـل قائـد الجيـش حديثـه قائـلًا:

- ليـس مـن المعقـول أن أحـدًا قـد يعيـش عـلى الحـدود الفاصلـة؛ لـذا فإنـك تعلمـين أن يومًـا مـا سـتتوغلين أكـثر داخـل مصر، ولسـبب مـا عانيتـه أنـتِ ومريـم هنـاك سـبيلان؛ أولهمـا: جمعيـة إسـلامية خاصـة تكفـل الأمهـات المعيـلات نفسـيًّا وماديًّـا. والثـاني: كنيسـة لا يقـل دورهـا عـن دور الجمعيـة وكلاهمـا عـلى أتـم الاسـتعداد باحتوائكمـا.

قالت جيروزاليم بحزم:

- لا هـذا ولا ذاك، كثـيرًا مـا وددت لابنـتي حيـاة بعيـدة عـن أي إطـار ديـني كمـا كانـت حيـاتي الـتي عشـتها بـين أسـوار المعبـد أو حيـاة والدهـا الـتي قضاهـا تحـت مسـمع أجـراس الكنيسـة.

أجـرى القائـد اتصـالًا ثـم اتجـه لجيروزاليـم مسـتبشرًا، قـال لهـا إنـه يوجـد في الإسـماعيلية ملجـأ حكومـي ملحـق بـه مشـغل لـو أحبـت ألحقهـا بـه.

سـافرت جيروزاليـم ومريـم حيـث ملجـأ (عـين الرحمـة) بتوصيـة خاصـة لهـا، في حجـرة مديـرة الـدار كانتـا جيروزاليـم ومريم جالسـتين في مواجهـة المديـرة الـتي امتـلأ وجههـا بنظـارة طبيـة سـميكة عريضـة الإطـار، كانـت جيروزاليـم منكمشـة عـلى نفسـها ناظرة لأسـفلها تشـير لمـن أمامهـا أنهـا نائمـة بينمـا كانـت مريـم يقظـة مفـرودة القامـة مصوبـة أعينهـا نحـو المديـرة بالشـكل الـذي أربكهـا:

- في الواقـع نحـن لا نقبـل أغـراب في ملجئنـا، لكنكمـا كنتمـا حالـة خاصـة بتوصيـة خاصـة.

تنهدت مديرة الملجأ ثم أكملت:

- لا أدري كـم سـتكون نسـبة تقبـل السـيدات هنـا بالنسـبة لـك لكـني أتوقـع ضألتهـا، خاصـة لـو أخطـأ لسـانك بذكـر حقيقـة أصولـك اليهوديـة.

هنـا ارتفـع رأس جيروزاليـم، ثـم قالـت لهـا محاولـة أن لايصطـدم وجههـا بعيـني المديرة:

- أصـولي يهوديـة سـيدتي، لكـني لسـت إسرائيليـة، ثـم إن أمـي قدسـية الأصـل.

قاطعتها مديرة الدار:

- لـن يفهـم أحـد مـا تقولينـه، بلغـني أنـك مسـلمة وابنتـك مسـيحية، الوضـع غامـض.

توجهت المديرة نحو مريم قائلة:

- لمـا لا تسـلمين حبيبـتي مثـل والدتـك وتجنبيهـا كثـيرًا مـن المواقـف المتطفلـة، الإسـلام جميـل، بـل عليـكِ أن تكـوني مسـلمة مثـل والدتـك.

بنفس الثبات ردت مريم:

- إن شاء لي الله ان أسلم لن أسلم لأني سمعت من أحدهم أن الإسلام جميل أو لأني من المفترض أن أكون كذلك لأن أمي هكذا.

أكملت جيروزاليم من حيث انتهت مريم:

- سيده عفاف إن الحديث بالنسبة لإنسان ولد من أم وأب مسلمين فوجد نفسه مسلمًا بالتبعية، أسهل بكثير من الأمر بالنسبة لي ولمريم ولغيرنا ممن ولدوا يهودًا أو مسيحيين، رجائا سيدة عفاف لا أود لابنتي أن تكره على شيء، ولو على سبيل الترغيب لا الترهيب، جميع الأديان بين أيديها، هي وحدها سيدة قرارها.

امتعض وجه المديرة أمام جيروزاليم وهي تقول:

- إني أعلم بسريرة كل مَن بالدار، وأؤكد لكما أن بقاءكما في الملجأ لن يمر بسلام.

بعد هذا الحوار المظلم ذهبت المديرة معهما حيث الحجرة التي خصصت لهما، تتوارد في نفس جيروزاليم الأفكار، هل هذه هي مصر التي كلمها عنها نساء المقاومة وحدثوا عنها بولس؟! مشت في طريقها ساكنة تردد الدعوات أن لا يخيب الله ظنها في أهل مصر، وجدت حجرتها متواضعة الحال والمتاع، إلا أنها كانت أكثر إشعاعًا وسلامًا؛ سريران مريحان منجدان بقطن مصري ناعم، وكذلك كانت الوسائد، كان في الحجرة دولابٌ متوسط الحجم بالإضافة لمكتب صغير، ونافذة مليئة بأحواض الورد والريحان والنعناع، مطلة على حديقة أكبر، ابتسمت مريم واتضحت على وجهها معالم الرضى مما أسعد جيروزاليم وأراح

نفسـها، دارت مريـم حـول جيروزاليـم ثـم قالـت:

- سنتبادل هنا الأدوار يا أمي.

- كيف يا مريم؟

- سـأنفصل عنـكِ كمـا انفصلـتِ عـني مـن قبـل، وعليـكِ أن تطلـبي حجـرة أخـرى مـن أجـلي.

هنـا قطـع حديثهمـا صـوت طرقـات حـادة عـلى البـاب، انخلـع قلـب جيروزاليـم وهـي تنظـر للبـاب وقـد اعتـلى وجههـا الصفـار، قالـت مريـم مبتسـمة:

- افتحي الباب إن أول العقبات ينتظرك جيروزاليم.

ثم ولت بوجهها عنها.

اتجهـت جيروزاليـم ناحيـة البـاب ودقـات قلبهـا تتعـالى، فتحـت البـاب لتتقابـل وعـشرات الابتسـامات أمامهـا، تحدثـت ابتسـامة واحـدة نيابـة عنهـن:

- نحـن نزيـلات الملجـأ مـن لهـن ظـروف أوردتهـن هنـا، تتشـابه إلى حـد كبـير مـع ظروفـك، أردنـا إلقـاء التحيـة عـلى ابنـة الأرض الطاهـرة.

بصوت عال قصدته جيروزاليم حتى تسمع مريم:

- أهلا بالغاليات، تفضلن رحبت بكن المجالس وعطرت.

نظـرت لهـن مريـم بطـرف عينيهـا ثـم خرجـت للـتراس، كان اللقـاء بـين جيروزاليـم ونسـوة الـدار حميمـي عـلى عكس مـا صـورت المديرة لهـا؛ حيـث انخرطـن في محادثـات أنسـاب في ثناياهـا دفء المشـاعر الدافقـة وروح التضامـن المـؤازرة، بـل إنهـن حملـن معهـن بعضًـا مـن ملابسـهن وأدواتهـن وأشـيائهن البسـيطة عـلى هيئـة هدايـا،

والمثير للعاطفة أنه حين قصت جيروزاليم عليهن قصتها بداية من أورشا وحتى لحظة وجودها معهن، ظهر عليهن التأثر بل إن بعضهن اغرورقت عيناهن بالدموع، ومنهن من قامت باحتضان جيروزاليم.

لم تكن مريم جادة في أمر نيتها الانفصال عن جيروزاليم، إنما أرادت مناوشة مشاعر الأمومة في قلب جيروزاليم، والتي أحست مريم ببعدها قليلًا بسبب مشاعر الغربة التي غرقت فيها جيروزاليم نظرًا للأحداث التي أدت إلى غربتها داخل نفسها وليس فقط ممن يكونون حولها، مما أدى لابتعاد مريم عن جيروزاليم خطوات معدودة أحست به أرواحهم، وهذا ما كانت تقصده مريم.

كانت مريم تتقن العربية والعبرية، وكذلك الألمانية والإنجليزية؛ لأن جيروزاليم في الأصل تعلمت الألمانية من والدها ديفيد، كما أنها تعلمت الإنجليزية من مربية في منزل بنيامين كانت هي الأقرب لها أثناء شتات جيروزاليم عنها، وكانت ملمة بقواعد الحساب والهندسة؛ لذا لم يكن صعبًا عليها الالتحاق بمدرسة الملجأ خاصة بعد اجتيازها للاختبارات الشفوية والكتابية مما ألحقها بالصف الذي يناسب عمرها، وإن كانت متفوقة على أقرانها، فلم يكن طبيعيًّا أن يهمل بولس تعليم ابنته، أو حتى هذا السفاح بنيامين الذي جلب لها أساتذة خلال الفترة التي قضتها عنده أرضاءً لجيروزاليم، لم تكن المشكلة في الدراسة بل في تواصل مريم مع أقرانها ومدرسيها، صامتة لم يكد يسمع صوتها، عصبية حادة المزاج لا تجلس بجوار أحد، ولا تسمح لأحد بالجلوس بجوارها، كانت معروفة بين أقرانها بغريبة

الأطـوار، رفضـت رفضًـا تامًّـا اللحـاق بالمدرسـة، وكانـت لا تكـف أبـدًا عـن البـكاء، لـم تجـد جيروزاليـم بـدًّا سـوى إخراجهـا مـن المدرسـة وإلحاقهـا بالمشـغل معهـا مـع المداومـة عـلى تلقينهـا وتدريسـها عـلى يدهـا.

الوضـع في الملجـأ كان أشـبه بالجحيـم، لـم يكـن الأمـر يخـص الـنزلاء الذيـن كانـوا مـن النسـاء والأطفـال الشـبه مشرديـن، إنمـا كان يخـص الإدارة الممثلـة في مديـرة الـدار، والعمـال، وحـتى البـواب، جميعهـم امتلكـوا شـخصية واحـدة في وجـوه مختلفـة، كان العمـل في الملجـأ يشـبه خليـة نحـل لا ينقطـع ليـل نهـار في المشـغل أو الـورش الصغـيرة للأطفـال مـن الذكـور والأنـاث وحـتى سـن السادسـة، لـم يكـن العاملـون يتقاضـون أي مبالـغ ماديـة مقابـل جهودهـم، كان عملهـم يعتـبر نظـير الإقامـة والملبـس والمـأكل، وللحفـاظ عـلى نظـام الـدار وسياسـته اتبعـت إدارتـه نظـام (فـرق تسـد) حـتى تشـيع الفـتن وينشـغل العمـال بمشـاكلهم عـن المطالبـة بحقوقهـم، لكـن الفـتن كانـت تـأتي أسـفل أقـدام جيروزاليـم وتقـف لهـذا الحـب الغامـر قلوبهـم تجاههـا، وكأن هالـة مقدسـة تحاوطهـا وتحميهـا.

منـع منعًـا تامًّـا دخـول المجـلات والجرائـد للـدار حـتى يتـم عـزل كل مـن بداخلـه عـن المجتمـع الخارجـي، وكان اقتنـاء جريـدة بمثابـة اقتنـاء لفافـة مخـدرات، فمـن شـوهدت بكتـاب في يدهـا أيًّـا كان نوعه كانـت تسـاق لحجـرة الظـلام، وهـي حبـس انفـرادي مظلـم يشـبه مغـارة مسـكونة، يشـيب لهولهـا زغـب الأجنـة في بطـون أمهاتهـم، تاقـت جيروزاليـم لأي خـبر عـن أحـوال فلسـطين أو حـتى عـن أخبـار العـدوان عـلى مـصر، فرقـت سـمعها تجـاه أي حديـث جانـبي بـين إدارة الـدار أو عمالـه لكـن بـلا جـدوى.

في ذات يـوم زار أحـد المسـؤلين الملجـأ، وكان مـن الواضـح أنـه شـخص ذو شـأن، علمـت نزيـلات الملجـأ بالخـبر فاتفقـن أن يتحدثـن جميعًـا في الوقـت ذاتـه، شـارحات معاناتهـن مطالبـات بحقوقهـن، تزهـرت في أنفسـهن ورود الحريـة، ودنـت منهـن بشـائر الربيـع بنسـماتها منبئـة بغـد أفضـل، وأمـام الموقـف الجلـل لاحـت ظـلال حجـرة الظـلام أمامهـن فعقـدت لسـانهن ولجمـت الأمـل في قلوبهـن، فتراجعـن جميعًـا في خطـوة واحـدة، وظلـت جيروزاليـم واقفـة بمفردهـا لـم تتراجـع كالباقيـات إنمـا ظلـت صامـدة، أطلقـت شـكواها مـن فمهـا كمـا يطلقـون القذائـف مـن المدافـع، وانتظـرت تناثـر أشـلائها بعـد ارتـداد القذائـف نحوهـا.

تطايـر شرار الغضـب مـن أعـين المديـرة تجـاه جيروزاليـم، وهـي تشـهق حنقـا وتزفـر توعـدا «لـن تهنئـين يـا جيروزاليـم، مـا دمـتِ أصبحـتِ مـرآة أفعالنـا». تقـدم المسـئول تجـاه المديـرة آخـذًا إياهـا عـلى جنـب، تحـدث معهـا كمـا لـو كان يسـاومها، يفـرد أصابعـه الخمسـة في يـده فتقابلـه بفـرد ثلاثـة فقـط حـتى اسـتقرا عـلى أربعـة، لـم يظهـر منـه أي تهديـد أو تلميـح بعـدم الـرضى كان يسـاومها بعيـون رائقـة مـن الغضـب وثغـر باسـم.

ثـم اتجـه نحـو جيروزاليـم مـن تحدثـت بلسـان جميعهـن والمفوضـة بنقـل الآلام والأحـزان، لـم يهتـم بالأمـر في الواقـع، وقال لهـا في هيئـة تـدل عـلى أنـه سـمع شـكواها جيـدًا لكنـه في حقيقـة الأمـر لـم يشـعر بهـا إطلاقًـا، ترجمهـا عقلـه في نقـاط ولـم تشـعر بهـا مشـاعره لا بالشـفقة أو الاهتمـام، وبـكل روح بـاردة قـال وهـو يخـرج مـن جيبـه علبـة سـجائره ليأخـذ واحـدة منهـا، أرجـع العلبـة بتملمـل داخـل جيبـه ليخـرج يـده مـرة أخـرى معلقًـا بهـا قداحتـه

الذهبيـة، واضعًـا طـرف السـيجارة بـين شـفتيه بحـذر محتضنـا إياهـا بكلتـا يديـه وهـو ينـير لهـا الشـعلة ويخـبئ ضوءهـا لهـا حـتى تصـل لمسـارها، وبينمـا كان يعامـل سـيجارته باهتمـام وافـر وبشـكل آدمـي مبالـغ فيـه كانـت تقـف جيروزاليـم كالمذنبـة تنتظـر انتهـاء النفـس الأول مـن سـيجارته، والـذي أخـذ مـن الزمـن عمـرًا طويـلًا كطـول الطريـق بـين أقدامهـا وأعتـاب القـدس:

- حلـت قضيتـك يـا جيروزاليـم، سـتأخذين مبلغًـا أسـبوعيًّا ويـوم إجـازة أسـبوعيًّا.

قالها مبتسمًا، وردت عليه جيروزاليم:

- إنها قضيتنا جميعًا يا سيدي!!

- لكنـكِ مـن شـكوتِ يـا جيروزاليـم، ومـن عـبرتِ عـن معاناتـك، فيمـا يبـدوا أن الباقيـات راضيـات وسـعيدات بهـذا الوضـع.

ثـم اتجـه المسئول سريعًـا نحـو البـاب بعـد أن اخـرج السـيجارة مـن فمـه ورماهـا عـلى الأرض داهسًـا إياهـا بحذائـه، فهـؤلاء ليـس لهـم عزيـز بعـد انقضـاء مصالحهـم، اسـتطاعت جيروزاليـم بمـا أتيـح لهـا مـن المـال القليـل ومقـدار الحريـة الضئيـل أن تتبـع أخبـار فلسـطين ومـصر، كانـت الأخبـار رغـم كونهـا مسـتقرة إلا أنهـا لـم تكـن بالقـدر الـكاف لالتئـام جـروح جيروزاليـم أو تضميدهـا عـلى الأقـل.

زال العـدوان الثـلاثي، وتراجعـت فرنسـا وبريطانيـا وإسرائيـل، ومنعـت بريطانيـا مـن التربـح مـن قنـاة السـويس، وتـم تزويـد الجيـش بأسـلحة متقدمـة مـن الاتحـاد السـوفيتي، لكـن العـدوان قـد حقـق أحـد أهدافـه بنـشر قـوات طـوارئ دوليـة في سـيناء، وبهـذا فقـدت جيروزاليـم جـزءًا مـن أملهـا في الرجـوع لفلسـطين.

مـر سـتة أشـهر منـذ أن هربـت جيروزاليـم ومريـم مـن مـنزل بنيامـين، حاولـت جيروزاليـم فيهمـا تنـاسي المـاضي بأكملـه، إلا أنهـا لـم تسـتطع، فالمـاضي محفـور في أوصـال نفسـها فهـو يجـري في عروقهـا مثـل دمائهـا، رغـم محاولتهـا الإفـلات منـه، لكـن كيـف وهـو يـسري في عروقهـا، هـل لهـا تغيـير دماءهـا، أو اسـتبدالها؟ ليـت المـاضي كان أحداثًـا ومواقـف، ليتـه كان نواكـب وحـوادث، لكـن للأسـف فقـد كان المـاضي أصعـب وأشـد فهـو حنـين القلـب لمـن لـن يعـود وعودتـه تحـت بنـد المحـال، ليـت الراحلـين رحلـوا عنهـا طواعيـة؛ أورشـا، وبولـس، وليـت مـن رحلـت هـي عنهـم قـادرة عـلى الرحيـل بالفعـل، فمـا زال قلبهـا مرهـون بمـرارة الحنـين ... جيكـوب ... كـم انفطـر قلبهـا عليـه وتورمـت عيناهـا بـكاءً واشـتياقًا إليـه.

الـشيء الآخـر الـذي كان يكـدر جيروزاليـم هـو نفسـية مريـم الـتي كانـت تئـول مـن سـيئ لأسـوأ في انحـدار لا ينـبئ إلا بالسـوء، رغـم بـذل جيروزاليـم كل مـا عندهـا مـن جهـد لإسـعادها، إلا أن تصرفاتهـا العدوانيـة وتقلباتهـا المزاجيـة أصبحـت زائـدة عـن الحـد الطبيعـي، أيامًـا تجدهـا هادئـة هدوئًـا يشـبه هـدوء المخدريـن، ثـم لا تلبـث أيامًـا عـلى هـذا الحـال حـتى تجدهـا كثـور أسـباني يأخـذ أمامـه كل شيء، لترجـع لهدوئهـا بعـد أيـام وهكـذا دواليـك، حـتى أن إدارة الملجـأ أنـذرت جيروزاليـم عـدة مـرات، بـدأ الـكل يتحـاشى مريـم سـواء أيـام هدوئهـا أو غضبهـا، زاد ذلـك مـن انطوائهـا ووحدتهـا، قلـت ثقتهـا بالنـاس وبنفسـها، لـم تعـد مريـم تقريبًـا تخـرج مـن حجرتهـا إلا نـادرًا.

في أحـد أيـام عطلتهـا الأسـبوعية كانـت جيروزاليـم تتمـشى ومريـم في طريـق عودتهمـا للـدار، إذ بسـيارة مـرت مـن أمامهمـا وتوقفـت

بشـكل مفاجـئ، جعلهـا تحـدث صوتًـا عاليًـا أثنـاء توقفهـا، أخـاف مريـم الـتي شرعـت جيروزاليـم باحتضانهـا، ترجـل رجـل مـن السـيارة ثـم اتجـه نحـو جيروزاليـم ومريـم حـتى وقـف بمحاذاتهمـا، نظـر مطـولًا في وجـه جيروزاليـم قبـل أن ينطـق ويقـول:

- لك عذرك في شعورك بالخوف.

ارتبكـت جيروزاليـم مـن فعـل الرجـل الجـرئ، تفرسـت وجهـه لثـوانٍ حـتى تذكرتـه، ابتعـدت بوجههـا وكادت ترحـل مـن أمامـه لـولا أنـه باغتهـا بالسـؤال:

- هلا سمحتِ لي بإيصالك يا سيدة جيروزاليم.

وبنفس الارتباك قالت:

- لا شكرًا، الملجأ على بعد أمتار.

- أنا مصمم، الآن بعدما تعرفتِ عليّ ليس لديكِ عذر.

فكرت جيروزاليم أنه لا ضرر إن اسـتقلت السـيارة، لا شيء يسـتدعي الخـوف، فالرجـل مسئول كبـير، علامـات الهيبـة جليـة عـلى وجهـه، رجـل يرتـدي بِذلـة أنيقـة، ويركـب سـيارة فخمـة لمـا الريبـة منـه، ركبـت السـيارة ثـم أسرع بهمـا متخـذًا الطريـق المعاكـس للملجـأ.

ليس الملجأ من هنا.

وبهدوء أجاب:

- أعلم.

- لكـن سـيدي هنالـك موعـد محـدد لعـودتي، سـيكون هنـاك عقاب إن تأخرت.

- من قال إنكما سترجعان للملجأ ...

صرخت مريم:

- إنه يختطفنا يا أمي.

وجـدت جيروزاليـم أن عليهـا التعامـل مـع الموقـف بحكمـة؛ لأنـه مـن الواضـح أنـه اختطفهمـا.

- سـيدي أنـت تعلـم أني امـرأة فقـيرة بـلا أهـل يسـألون عنهـا إن كنـت تقصـد طلـب فديـة لقـاء خطفنـا.

ضحك الرجل مقاطعا إياها:

- فديـة أنـا أطلـب فديـة، وهـل أحتـاج أنـا لفديـة مـن نزيلـة ملجـأ وابنتها.

- لماذا لم تتحرك باتجاه الملجأ إذن؟

تجهم الرجل مغيرًا نبرة صوته.

- اسـمعي يـا جيروزاليـم، بمـا أني الخاطـف، فعليـك أن تلتزمـي دور الخاطفـة، وتلزمـين الصمـت وإلا أفرغـت رصاصـات هـذا المسـدس في وجهـك.

ثـم أخـرج مسدسًـا وصوبـه تجـاه مريـم وجيروزاليـم وهـو يقهقـه بصـوت عـال، ارتعشـت مريـم فاحتوتهـا جيروزاليـم بـين ذراعيهـا وطلبـت منهـا الهـدوء حـتى يعرفـا هـدف هـذا الرجـل.

بعـد سـاعات توقفـت السـيارة أمـام فيـلا في منطقـة لا تسـمع فيهـا صوتًـا، نـزل الرجـل ثـم فتـح بـاب السـيارة لجيروزاليـم ومريـم:

- هنـا اصرخـا كمـا شـئتما الفضـاء كلـه لكمـا، إنه لأمر مسلٍ بالنسـبة لي أن أرى الحـيرة في عيـون الغـير وأنـا أعلـم تمامًـا ما يحدث.

نظـرت جيروزاليـم حولهـا، لا شيء سـوى سـماء واسـعة تظلل أرض مليئـة بالأشـجار الفاكهـة والنباتـات، كانـت جيروزاليـم لا تـزال تحـت تأثـير صدمـة الاختطـاف لا تعـرف مـا يجـري ممـا تـراه، تقـدم الرجـل

مـن أمامهمـا نحـو المـنزل وفتـح بـاب القـصر عـلى مصراعيـه في دفعـة قويـة، دخـل ومـن ثـم دخلـت جيروزاليـم ، المـنزل فخـم لكنـه ثقيـل الـروح لا تشـعر فيـه بالارتيـاح مـن كـثرة مـا ازدحـم بقطـع التحـف الضخمـة والأثـاث المبالـغ فيـه، قـال الرجـل فـاردًا ذراعيـه:

- هذا القصر أم الملجأ؟

وبنفس الذهول أجابت وهي تمرر أعينها بين جنبات القصر:

- لا هذا بيتي ولا ذاك.

قالتهـا متنهـدة ثـم ارتمـت عـلى أقـرب كـرسي حطـت جسـدها عليه متحـررة بروحهـا عنـه كمـا لـو كانـت تحمـل ذلـك الجسـد بـين يديهـا مـن قبـل، ومـن ثـم تـبرأت منـه، فلقـد أثقـل ذلـك الجسـد الأوجـاع بمـا الكفايـة.

وقف الرجل الغامض أمامها.

- بـك شيء غريـب يـا جيروزاليـم يجـذب بشـكل غـير مفهـوم، كأنـك ممغنطـة.

ابتسمت جيروزاليم بسأم:

- وهـل تحولـت أنـت الآخـر أمـام وجهـي لشـاعر؟ أكمـل إن حديثـك مسـلٍّ.

- جيروزاليـم ستعيشـين منـذ اليـوم في هـذا القـصر، هـذه الأرض الخـضراء ملـك قدميـك، وتلـك السـماء بـين يديـك، أجيبيـني أي طمـوح في الحيـاة يماثـل هـذا الـذي أعرضـه عليـك؟

- وما المقابل؟

- لا مقابل سوى أنك تستحقين تلك الحياة.

- في كل مـرة كان يقـال لي فيهـا - تلـك هـي الحيـاة الـتي تسـتحقين

- اكتشـف فيمـا بعـد أن سـعادتي ليسـت فيهـا، وأني تركـت سـعادتي بداخـل مـنزل حجـري فـوق التـل.

لـم تكـن مريـم منبهـرة ببريـق الـثراء حولهـا، بقـدر مـا كانـت مترقبـة نهايـة عمليـة المقايضـة القـصر والأرض بـأي مقابـل مـاذا؟

- بالمناسـبة اسـمي كمـال زيـدان، لـن أتحـدث عـن نفـسي كثـيرًا فـكل مـا ترونـه بأعينكمـا يتحـدث عـني، سـعدت بلقائكمـا سـيدة جيروزاليـم أنـت والصغـيرة مريـم.

- هـل هـذا كل شيء؟ أنـه سـعد بلقائنـا تـاركًا لنـا ثروتـه، سـألت مريـم نفسـها.

قبل شروعه في الرحيل استوقفته جيروزاليم:

- هناك أشياء لنا في الملجأ؟

- جميـع مـا كان في حجرتـك سـبقكما إلى هنـا، أول حجـرة عـلى يمينـك في الطابـق العلـوي.

ودع كمـال جيروزاليـم ورحـل مشـيعة إيـاه عيناهـا حـتى لقائـه بالبـواب، وكان ذلـك هـو الحـوار الـذي لـم يصـل مسـامعها:

- شرفت يا كمال بيه.

- جيروزاليـم وابنتهـا في رعايتـك يـا مدبـولي، كـن حريصًـا عـلى أن لا تثرثـر كثـيرًا أمامهمـا.

- سرك في بئر كمال بيه.

- وإن مرت لجنة تفتيش؟

- سـأردد مـا حفظتـني إيـاه كلمـة كلمـة، الوقـف تحـت الرعايـة الكاملـة.

- وإن طلبوا منك تفتيش القصر؟

- المفاتيح ليست بيدي.

- عظيم.

إنه القدر يمهد لجيروزاليم رحلة أخرى.

مـر شـهر تـلاه شـهران آخـران، يحـضر كمـال بشـكل منتظـم مسـتلزمات جيروزاليـم ومريـم، يطمـئن عليهمـا ويرحـل، لـم يكـن مفهومًـا لجيروزاليـم سـبب اهتمامـه، إنـه يبـدو شـديد الاحـترام معهـا شـديد العطـف عـلى مريـم. حـتى إن مريـم أصبحـت معلقـة بـه أشـد التعلـق، حـتى إنهـا صرحـت لجيروزاليـم عـن شـعورها تجـاه كمـال، وأنهـا تحبـه وتعـتز بـه كمـا كانـت تحـب والدهـا بولـس، أمـا كمـال فحـين استشـعر ذلـك مـن مريـم وكان يـود لـو أن يـراه مـن جيروزاليـم لكـن فيمـا يبـدو أنـه لـم يسـتطع أن ينـل مـراده بالفـوز بقلبهـا؛ فقـرر البـوح بنوايـاه صراحـة.

- جيروزاليم.

- نعم يا كمال بيه.

- أنـا الآن مخـير بـين أمريـن؛ منصـبي ومكانـتي في العمـل، وبـين مـا عهدتـه عـلى نفـسي بحمايتكمـا أنـت ومريـم.

- لم أفهم.

- إن أردت الاسـتمرار في رعايتكمـا، فعـلي تقديـم مسـتند رسـمي يثبـت قرابتكمـا لي، مسـتند مثـل عقـد زواج مثـلًا، جيروزاليـم الملجـأ لـن يسـتقبلكما ثانيـة، فكـري في أنـه لا مـكان آخـر أأمـن عليكمـا مـن هنـا، وأنـه لا يوجـد بـشري عـلى وجـه الأرض سـيهتم بأمركمـا مثـلي.

- سيد كمال أنا لم أفكر في هذا الأمر مطلقًا.

- خذي وقتك جيروزاليم سأمهلك أسبوعًا.

بعـد رحيـل كمـال نظـرت جيروزاليـم في عيـنَي مريـم، فوجـدت فيهمـا الـرضى والقبـول لكـن جيروزاليـم قالـت:

- على كل الأحوال أنا غير موافقة.

- لكنني موافقة يا أمي.

- وهل الأمر يخصك يا مريم.

قالت مريم دون النظر في عيون والدتها.

- نعـم يخصـني، إن كان في مقابـل تشردنـا فهـو يخصـني، لقـد عانينـا بمـا فيـه الكفايـة ألـم يـئن الآوان كي نسـتقر.

- الاستقرار في مقابل أمك مريم.

- بل راحة ابنتك مقابل رأيك، احسبيها بهذا الشكل.

ألجمـت كلمـات مريـم لسـان جيروزاليـم، مريـم الـتي نضـج تمردهـا قبـل الآوان، الأسـبوع مـضى وآخـر غـيره كانـت مريـم تسـأل عـن كمـال كل يـوم، ليـس ذلـك غريبًـا أن تتعلـق مريـم بـأي يـد حانيـة تربـت عـلى كتفهـا، مـن أمـام النافـذة قالـت مريـم مخاطبـة جيروزاليـم:

- هل تظنين أنه لن يأت.

- مؤن البيت قاربت على الانتهاء، عليه أن يأتي.

- بل عليه أن يأتي حتى يعلمني الشطرنج كما وعدني.

اسـتطاع كمـال أن يلعـب عـلى ورقـة الاحتيـاج، احتيـاج جيروزاليـم لمـأوى واحتيـاج مريـم للعاطفـة، وفي منتصـف الأسـبوع الثالـث، في صبـاح يـوم الثلاثـاء نزلـت جيروزاليـم للطابـق السـفلي تتجـه للحديقـة، وكان لهـا يومـان لا تتقـوت هـي ومريـم إلا عـلى الفاكهـة، تفاجئـت بوجـود كمـال، لكـن عينهـا وقعـت في البدايـة عـلى الأكيـاس

التي وضعها أمامه وقالت فرحة:

- طعام.

تداركت الموقف ثم التفتت نحو كمال.

- شكرًا سيد كمال أنك لم تنسانا.

من على الدرج هتفت مريم.

- عمي كمال، عمي كمال.

- أسف، أطلت الغياب عليكما لكن جائتني سفرية مفاجئة.

أجابته جيروزاليم.

- هنالك أمر معلق علينا مناقشته سيد كمال.

ابتهج وجه كمال، وقال:

- تحت أمرك.

جلست جيروزاليم على الكرسي الذي بجواره.

- كمال بيه، لقد قدر لي فيما مضى من عمري أن أرى مقتل زوجي بولس والد مريم، وليتك تعلم مقدار حب بولس في قلبي، صحيح أنني مررت بفترة شتات من عمري ... قاطعها كمال:

- إن ماضيكِ لا يعنيني جيروزاليم.

- لكنه يعنيني أنا سيد كمال، إن هذا الماضي مسبب حاضري الذي سيكون مسببًا لمستقبلي إنه عقد متصل الحبات، كمال بيه إنني سأحاسب على كل لقمة كان من الممكن أن تنزل جوف ابنتي ومنعتها عنها، إن مريم بالنسبة لي هي أجمل ما في الماضي وأروع ما في الحاضر، وهي الشيء الوحيد الذي يجعلني أظن أن

المستقبل قـد يكـون جيـدًا.

- جيروزاليم ، رجاءً أفضِ لي عن قصدك.

صمتت جيروزاليم ثم قالت بصوت مرتعش.

- سيد كمال إني موافقة على عرضك لي بالزواج.

تـم الـزواج بعقـد رسـمي عـلى يـد مـأذون واثنـين شـهود، كان منهـم مدبـولي البـواب وواحـد آخـر جـاء بـه كمـال، بعـد تسـعة أشـهر كانـت جيروزاليـم قـد أنجبـت ابنهـا الثالـث إسـماعيل، طفـل يشـبه في ملامحـه جيروزاليـم لكـن ببـشرة سـمراء وشـعر أسـود كمـا والـده، وكان حملـه وولادتـه سـهلة متيـسرة عـلى عكـس ولادتهـا لجيكـوب، أمـا مـا أبهـج جيروزاليـم وأراح رأسـها، هـو سـعادة مريـم بأخيهـا إسـماعيل، في البدايـة كانـت جيروزاليـم قلقـة مـن فكـرة تقبـل مريـم لإسـماعيل لكـن عـلى عكـس مـا ظنـت جيروزاليـم فقـد تكيفـت مريـم مـع إسـماعيل، وعـلى عكـس توقعاتهـا تآلفـت معـه وكان أنيسـها ورفيقهـا الوحيـد، هـي عالمـه وهـو عالمهـا وحيـدان في دنيـا البـشر.

-١١-

عام ١٩٦٣

مـرت خمـس سـنوات هـي عمـر إسـماعيل وأصبـح عمـر مريـم خمسـة عـشر عامًـا، خمـس سـنوات ... لـم تنـس جيروزاليـم جيكـوب لكـن مريـم وإسـماعيل شـغلوا قلبهـا عنـه، لـم تنـس مريـم دمـاء بولـس لكـن جيروزاليـم وإسـماعيل وارا ذلـك خلـف حبهمـا وحنانهمـا، هـي المشـاعر وحدهـا قـادرة عـلى مـداواة إحسـاس مـا بإحسـاس آخـر مسـاوٍ لـه، فالقـوة ومضـاد لـه في الشـعور وفي التأثـير.

لـم تسـتطع جيروزاليـم خـلال سـت سـنوات هـي مـدة زواجهـا مـن كمـال تقبـل كمـال كحبيـب، إنمـا كان بالنسـبة لهـا مجـرد زوج لـم تخـرج علاقتهـا بـه عـن نطـاق عقـد الـزواج، ومـن ناحيـة أخـرى لـم يسـتطع كمـال أن يجعـل قلـب جيروزاليـم متعلقًـا بـه.

في ذات ليلـة شـتوية بـاردة كان كمـال جالسًـا متدثـرًا بعـدة أغطيـة وقـد تمكنـت منـه نزلـة بـرد شـديدة أحـضرت لـه جيروزاليـم كوبًـا مـن اليانسـون الـدافئ، ثـم انـزوت في ركـن بعيـد، فقـال لهـا كمـال:

- ليغفـر الله لقلبـك قسـوته عـليَّ يـا جيروزاليـم ، إن جلوسـك بجـواري هـو مصـدر دفء لي عـن ذلـك الكـوب الجامـد.

- وليغفـر الله لقلـبي مـا خلفـت الحـرب فيـه مـن تشـوهات، صدقـني يـا كمـال لقـد حاولـت كثـيرًا.

- إني قـد سـامحتك يـا جيروزاليـم ، لكـن عديـني أن تسـامحينني أنـت الأخـرى، ولتعلمـي أن كل مـا فعلتـه كان لأني أحببتـك.

- لا تتحــدث معــي بتلــك الطريقــة، إن كل شــخص فقدتــه في حيــاتي كان قبــل فقــده يحدثــني بنفــس الطريقــة، لا تطلــب مــني أن أســامحك؛ طلبهــا مــني بولــس قبــل موتــه بيومــين، وطلبتهــا أورشــا يــوم فراقنــا.

- شكرًا يا جيروزاليم.

- على ماذا يا كمال.

- على كل شيء فعلته وكل شيء حاولتِ فعله ولم تستطيعين.

اقتربــت جيروزاليــم أكــثر مــن كمــال وضعــت رأســها عــلى كتفــه، ثــم راحــت في النــوم، في الصبــاح كان كمــال يتأهــب لمغــادرة المــنزل، حاولــت جيروزاليــم منــع مغادرتــه مــن المــنزل إلا أنــه رفــض متعلــلًا بــأن هنــاك أمــور معلقــة، عليــه البــت فيهــا، لكــن كمــال تــرك جيروزاليــم هــي المعلقــة لأســابيع، اســتبدت الحــيرة بجيروزاليــم وســاورتها الشــكوك في أن كمــال قــد تركهــا للأبــد، لــم تكــن جيروزاليــم تعــرف لكمــال محــل إقامــة أو عمــل، كــم كان كتومًــا جــدًّا في حديثــه عــن عملــه وقــد آثــرت جيروزاليــم الانتظــار لعــل كمــال يعــود، مراوغة أســئلة مريــم وإســماعيل عنــه.

في اليــوم الســابع عــشر لغيابــه، اقتحــم مجموعــة مــن الضبــاط القــصر، انتــاب جيروزاليــم الغضــب وصاحــت فيهــم:

- كيف تقتحمون منزلي هكذا، من أذن لكم.

التفت الضابط نحو مدبولي:

- أليست تلك هي الخادمة.

- أي خادمة تقصد؟ انا زوجة كمال صاحب القصر والمزرعة.

- كمــال زيــدان تقصديــن، كمــال ليــس إلا موظفًــا، مديــر تفتيــش

علـى الأوقـاف وأمـلاك الدولـة في هـذا القطـاع.

بالرغــم مــن كــون الشــمس كانــت تنتصــف الســماء، أحســت جيروزاليـم بتـسرب العتمـة مـن حولهـا إزاء صدمتهـا تجـاه حقيقـة كمـال زوجهـا المخـادع، سـاعتان مـن التحقيـق المتواصـل وبعدهـا تـم الإفـراج عنهـا، خرجـت جيروزاليـم وبيدهـا ورقـة بهـا عنـوان زوجهـا والصندوقـان المصـدف حامـل الرسـالات السـماوية الثـلاث، وصنـدوق الذكريـات متوسـطة مريـم وإسـماعيل، حدثـت جيروزاليم نفسـها بصـوت عـالٍ: «العنـوان في السـويس وأنـا لا أملـك حـتى أجـرة المواصـلات»، لـم تكـد تنهـي كلامهـا حـتى وجـدت يـدًا تنـدس بداخـل يدهـا واضعـة بعـض الورقـات الماليـة، انتبهـت جيروزاليـم.

- شكرًا يا سيدتي أنا لا أحتاج للمال.

- فيمـا يبـدو أنـكِ لـم تشـعري بنفسـك حـين كنـتِ تكلميهـا بصوت عـالٍ، هـذا المـال يكفيـكِ للوصـول إلى السـويس ويكفـي لإطعامـك أنـت وأبنائـك ليومـين.

- شكرًا لفضلك أختي.

- الشكر لله.

وضعــت جيروزاليــم المــال في حقيبتهــا، واتجهــت لموقــف الحافـلات، جلسـت منتصفـة أبنائهـا وكان يجلـس في محاذاتهـم رجـلان يمسـك أحدهمـا جرنـالًا يتصفحـه، قـال وهـو مـا يـزال ممسـكًا بالجريــدة.

- لقـد توحـدت منظمـة فتـح تحـت قيـادة يـاسر عرفـات، إنهـا لمـن مبــشرات النصر.

بادره الرجل الآخر:

- لقد ضاعت فلسطين وانتهى الأمر، عن أي منظمات تتحدث يا أخي ما سلب بالقوة لن يؤخذ إلا بالقوة.

- هذا إن وجدت القوة من الأساس، أن في التوحد نفسه انتصار بل لن تنتصر فلسطين إلا بتوحد الفصائل جميعها.

ابتسمت جيروزاليم لما سمعته من حديث الرجلين، وهي تنظر للمال الذي وضعته المرأة المجهولة في يدها، لم تبتسم لسعادة بل لسخرية بداخل نفسها، لم يؤثر فيها خبر الوحدة من الانفصال، هي في كل الأحوال حرب مشتعلة واحتلال قائم، لعل أكثر شيء كانت تشعر به هو الندم أن نفذت وصية بولس، على الأقل في فلسطين كانت ستجد مكانًا لها، رغم الاحتلال لم يكن لرجال المقاومة ونسائهن أن يتركوها، ولم تكن لتقابل كمال وتقبل مقايضته هي مقابل المنزل والطعام، لكنها سرعان ما تذكرت إسماعيل فحزنت بداخل نفسها على ما شعرت به من ندم.

في السويس ومن داخل منزل عائلة زوجها كمال تقابلت وامرأة رحبت بها على أنها زوجة كمال، ولم تكن تعرف من هي، وظنت المرأة أن جيروزاليم امرأة كان يعطف عليها زوجها.

- المرحوم لم يترك لنا شيئًا حتى نُخرج منه ولو صدقة على روحه، كان رحمه الله مبذرًا لا أعرف متى وكيف كان ينفق ماله حتى إننا اكتشفنا أن هناك من كان مدينًا لهم.

- وهل مات كمال زيدان؟

- مات منذ أسبوعين في خطفة بصر.

هل لهذا كان يطلب منها أن تسامحه، انحنى ظهر جيروزاليم

بسـماعها مـا قالتـه الزوجـة، ثـم سريعًـا تمالكـت نفسـها موجهـة حديثهـا في ثبـات نحـو زوجـة كمـال الأولى:

- هنـاك أمـر لا أدري كيـف سيكون وقعـه، لكـن عـليَّ الاعـتراف بـه ليـس مـن أجـلي بـل مـن أجـل هـذا الطفـل.

بــدت الدهشــة عــلى وجــه المــرأة تنتظــر إكمــال جيروزاليــم لحديثهـا، تناولـت جيروزاليـم كـوب المـاء متجرعـة رشـفة منـه لتبـل حلقهـا الجـاف ثـم أكملـت:

- لقـد كنـت زوجـة لكمـال ولمـدة سـت سـنوات، وهـذا الطفـل ابنـه.

جحظت عينا المرأة تجاه جيروزاليم.

- أمن أجلك كان يستدين المال؟

- يشـهد الله أني مـا طمعـت في كمـال، ومـا تزوجتـه مـن أجـل مـال، كنـت أبغـي الأمـان والاسـتقرار ليـس أكـثر مـن ذلـك.

خرجـت المـرأة مـن الحجـرة ثـم رجعـت وبيدهـا رجـل في بدايـة الثلاثينيـات مـن عمـره:

- هـا هـي يـا عمـاد المحتالـة الـتي تدعـي أن والـدك كان متزوجًـا منهـا وأن هـذا اللقيـط هـو أخـاك.

فزعت جيروزاليم قائلة:

- لست محتالـة ولا مدعيـة وإسـماعيل ليـس لقيطًـا بـل ابـن كمـال زيـدان، وتلـك هـي شـهادة ميـلاده، وهـذا هـو عقـد زواجـي.

أخرجــت جيروزاليــم الأوراق، اختطفهــا منهــا الشــاب وراح يتفحصهـا.

- أوراقهـا سـليمة يـا أمـي، وفيمـا يبـدو أن أموالـه كانـت تـنزاح

عليهـا.

أخـذ الغضـب مـن زوجـة كمـال الأولى منتهـاه، وبـدت كذئبـة موتـورة أمـام جيروزاليـم وانقضـت عليهـا وهـي تعـوي في وجههـا:

- لـن تـبرد نـيران قلـبي إلا إذا قتلتـك أيتهـا السـاقطة يـا مـن سرقـتِ زوجي.

جذبها ابنها:

- اتركيها ولتبرد نيران قلبك وقلبي يا أمي بحرقة قلبها.

ثم التفت إلى جيروزاليم.

- اسـمعي، هـذه الأوراق لـن ترجـع لـك، وهـذا الطفـل بمـا أنـه أخـي فأنـا المسـئول عنـه، ليـس لـك مـن أبنـاء، اخرجـي مـن دارنـا مطـرودة.

كان يحدثهـا وهـو يدفعهـا للخـارج، وكانـت تـصرخ «إسـماعيل، اتركـوا لي ابـني وأعدكـم لـن تـروا وجهـي مـرة أخـرى»، بينمـا كانـت مريـم تحتضـن أخاهـا، أفلـت عمـاد ذراعـي مريـم عـن إسـماعيل جـارًا إياهـا نحـو الخـارج، تشـبثت جيروزاليـم بالأبـواب وبالحوائـط وبالسـتائر وبـكل مـا كان يمـر أمامهـا، وهـو ممسـكها بيـد ومريـم باليـد الأخـرى حـتى أخرجهمـا مـن المـنزل وأغلـق البـاب في وجـه جيروزاليـم للأبـد.

وقـع الحـدث عـلى جيروزاليـم كانهيـار بنـاء مرتفـع فـوق رأسـها، لقـد كتـب عليهـا أن تفقـد أبناءهـا واحـدًا تلـو الآخـر، تركـت المـنزل تجـر أقدامهـا عـلى غـير طواعيـة منهـا يسـيرها الطريـق، تسـوقها الريـاح، تمـشي وسـط العربـات يفترشـها الأسـفلت، تنهرهـا أصـوات السـيارات بعنـف في حالـة ضيـاع، فبرغـم مـن وعيهـا لمـا هـي فيـه،

مـا زالـت في حالـة ضيـاع تعـاني التيـه والشـتات.

جلسـت جيروزاليـم فـوق أحـد الأرصفـة مـع مريـم الـتي لـم يكـن حالهـا بأحسـن مـن حـال والدتهـا، كانـت صامتـة كعادتهـا صامـدة أمـام الحـزن إن كان الأمـر متعلقًـا بوجـع القلـب، واضعـة يدهـا عـلى خدهـا.

- وبعد يا أمي، هل ضاع منا إسماعيل؟!

ابتلعـت جيروزاليـم لعابهـا محاولـة تلويـن نـبرة صوتهـا وتزييـف ملامـح وجههـا، وهـي تقـول:

- كـوني متأكـدة يـا مريـم أنهـم لـن يـؤذوه، عـلى أسـوء الأحـوال سـيكون حالـه أحسـن مـن التـشرد عـلى الرصيـف.

- هل تقولين هذا الكلام من قلبك، أم أنك تحاولين مواساتي؟

- لا، بل أقول الحقيقة.

لـم تكـن جيروزاليـم تخبرالحقيقـة بـل تحـاول إبـداء التماسـك أمـام مريـم حـتى لا تجـزع بنيتهـا وتنهـار، كانـت أفـكار جيروزاليـم مشوشـة بمـا آلـت إليـه أمورهـا ولـم يكـن في حسـبانها، سـألتها مريم:

- إلى أين سنذهب؟

- سـنعود إلى الملجـأ، ومـن الملجـأ إلى الحـدود، ومـن الحـدود إلى فلسـطين، ومـن فلسـطين إلى القـدس، ومـن القـدس إلى قـبر أمـي.

لـم تتمالـك جيروزاليـم نفسـها في تلـك اللحظـة بعـد أن فـاض قلبهـا بـكل مشـاعر الحنـين الـتي غمرتـه تجـاه القـدس وأورشـا، فزرفـت دموعهـا وهـي تدعـو «الرحمـة والصـبر يـا إلهـي»، لكـن مريـم لـم تتأثـر ببـكاء أمهـا وأسرت بداخـل نفسـها «ولتتجرعـي يـا جيروزاليـم مـن كأس خطيئتـك أن زرعـتِ في رحمـك ابـن قاتـل أبي».

لم تنس مريم ولم تسامح.

رجعت جيروزاليم إلى الملجأ في الإسماعيلية لعلها تجد حلًّا لحياتها المعلقة في مصر، سألتها مريم أمام أعتاب الملجأ.

- هل جديًّا تريدين العودة إلى فلسطين.

- الأمر أشبه بالمستحيل يا مريم؛ أولًا لأن أوراقك مثبت فيها كونك مصرية أبًا عن جد. ثانيًا إسماعيل كيف سنترك إسماعيل؟

- على أي شيء تنوين إذا؟

- لا أدري لأي قدر سنسير.

أول مرة منذ ست سنوات تخطو قدمَا جيروزاليم أرض الملجأ، استقبلتها الذكريات الأليمة لمرض مريم، وهي ترى آثارها مطبوعة في كل ركن من أركانه مبللة بدموعها على تردي حالتها، شهور عجاف قضتهم جيروزاليم بين جنبات الملجأ وأرضه، كان من نتائجها أن استسلمت لخدعة كمال بلا مقاومة، تقابلت ومديرة الملجأ التي رحبت بمودة مصطنعة.

- الغالية جيروزاليم، كيف حالك وحال كمال بيه؟ منذ أن استلم أوراقك وأمتعتك لم نره!

وبحدة قالت جيروزاليم:

- بدون إذني، أليس كذلك؟

رفعت مديرة الملجأ حاجبها وهي تقول في نبرة تهكم:

- وهل رفضتِ أنت؟

- على العموم زوجي السيد كمال في ذمة الله.

مبدية التأثر:

- رحمه الله.

- سـيدة زينـب، إن تفاصيـل السـنوات الماضيـة معقـدة، لكـن مفادهـا أني في أزمـة حقيقيـة.

- منـذ تركـت الملجـأ جيروزاليـم إدارتـه أخلـت يدهـا مـن مسـؤليتك ومريم.

- سـيدة زينـب إنـني أمامـك اليـوم اسـتحث فيـك نزعتـك الإنسـانية بعيـدًا عـن الروتـين.

- جيروزاليم تحدثينني كأن الملجأ ملك يدي، أنا مجرد موظفة.

- حين تم إخلاء طرفي بلا إذن لم تكوني أيضا مالكة الدار.

تلبكت المديرة:

- هل تريدين إعادة قيد لك ولمريم؟

- بـل إيصـالي بـأي مسـئول، إني أحمـل تلـك الورقـة الموقعـة مـن أعـلى السـلطات في مـصر.

أعطــت جيروزاليــم الورقــة للمديــرة، بدلــت المديــرة نظارتهــا وتفحصتهــا ثــم قالــت:

- هذه الورقة أهم من مساعدتي الشخصية لك.

أوصلـت مديـرة الـدار جيروزاليـم بأقـرب نقطـة جيـش، هنـاك طلبـت جيروزاليـم مطلبـين أولهمـا مـكان للسـكن وأن يكـون السـكن في مدينـة السـويس حـتى تكـون بالقـرب مـن ابنهـا إسـماعيل، وكان الطلـب الثـاني هـو ضـم ابنها إسـماعيل لحضانتهـا، ولأن عقـد زواجها بكمـال وشـهادة ميـلاد إسـماعيل تـم اسـتلابهما مـن جيروزاليـم كان يلـزم اسـتخراج بـدل فاقـد لهمـا، حـتى تسـتطيع المطالبـة بحقهـا، وفي خـلال تلـك الفـترة اسـتطاع العـم الأكـبر لإسـماعيل أن يسـافر به

إلى إحـدى دول الخليـج، بعـد ظنـه أن جيروزاليـم هـي مـن احتالـت عـلى والدهمـا، وكانـت السـبب في تلويـث سـمعته في قطـاع العمـل بعدمـا أثبـت تربـح الوالـد مـن الوقـف الـذي كان مشرفًـا عليـه، وقـد أبعـد إسـماعيل عـن جيروزاليـم؛ إمعانـا في تعذيـب قلبهـا.

وفـرت السـلطات المعنيـة لجيروزاليـم شـقة وماكينـة خياطـة مـع معـاش شـهري ثابـت لهـا ولمريـم، عامـان آخـران كـبرت مريـم فيهمـا، عرفـت أن في الحيـاة أشـياء أخـرى غـير جيروزاليـم، في الحيـاة مريـم، خرجـت مـن بـين يـدي جيروزاليـم تركـت عملهـا عـلى ماكينـة الخياطـة لتلتحـق بمجموعـة عمـل عنـد أحـد المصممـين المعروفـين؛ لأن الأجـر كان أعـلى، فالحيـاة تتقـدم، والتطلعـات تـزداد، وسـقف الطمـوح يعلـو، انفـردت مريـم عـن عقـد جيروزاليـم، فالبقـاء في كنفهـا لا يسـمن نفـس ولا يغـني مـن حوجـة لفسـتان غـالٍ، أو حـذاء راقٍ، أو ربمـا فسـحة لأحـد النـواد الكـبرى ولـو مـرة في الأسـبوع، كانـت تخـرج مـن التاسـعة صباحًـا لا تعـود إلا في السـابعة مسـاءً، تتنـاول الطعـام وتنـام لتسـتيقظ بعـد منتصـف الليـل وقـت مـا تكـون جيروزاليـم نائمـة تطالـع المجـلات والصحـف، ومـن ثـم ترجع للنـوم لتسـتيقظ في موعـد عملهـا، لـم تعـد مريـم مداومـة عـلى الذهـاب للكنيسـة، وكانـت تقـضي يـوم أجازتهـا عوضًـا عـن قضائـه مـع والدتهـا في الرحـلات مـع مجموعـة شـباب تعرفـت عليهـم في النـادي، قـد تكلفهـا تلـك الرحـلات عنـاء الأسـبوع كلـه تكلفـة مـا ترتديـه ومـا تنفقـه، ثـم إن إتقانهـا للغـات المتنوعـة أعطـى عنهـا انطباعًـا مغايـرًا لحقيقـة ظروفهـا، في واقـع الأمـر لـم تكـن مريـم كاذبـة؛ إذ إنـه لـم يـأت ببـال أحـد أن يسـألها عـن حقيقتهـا أو ظـروف واقعهـا مصدقـين انطباعاتهـم عنهـا مـن ظاهـر هيئتهـا وتعاملهـا

معهـم.

في يـوم عـادت مريـم متأخـرة عـن موعـد رجوعهـا بسـاعتين، دخلت المـنزل ترتسـم نواياهـا الخطـرة عـلى وجههـا المجـرد مـن علامـات الرضـا، انتظـرت مريـم كلمـات جيروزاليـم المعاتبـة لهـا، كمـن ينتظر مـرور السـيارات في إشـارة مـرور، كي يعـبر ويكمـل الطريـق، لتفسـح بعدهـا جيروزاليـم الطريـق لمـا سـتقوله مريـم، سـتقول صراحـة إن جيروزاليـم هـي العائـق فـوق كتفهـا، فلتـنزل نفسـها عنهـا وتسـتريح، ليـس لهـا أحـد في الوجـود بالفعـل وتـصر جيروزاليـم مـلء الحيـاة مـن حولهـا بـكل كيانهـا الأجـوف، ودت لـو تقـول لهـا أفسـحي لي الطريـق جيروزاليـم أود الوصـول لمـا أريـد؛ لأن مـن الملاحـظ أن عمـري يفـنى تحـت واجـب يدعـى الوفـاء، الإشـارة حمـراء أمـام مريـم خـضراء أمـام جيروزاليـم، لكـن جيروزاليـم لـم تقـع في فـخ مريـم، لـم تعاتبهـا ولـم تعـبر عـن ضيقهـا حيـال تأخرهـا.

جلسـت يومهـا جيروزاليـم في الصالـة عـلى غـير عادتهـا عـلى الكنبـة المقابلـة لماكينـة الخياطـة، اقتربـت مريـم وجلسـت في زاويـة مظلمة بعيـدًا عـن طريـق الشـعاع الخافـت للمصبـاح بجانـب أباجـورة بثـلاث لمبـات أخـذت مريـم تغلـق وتفتـح زرار تشـغيلها وتنيرهـا عابثـة فتـضيء وتنطفـئ، ومعهـا تظهـر وتختفـي مريـم، سـألتها جيروزاليـم:

- هل أحضر لك العشاء؟

ردت عليهـا مريـم مسـتفذة إياهـا كنفـير السـيارات: «لا ... تناولـت العشـاء مـع أصدقـائي وربمـا غـدًا أيضًـا أو كل يـوم».

مـا زالـت تطفـئ وتنـير الأباجـورة، تظهـر وتختفـي، ابتسـمت لهـا جيروزاليـم قائلـة: «ابتعـدني يـا مريـم». نظـرت مريـم للمسـافة

بينهمـا، ثـم انتقلـت للجلـوس بجانبهـا، ابتسـمت جيروزاليـم بنفـس ذات الابتسـامة الـتي كانـت ومـا زالـت تودعهـا بهـا وتسـتقبلها وقالـت:

- «أنـت لا تعرفـين شـيئًا عـن البعـد ... هـذا البعـد الـذي لا يقـاس بالمسـافات ولا بالزمـن».

ادعـت مريـم أنهـا لا تفهـم قصدهـا، مـدت جيروزاليـم يدهـا تمسـك بيـد مريـم تضعهـا بـين أصبعـين مـن أصابعهـا قائلـة ومتعمـدة النظـر في عيـون مريـم: «ولدتـك يـوم عرفـت بخـبر صلـب أمـي ومقتـل أبي وأن بولـس أبـاكِ حكـم عليـه بالإعـدام، يومهـا لـم يشـأ القديـر إثقـالي بعـبء ألـم ولادتـك، وضعتـك بـدون أن أشـعر إلا بتلـك اليـد تحتضـن هذيـن الأصبعـين بشـدة، وتلـك العينـين وهـي تنظـر إليَّ شـعرت لحظتهـا أن الحيـاة أعيـدت لأمـي وأبي في قلـبي، ونجـا والـدك».

أخفـت مريـم دمعـات حبسـتها بداخـل عينيهـا مطبقـة عليهمـا جفونهـا ... لا لـن تتراجـع، هـو قـرار أخذتـه ولـن تتراجـع ... أفلتـت مريـم يديهـا مـن بـين يـدي جيروزاليـم في حركـة مضطربـة منهـا وابتعـدت بعـض سـنتيمترات، مسـحت بيديهـا المرتعشـة وجههـا المتعـرق، ثـم أزاحـت شـعرها للخلـف رابطـة إيـاه في حركـة هيسـتيرية وقالـت:

- سأرحل للقاهرة ... أمامي عرض عمل كعأرضة أزياء.

دمـوع مريـم الـتي أخفتهـا سـقطت مـن عيـني جيروزاليـم الـتي سرعـان مـا مسـحتهما بكفيهـا، طالبـة منهـا تركهـا تعـد لهـا كـوب العصـير في البدايـة، آثـار رد فعـل جيروزاليـم غضـب مريـم، وبلهجة حـادة قالـت لهـا وهـي تعقـد ذراعيهـا فـوق صدرهـا:

- «كـوب العصـير الـذي تعدينـه لي منـذ سـت سـنوات لأتناولـه كل

يـوم، مـا عـدت أشربـه، سـيضر بحميـتي وعـليَّ إنقـاص وزني لألحـق مبـاشرة بالعمـل».

صممـت جيروزاليـم عـلى صنـع العصـير لهـا إن كانـت تـود أن تعـرف ردهـا، فوافقـت مريـم عـلى مضـض.

هـل تبـوح جيروزاليـم بالـسر الـذي آواه قلبهـا طيلة سـت سـنوات، هـي تعلـم أنـه سـيأتي يـومٌ ستكشـف الحقيقـة فيـه نفسـها أمـام مريـم لكـن، هـل أزف الوقـت فعـلًا لمصارحتهـا؟ إن لـم يكـن قـد حـان فكيـف سـتراوغ تمردهـا؟ وكيـف سـتقنعها بالعـدول عن السـفر؟ جهـزت جيروزاليـم كـوب العصـير وناولتـه لمريـم، تتلاحـق الأفـكار الخاويـة بداخلهـا كيـف سـتخرج مـن هـذا المـأزق؟ جلسـت مريـم وجيروزاليـم قبالـة بعـض، كان الصمـت بينهمـا يتبـادل الأحاديـث. تشـاجرت وتشـابكت أفكارهمـا، الـصراع بـين الأنـا والأنـا الآخـر، بـين الاستسـلام للـذات والمقاومـة ضددهـا، هـل أجرمـت مريـم حـين أرادت طـي المـاضي بانهزاماتـه ونكباتـه وقتـلاه، كانـت مريـم تـرى أن جيروزاليـم هـي المـاضي المغمـوس فيـه دمـاء والدهـا، هـي المـاضي النابـت منـه برعـم قاتـل والدهـا، هـي ليسـت مسـألة طمـوح، بـل هـروب إلى السـلام المـنزوع منـه نـواة المـاضي.

أومـأت جيروزاليـم برأسـها عـبر النافـذة المفتوحـة، ذراعاهـا نحـو السـماء بعينـين أجهدهمـا سـهر الليـالي أمـام ماكينـة الخياطـة يسـتجديان العطـف مـن نظـارة زجاجيـة تغلفهمـا، كـسر أحـد جوانبهـا فجبرتـه بشريـط لاصـق رخيـص، زحـف الشـعر الأبيـض ليحتـل خصـلات أماميـة يهـدد بغـزو مناطـق أخـرى في طريقـه إليهـا، بـدأت التجاعيـد تحفـر منحنيـات حـول فمهـا وعـلى الجبـين، إن هـوان الاحتـلال أعجزهـا وغـيَّر خرائطهـا، قسـمها وبعـثر مشـاعرها،

وأتى للزمـن دور حـتى يأخـذ نصيبـه منهـا، نظـرت جيروزاليـم للسـماء الفارغـة إلا مـن نجمتـين متقاربتـين تعرفـت عليهمـا منـذ أن عرفـت بولـس، رحـل بولـس وظلـت النجمتـان؛ كل نجمـة فيهمـا حـوت عينًـا مـن عيـون بولـس اللذيـن مـا فارقاهـا ولـو لليلـة واحـدة. أسرت بداخـل نفسـها «هـا هـي قطعتـك تـود مفارقـتي يـا بولـس، كيـف السـبيل إليـك وأيـن السـبيل لإرجاعهـا»، أيقظهـا مـن غفـوة المـاضي.

ضوت مريم:

- ها أنا شربت عصيرك الرائع، ماذا قلتِ يا أمي؟

- ليس أروع من عصير التوت الفلسطيني.

- أمي بالله عليك لا تراوغيني.

- هل تودين بالفعل الابتعاد عني مثل أخيكِ إسماعيل؟

- وبنيامين هل نسيته يا أمي؟

- لا لـم أنسـه يـا مريـم، بـل كنـت أظـن أنـك أنـت مـن نسـيتيه؟ كل الظـروف تجمعـت لمحاربـتي يـا مريـم، لا تكـوني أنـت واحـدة منهـم.

- وكأنـني كنـت بعيـدة عـن تلـك الحـرب، كنـت يـا أمي دائمًـا وأبـدًا تجرينـني نحوها.

- حبيبـتي أنـا لـم أقصـد أن أكـون أمـك، إنـه القـدر ولـو خـيرت لقلـت إن هـذه الفتـاة الـتي تدعـى مريـم فتـاة رائعـة لا تسـتحق الألـم والحـزن، لا تسـتحق أن تكـون أمهـا جيروزاليـم.

اقتربت مريم من جيروزاليم معانقة إياها:

- كيـف لي التـبرء منـك غاليـتي لطالمـا اقتسـمنا الحيـاة معًـا، لنؤجـل أمـر العمـل والسـفر ولتكـن عطلـة الغـد لـك كلهـا، ولتنـسي حديـثي

السابق هذا.

قبلت جيروزاليم مريم، لكن ذلك العناق وتلك القبلة لم يستطيعَا محو ما تأصل بداخل نفس مريم منذ تلك اللحظة التي رأت فيها جيروزاليم ترضع بنيامين ابن قاتل والدها.

لم تذهب مريم يومها للعمل وظلت تسوية الأمور الملتهبة بينها وبين جيروزاليم مع الاحتفاظ بقرارها، أعدت مريم الإفطار ومن ثم ذهبت للكنيسة عليها اليوم الاعتذار للكل.

رن جرس الباب حين كانت جيروزاليم منشغلة بإعداد الطعام، وكانت مريم لم تأت بعد من الكنيسة، كان يقف أمام الباب رجل عجوز يظهر من هيئته العامة كونه مريض بدرجة تجعله غير قادر على أخذ أنفاسه إلا بمجهود كبير، يقف بجانبه رجل وامرأة في منصف العمر، أول مرة ترى فيها جيروزاليم تلك الوجوه في حياتها، أدخلتهم مرتابة ثم أجلستهم في حجرة الضيوف، كان من الواضح من هيئتهم أنهم ميسورو الحال، وربما الثراء، وكانت السيدة تعلق صليبًا صغيرًا حول رقبتها مما أكد لجيروزاليم أنهم مجموعة مسيحية، ومن ملابسهم اتضح أنهم ربما قرويين ذوي شأن في بلادهم، سأل العجوز عن مريم بالاسم:

- أين ابنتنا مريم؟

تفاجئت جيروزاليم فأجابتهم مضطربة إنها في الكنيسة، استبشرت وجوههم جميعًا خاصة الرجل العجوز الذي أخذ يمدح في حسن خلق مريم ودينها، قاطعته جيروزاليم قائلة:

سألت عن ابنتي وها أنت تمدحها، وحتى هذه اللحظه لا أعرف من أدخلتُ بيتي ومن أحادث؟

لـم يكـد الرجـل ينطـق حـتى دخلـت مريـم، هـب الثلاثـة واقفـين موجهـين أنظارهـم نحوهـا، ارتابـت مريـم وتلـكأت في الوصـول إليهـم، ألقـت التحيـة وهمـت بالرحيـل، لكـن الرجـل العجوز أمسـك بيدهـا، هنـا اندفعـت جيروزاليـم تفلـت يـد مريـم مـن يـده، نظـروا جميعًـا لجيروزاليـم باسـتنكار، رجـع كبيرهـم يمسـك بيـد مريـم مـرة أخـرى قائـلًا:

لنا في مريم أكثر منك، فلا تجادلي.

جـذب مريـم تجاهـه مجلسًـا إياهـا بجانبـه، وتحـدث وهـو لا يـزال ممسـكًا بيدها:

رحـل والـدي ووالـدتي للقـدس، وكان معهـم أخـي الرضيـع بولـس، كان عمـري حينهـا أربـع سـنوات، تركـوني مـع جـدي وجـدتي ورحلـوا للحـج ولـم يعـودوا، بعـد سـنوات جاءتنا أخبـار بأنهـم ماتـوا جميعًا، منـذ عـشر سـنوات أي بعـد عـشرات مـن الأعـوام منـذ رحيـل أسرتي جـاء منزلنـا رجـل جيـش برتبـة عاليـة مـع شرطيـين يسـتفسران عـن بولـس، حكيـت الحكايـة، وإذا بهـم يقولـون إنهـم تحـروا في مـصر وفلسـطين عـن بولـس وعنـا، كان غريبًـا أن أعـرف أن أخـي كان عـلى قيـد الحيـاة، لكـن الأغـرب أن نعـرف أن لـه ابنـة وزوجـة، لـم يكـن العائـق مريـم بـل أنـت يـا جيروزاليـم ... نحـن عائلـة مسـيحية كبـيرة خـرج منهـا قساوسـة وأسـاقفة ورهبـان، والـدي أنـا وبولـس كان قسيسًـا، فكـرة أن يكـن لي أخ لـه زوجـة مسـلمة محـرج، لكـن المصيبة الكـبرى في جـذورك اليهوديـة سـيقول النـاس آتيـة مـن إسرائيـل.

قاطعته جيروزاليم:

بل آتية من القدس.

لم يهتم بكلمة جيروزاليم وأكمل:

صارحتـه بـأني أتقبـل مريـم بمفردهـا بـدون أمهـا، تلغـي ارتباطهـا بأمهـا وتعقـد ارتباطـًا جديـدًا بـين أهلهـا، وأرسـلت معـه مبلغـًا مـن المـال، أمـا اليـوم وبعـد عـشر سـنوات، وقـد افـترش المـرض جسـدي كلـه قلـت أبـريء ذمـتي ... وهـا أنـا يوحنـا أخـو بولـس أطلـب يـد مريـم لابـني مطيـع، الأخ الثالـث لبطـرس ونجـاة الجالسـين بجـواري ... انتهـى كلامـي وهـذا عنـواني ورقـم هاتفـي، وللعلـم نحـن عائلـة صعيديـة مـن محافظـة المنيـا أصيلـة ثريـة، تشرفـت بـك يـا جيروزاليـم ، أمـا مريـم فأنـا أراهـا في عمـر يسـمح لهـا باختيـار الأصلـح لهـا والأنفـع.

- بادرته جيروزاليم بسؤالها:

كيف عرفت طريقنا؟

- وهـل العثـور عـلى ابنـة الأخ شيء صعـب، مـن التحريـات وصلت لطـرف الخيـط، وهـو الملجـأ ومـن ثـم لهنـا أمـام مريم.

رحـل أقـارب مريـم تاركـين قنبلـة موقوتـة قـادرة عـلى فتـك العلاقة بـين جيروزاليـم ومريـم للأبـد، سـألت جيروزاليم:

إذن وبعد ... وبعد الرحيل يا مريم ؟

ضحكت جيروزاليم نصف ضحكة وهي تنظر لمريم:

هل ستلحقين بأهلك أنت الأخرى؟

هـا هـي الفرصـة أتـت لمريـم للتحليـق بعيـدًا عـن عـش جيروزاليـم ، أجابتهـا مريـم محاولـة تفـادي عينيهـا بـشيء مـن ثقـة مزعومـة احتالـت بهـا عـلى نفسـها:

أنت أمي، لكنهم جذوري.

انتفضـت جيروزاليـم مـن مكانهـا صابَّـة غضـب السـنين صبًّـا فـوق

مريم:

«إن كانوا هم جذورك فأنا الأرض التي بها تشبثت الجذور، بدوني أنت وجذورك أموات، أنا الأرض يا مريم أنا الأرض، أنا الأرض التي استنفدتي كل خيرها وطاقتها وماءها وما زلتِ تستنفدين، الولاء للأرض لا للجذور يا مريم ثم تركتها».

في المساء ذهبت مريم لجيروزاليم ومن أمام ماكينة الخياطة وقفت صامتة مدة خمس دقائق ثم قالت:

علينا مناقشة الأمر أمي.

نظرت لها جيروزاليم بطرف عينها من أسفل النظارة وعاودت عملها، ألحت مريم مرققة لهجة حديثها:

- أمي، تعلمين أن ما أعطانا يوحنا من مال يعتبر الفتات لما يملك، وربما كان لوالدي إرث كبير لا أستطيع الجزم بأنه من الممكن أن أتزوج ابنه ذلك الشخص الغريب عني وإن كان قريبي، لكن اسمحي لي بالذهاب لزيارتهم ليس أكثر، أعلم أنك خائفة أن يلحق مصيري بمصير إسماعيل، لا تخافي لن أسمح بأن يحدث ذلك، إسماعيل كان صغيرًا، ثم إننا سنذهب معًا ونرجع معًا. قالت لها جيروزاليم: هل تعدينني أن نرجع معًا؟ هزت مريم رأسها مؤكدة.

تركت جيروزاليم مريم وذهبت لحجرتها، أخرجت مفتاحًا صغيرًا علقته في رقبتها فتحت به صندوق الذكريات الخشبي، اخرجت منه أدوية وروشتات، واتجهت بهم حيث كانت مريم لا تزال واقفة مكانها:

- تعالي يا مريم، اجلسي بجواري، ابنتي آن الأوان لتعرفي سرك

الـذي أخفيتـه حـتى عنـك لسـنوات طـوال، أنـا لسـت مقيـدة لحريتك يـا مريـم بـل إن احتياجـك لي هـو مـن قيـد حريتـك، تذكريـن كيـف كانـت حالتـك في الملجـأ؟ حالتـك كانـت تتدهـور، كنـت أفقـدك يـا مريـم، مـا عانيتـه في طفولتـك كان قـاسٍ عـلى أن يتحملـه بـشر ... أعلـم ... لـم أكـن أمًّـا جيـدة، كنـت خارجـة مـن حـرب هزمـت فيهـا، وقُسـمت وبُعـثرت، لـم أعـتن بـك، لـم أعطيـك حقـك، والـدك اتخـذ دوري، والـدك الـذي اسـتلقت رأسـه عـلى حجـرك مذبوحـة، ثـم بنيامـين ومـا فعـل بنـا مـن ترويـع وحـتى اغتصابـه لي أمامـك، ثـم جيكـوب وابتعـادي المخـزي عنـك، مريـم كل هـذا أثـر عـلى أعصابـك وخلايـا عقلـك الناميـة الـتي شـوهتها الأحـداث المزريـة.

إن مـا فعلـه كمـال معـك يجعلـني ممتنـة لـه طـوال العمـر، يجعلني أسـامحه عـلى كل خداعـه لي، ذهـب لطبيـب ووصـف حالتـك مـن دون ذهابـك، كان المفـترض أن يقـوم بعمـل أشـعة عـلى رأسـك، خدرتـك وقمـت بعمـل الأشـعة لـك، وجـد الطبيـب أن ثمـة خلـل مـا حـدث بداخـل عقلـك يلزمـه عـلاج طـوال الحيـاة، وإلا سـيصل المـرض لمراحـل متدهـورة قـد تصـل بـك لإيـذاء نفسـك، اقـترح عـليَّ كمـال عـدم إخبـارك بالحقيقـة حـتى لا تشـعري بالنقـص، وطلـب مـني وضـع الـدواء لـك في كـوب العصـير.

تحسـنت حالتـك تدريجيًّـا حـتى اكتمـل شـفاؤك نسـبيًّا لكـن واقعيًّـا أنـت مريضـة، عرفـتِ سـبب التصـاقي بـك مريـم هـو مرضـك حبيبـتي، كان رد فعـل مريـم أن فقـدت الوعـي.

أفاقـت مريـم أمـام وجـه جيروزاليـم الباسـم لهـا، مريـم الـتي إن غربـت الشـمس أشرقـت حيـاة جيروزاليـم بهـا، لا مـكان للظلمـة في حيـاة جيروزاليـم، قالـت لهـا جيروزاليـم: عنـدي خـبر قـد يسـعدك،

سـألتها مريـم متحفـزة عنـه، فأجابـت جيروزاليـم: إنهـم جميعًـا سـيذهبان لمزرعـة عمهـا غـدًا أو بعـد غـد عـلى الأكـثر، كان لهـذا القـرار أثـرٌ بالـغ عـلى مريـم؛ إذ إنـه أخـيرًا سـيكون لهـا أهـل وحيـاة ملئيـة بالبـشر، وأخـيرًا سـيخرج الطائـر مـن قفصـه وسـيحلق بعيـدًا بعيـدًا عـن جيروزاليـم،

خـلال العامـين لـم تنكـف جيروزاليـم عـلى زيـارة عائلـة كمـال فيهمـا، ولا عـن محاولاتهـا في جعـل الزوجـة الأولى تتصالـح مـع نفسـها ومعهـا، بـل إن زيـارة جيروزاليـم كانـت تؤجـج مـن نـيران الغـيرة والانتقـام في نفـس الزوجـة المغـدورة أكـثر وأكـثر؛ لأنهـا كانت تظـن أن أمـوال كمـال لا تـزال بيـد جيروزاليـم، والحقيقـة أن كمـال كان رجـلًا يحـب المظاهـر والتظاهـر بغـير حقيقتـه، وأن أموالـه كلهـا إنمـا ضيعهـا في الواجبـات والمناسـبات بسـبب علاقاتـه المتشـعبة في العمـل وغـيره، مدعيًـا البهويـة في زمـن ألغيـت فيـه الألقـاب، وإن كان لجيروزاليـم نصيـب وافـر مـن إسرافـه إلا إنهـا لـم تأخـذ شيئًا في يدهـا بصفـة شـخصية، إنمـا كانـت النقـود تأتيهـا عـلى هيئـة ملابـس وطعـام وغـيره، وكانـت كلهـا أشـياء فاخـرة تليـق بوجودهـا في القـصر الـذي ادعـى امتلاكـه، أمـا الضربـة القاسـمة كانـت في آخـر زيـارة لهـا لعائلـة كمـال ووجـدت أنهـم غـيروا محـل إقامتهـم ولا يـدري أحـد مـن الجـيران إلى أيـن رحلـوا، وان كانـت الأم قـد سـافرت مـع ابنهـا أو لا لتزيـد بذلـك المسـافة بـين جيروزاليـم وإسـماعيل.

رجعت جيروزاليم من حيث ما أتت سألتها كالعادة مريم:

- ألم تتوصلي لحل مع عائلة إسماعيل؟

انقلبـت الأرض بجيروزاليـم وهـوت عـلى الأرض غير دارية بنفسـها، فلحقتهـا مريـم تسـاعدها عـلى النهـوض بعدما أثقلهـا الهم.

- يبدو أنك نسيتِ أخذ علاج الضغط.

- ليس الأمر كذلك، عائلة كمال غيرت محل إقامتها.

وضعت مريم كفها على فمها ثم قالت:

- كيف إذا سنستطيع إرجاع إسماعيل.

- لا أدري يا مريم، إن الموت لراحة لي عن ذلك العذاب.

- وأنا يا أمي تتركيني؟

- ألم يعثر عليك أنت الأخرى أهل والدك؟

- أمي!!

قاطعتها جيروزاليم:

- مريـم لا تثقـلي عـليَّ بالحديـث حبيبـتي، اسـتعدي للسـفر غـدًا للمنيـا.

- أمهليني يومين ريثما أهيئ نفسي ونفسيتي للسفر.

فتحـت مريـم خزانتهـا، ألقـت كل مـا فيهـا عـلى السريـر، وقتهـا في فـترة السـتينات كانـت المنطقـة العربيـة بأكملهـا بـدأت تعـاني حمـى الهيبـز الأمريكيـة شـئت أم لـم تشـأ، سـتدخل أمريـكا لعقـر دارك، سـتدخل خزانـة ملابسـك بألوانهـا المزركشـة، بالشارلسـتون والقمصـان الخفيفـة المرتفعـة عـن الخـصر والتنـورات الميـني والميكـرو، سـتدخل آذانـك بمسـيقاها الـروك أنـد رول وأسـطوانات ألفيـس بريسـلي، سـتدخل فمـك بطعامهـا السريـع الفاسـت فـود، الدجـاج المقرمـش والبرجـر، سـتدخل أحلامـك ومـن ثـم سـتتسرب لأفـكارك.

صاحـت مريـم بداخـل نفسـها: جميـع تلـك الملابـس لا تكفـي. ليـس أمامهـا سـوى أصدقائهـا وصديقاتهـا الهيـبز، كل جمعـة مـن

كل أسـبوع كانـت مريـم تسـهر معهـم في كازينـو وبـار في الزمالـك بالقاهـرة، هـي الآن تـود شراء ملابـس جديـدة تتباهـى بهـم أمـام عمهـا وأبنائـه، وفي نفـس الوقـت لا تجـد المـال الـكافي معهـا، ليـس أمامهـا سـوى اقتراضهـا مـن أحدهـم.

خرجـت مريـم مـن حجرتهـا وتوجهـت نحـو جيروزاليـم، أمسـكت كتابًـا وأخـذت تقلـب فيـه، وجيروزاليـم منكبـة عـلى ماكينـة الخياطة، وكأن الحيـاة تمـر بهمـا عـلى شـاكلتها المعتـادة، لكنهمـا في الأصـل كانـا كمـن يـؤدون أدوارا يحاكـون فيهـا الواقـع بغـير أن يعيشـاه، المسـافات تبتعـد وتبتعـد بـين الأم والابنـة، جلسـت مريـم بجـوار جيروزاليـم وطلبـت بلطـف في نـبرة تـودد واسـتعطاف:

- كنـت فقـط اسـتأذنك في الذهـاب اليـوم للسـهر مـع الأصدقـاء في حفلـة توديـع قبـل سـفرنا للمنيـا.

مـا كانـت جيروزرليـم ترفـض لمريـم طلـب فيـه سـعادتها ورضاها، وافقـت عـن طيـب خاطـر رغـم علمهـا بالخطـر الـذي قـد يحـوط أي فتـاة في عمرهـا، لكنهـا أدرى بابنتهـا الـتي كانـت مـن أولئـك البـشر الذيـن كمـا يقـول المثـل شربـوا مـن سـم الأفعـى وأكلـوا مـن لحـم الثعالـب إن صـح هـذا التعبـير في وصـف دهائهـا بـلا مبالغـة، فهـي بالفعـل كانـت فتـاة رغـم صغـر عمرهـا ذكيـة فطنـة تحيـط بجميـع فنـون المراوغـة والمكـر والاقتنـاص.

سـافرت مريـم للقاهـرة واتجهـت لغايتهـا المقصـودة في نفـس الكازينـو الـتي اعتـادت الـتردد عليـه حيـث يعرفهـا الكثـيرون مـن الشـباب والبنـات، كان الكازينـو كبـيرًا تخالـه صغـيرًا مـن ازدحامـه بالشـباب الهيبـز مـع ضوضـاء الموسـيقى الراقصـة الـتي أضفـت ضجتهـا تزاحمًـا في المنتصـف، كان يوجـد حلبـة رقـص مسـتديرة

مليئة بالفتيان والفتيات، لا تستطيع تمييز الفتى من الفتاة فكلاهما يرتدي ذات الألوان الصاخبة المزركشة، كلاهما شعره طويل، يتمايلان بنفس ذات الحركات، يطعم حديثهما بعض الكلمات الإنجليزية والفرنسية يتبادلان كئوس الخمر والقبلات بلا استحياء.

دخلت مريم وانتبه الجميع لفاتنة الكازينو الفتاة الثرية كما يعتقدون، المثقفة، التي تعزف الجيتار وتتلو شعر شكسبير وتقرأ لموليير وتشوفيسكي ترقص الجاز والتانجو والديسكو وتجيد الرقص الشرقي، مريم توليفة التبغ الشرقية والغربية معًا، إنها مريم التي لم تأخذ من براءة الاسم شيئًا.

رغم غصة قلبها تجاه إسماعيل، أخفت مريم مشاعرها خلف تبرج وجهها وابتسامتها الزائفة، دخلت متنمرة مستحضرة كل قوى سحرها المرئية المنبعثة من هيئتها الخادعة واللامرئية المنبعثة من روحها الصادقة، تظهر الفتيات بجانبها فقيرات من الجمال، معدمات من مغناطيسية الأنثى، مريم التي إذا ما وضعت بوصلتك في يدك تحركت تلقائيًّا تجاهها، أفسح لها الجميع مكانًا مميزًا متوسطة الجمع جلست واضعة ساق على ساق تداعب خصلات شعرها المستعار، تجول بعينيها كنمرة تبحث عن صيد سمين.

إنه هو من تريد، ريكي الشاب المدلل اللطيف، والأهم من ذلك الثري، الذي ينفق على جمال بشرته ونضارتها في اليوم الواحد ما قد تكسبه والدتها في شهر من تقوس ظهرها خلف ماكينة الخياطة، كان ريكي شابًّا طويل القامة، نحيف العود، حاد الملامح، ذا لون برونزي وشعر كستنائي يميل للبني الفاتح، ذا

عينـين عسـليتين فاتحتـين تـكاد تلمعـان مـن شـدة بريقهمـا، صاحـب أنـف رقيـق وشـفتين مسـتطيلتين متناسـقتين مـع اسـتطالة وجهـه الـتي حددهـا شـعره المصفـف بعنايـة، إذا مـا نظـرت إليـه تخالـه شـابًّا أوروبيًّـا حـتى يتحـدث فيبهـرك بلكنتـه المصريـة الركيكـة الـتي لا تخلـو مـن مصطلحـات أهـل الشـارع مـن الحرفيـين والسـائقين ربمـا كانـت تلـك أحـد مميزاتـه الـتي جعلـت الفتيـات تتهافـت عليـه، الشـكل الغـربي الممـتزج بالـروح المصريـة العميقـة.

كان ريـكي يجلـس عـلى البـار يقلـب في سـاعة ثمينـة يعرضهـا عليـه جـان عامـل البـار للبيـع، رغـم ادعائـه الفطنـة إلا أنـه كان أحمقًـا بالمقـدار الـذي يسـتطيع جـان النصـب عليـه؛ لـشراء غـرض مـا لا تسـاوي قيمتـه ربـع المبلـغ الـذي يـود بيعـه بـه إيـاه، كـم أغـدق عليـه بالبقشـيش لمجـرد مدحـه لأناقتـه أو مجاملتـه بأنـه الأكـرم بـين الأصدقـاء وأجملهـم وأكثرهـم إعجابًـا مـن ناحيـة الفتيـات، وأن هـذه قالـت لـه إنهـا تحـب ريـكي، وتلـك مسـتعدة لدفـع مبلـغ وقـدره مقابـل إعطائهـا رقـم هاتفـه، إلى غـير ذلـك مـن المجامـلات الكاذبـة المخـدوع بهـا ريـكي، هكـذا كانـت تظنـه مريـم.

تقدمـت نحـوه في دلال، إنهـا مريـم مـن تـاق لنظـرة منهـا ولـو حـتى ازدراءً، وهـو ريـكي مـن كان قلبهـا يلاحقـه مـن خلـف سـتار عـدم الاهتمـام والتجاهـل ... تلـك المتكـبرة وهـو المغـرور ... كلاهمـا انتظـر لحظـة استسـلام الآخـر، وهـا هـي وبعـد عـام مـن الحـرب البـارده تـأتي لأرضـه طواعيـة، لـم يصـدق عينيـه، فهـي مراوغـة ولـو وقفـت بمحاذاتـه لـن يصـدق حـتى تبـدأ بالحديـث.

- ريـكي، مـاي فيفوريـت سـتار. نظـر إليهـا باندهـاش لـم يتوقـع حـتى أن تلقـي عليـه التحيـة، فمـا بالـك بتلقيبـه نجمهـا المفضـل،

حـاول جاهـدًا ألا يغـير ملامـح وجهـه، «أهـلًا مريـم». اقتربـت أكـثر واضعـة يدهـا عـلى كتفـه، وبضجـر رقيـق ونـبرة صـوت معاتبـة يغلفهـا اللـوم والشـكوى قالـت: «إذا مـا كانـت الفتـاة وحيـدة ضيـق عليهـا الخنـاق، أمـا إذا ارتبطـت وضعـت تحـت الميكرسـكوب، وهـذا مـا قـد فُعـل معـي ... سـمعني والـدي أحـدث إحـدى الصديقـات عنـك، واصفـة إيـاك ومـدى إعجـابي بـك وكنـت صراحـة منصفـة في الوصـف». فقاطعهـا مبديًـا اندهاشـه برفـع حاجبيـه: «صراحـة» أكملـت مريـم: «نعـم، وبـدون مبالغـة ومـن أجلـك عوقبـت، منـع والـدي مـصروف يـدي، وهـا هـي حقيبـتي فارغـة إلا مـن صـورة لـك ... ادفـع جـزاء إعجـابي بـك إذن ريـكي، أنـا جـادة يـا ريـكي في حديـثي هـذا».

وضـع ريـكي يـده فـوق وجهـه يـداري ضحكاتـه المكتومـة، أخذهـا مـن ذراعهـا وخـرج بهـا مـن الكازينـو، خلـع عنهـا شـعرها المسـتعار ومسـح بمنديلـه مكيـاج وجههـا المبالـغ فيـه: «مريـم، أنـت صادقـة في كونـك تحتاجـين للمـال، وكنـت أود لـو كنـت صادقـة في بـاقي حديثـك، لسـت معجبـة بي، ولا والـدك حـتى عـلى قيـد الحيـاة، أنـت مريـم ابنـة الخياطـة الـتي تقتـات رزقهـا يومًـا بيـوم مـن أجـل الفتـاة ... لا تقلقـي أعـرف تلـك الحقيقـة منـذ عـام، ولـم أنبـث بكلمـة واحـدة أمـام أصدقائـك، ولـن أخذلـك سـأعطيك المـال لكـن دعينـا نعقـد صفقـة». كيـف علـم بحقيقـة أصلهـا؟! تلـك الحقيقـة الـتي تحولـت لطعنـات مزقـت كبرياءهـا الـذي أعلـن انهزامـه أمـام غـروره، وآه لـو علـم بهـا كاملـة، جمعـت بقايـا كبرياءهـا ورقعتـه واصلـة بقايـاه بعضهـا البعـض، اسـتخدمت كل حيلهـا لإخفـاء آثـار الخيـوط، رافعـة أنفهـا نحـو أقـصى نقطـة قـد يمتـد بـصره إليهـا، فـلا يلاحـظ

فـرق القامـة بينهمـا. «والصفقـه هـي؟» ابتسـم ابتسـامة المنتـصر أمـام غريمـه حـول صنـدوق الشـطرنج، وهـو يعلـم أنـه قـد يحـرك قطعـة واحـدة وربمـا تـأتي بيـده ليحـرك قطعتـين قبـل مـوت ملكـه. «كـش ملـك مريـم ...». قالهـا في نفسـه، بينمـا كانـت تمـر بجانبهمـا مجموعـة مـن الفتيـات ألقـين التحيـة عليـه بالقبـلات عـلى جانـبي وجنتيـه، ثـم استرسـل في الحديـث معهـن إمعانًـا في إذلال كبريائهـا، كادت تتركـه، لا، هـو لا يريـد انسـحابها، بـل هزيمتهـا باغـت الفتيـات بأخــذ مريــم مــن ذراعيهــا تــاركًا إياهــن تنهــش فيهــن الغــيرة مــن سـعيدة الحـظ مريـم، الـتي كانـت مـن قبـل أن يمسـك يدهـا فتـاة عاديـة مثلهـن، تحولـت بلمسـة منـه لأمـيرة تعلوهـن مكانـة عنـده.

توقـف بهـا عنـد منتصـف مفـترق الطـرق: «ذكريـني أيـن توقـف حديثنـا...؟» قـال ذلـك دافعًـا بهـا لحالـة الغضـب، كان مـن الممكـن لهـا تـرك الصفقـة قبـل عقدهـا، لكـن الدخـول في معـترك حـوار بـارد أسـفل صفيـح محمـوم مـع ريـكي كان بالنسـبة لهـا في حد ذاتـه صفقة رابحـة، قالـت مدعيـة الغضـب: «الصفقـة يـا ريـكي»، «اه نسـيت يـا مريـم ... إذا كـم مـن المـال تريديـن؟». قـال بعـد اكـتراث ناظـرًا في مـرآة السـيارة يداعـب خصـلات شـعره، بينمـا عينـاه كانـت مثبتـة نحو مريـم تتفقـد تعابـير وجههـا، ترتشـف مـن نـوره مـا يشـحذ بصيرتهـا بدرجـة تجعـل عينـاه تـرى الحـزن المغـروس فيهمـا مـن سـنين، ثمـة نظـرة في عينيهـا لـشيء مـا غـير موجـود أو ملمـوس.

لا تـدري مريـم لمـاذا تـراءت لهـا صـورة بنيامـين يديـر حـول عنـق جيروزاليـم تلـك القـلادة، قالـت وعقلهـا سـارح:

- «مائتا جنيه».

ولــو قيــل لريــكي تدفــع ألفــي جنيــه مقابــل مجالســة مريــم في

مقابلـة كتلـك الـتي يمسـك فيهـا زمامهـا يشـد ويجـذب الحـوار كمـا يشـاء لوافـق عـلى الفـور وزادهـا ألفـين. نظـر لسـقف السـيارة كمـن يفكـر في الأمـر وقـال بـدون النظـر إليهـا:

- «هي مائة واحدة وأخشى إن جعلتها مائتين تثقلك المقايضة».

- «هـات مـا عنـدك يـا ريـكي، ولا تحـاورني الكـرة في ملعبـك والمرمى بـلا حـارس، سجل جميـع أهدافـك حـتى تكل».

- «لـك مـا تريديـن مقابـل ... لا أدري قـد يكـون الأمـر صعبًـا لكـن هـو احتيـاج متبـادل، أنـت تحتاجـين المـال وأنـا أحتـاج لمـن ينظـف المـنزل ويعيـد ترتيبـه معـي خـلال يومـين».

مـا أن سـمعت مريـم كلماتـه حـتى همـت بالخـروج مـن السـيارةوقالت محتـدة عليـه:

- من تظن نفسك؟ وماذا تظنني؟».

خرجـت كلماتهـا سريعـة حـادة، مسـك ريـكي معصمهـا يحـاول إثناءهـا عـن الخـروج:

- أنـا فعـلا يـا مريـم أحتـاج لمـن يعيـد ترتيـب بعـض الأشـياء معـي، وأعـدك ألا تخـافي لـن ألمسـك.

- ها أنت تمسني يا ريكي.

خرجـت مسرعـة تتمـنى أن يلحقهـا لتوافـق عـلى مضـض بعدهـا، بالفعـل فعـل مـا تمنـت مريـم داخـل نفسـها، مـبررًا موقفـه بأنـه لا يقصـد الإهانـة وإن أرادت مسـاعدته أو لا فسـيعطيها المـال، كان قلبهـا يغـني أغنيـة ربيعيـة مبهجـة، تفتحـت عـلى نغماتهـا ورود السـعادة المنغلقـة بداخلـه، ليتحـول قلبهـا لمـرج سـهل ملـون دارتـه بسـتار تعابـير وجههـا الصلفـة تجاهـه قائلـة:

- سآخذ المبلغ لقاء خدمتي لك، لكن تذكر أنا لن أنسى هذا الموقف ما حييت، الآن أعطني حق مكالمتي لأمي؛ لأنه ليس معي شيء من المال ثم اخصمها من المبلغ.

رجعت مريم سريعًا للكازينو لتهاتف جيروزاليم، قالت كلماتها متلاحقة ثم أغلقت الهاتف:

- أمي لا تقلقي عليَّ سأمضي يومين مع أصدقائي ... علبة الدواء معي ... هما يومان فقط.

ما أن سألت مريم جيروزاليم عدم القلق، حتى تصارعت الهواجس داخل عقلها، فمهما كانت شجاعة مريم ومكر تفكيرها تظل ضئيلة أمام العالم القاهري المنفتح الجبهات لكل غزو فكري، خافت عليها من أن تغزوها الأفكار فتتبدل وتتحور أكثر مما هي عليه وتزداد الهوة بينهما، فالوضع لا يحتمل سقوطًا آخر.

في منزل ريكي تلك الفيلا الصغيرة الجدباء حديقتها، والجاف حوض مائها، قديمة أسوارها متهالكة، دخلت مريم بتأني، فالسلم المؤدي للباب الرئيسي قديم جدًّا ومتكسرة درجاته، الباب رغم قدمه كان لا يزال محتفظًا بشموخه رغم ما يبدو عليه من تعاقب الأزمنة. تخال أن تلك الخربشات آثار لحيوانات برية مفترسة ذات أنياب حاولت التسلل، فصدها الباب تاركة علامات مخالبها البائسة دون جدوى. فتح ريكي الباب أمام مريم بسلاسة لا تتناسب وهيئته الصلبة:

- من هنا يا مريم.

قال ريكي لمريم التي دخلت مذهولة لما تشاهده عيناها؛ المدخل الفرعوني ذو النقوشات الهيروغليفية مينا يلبس تاج

القطريـن، عربـات أحمـس تهاجـم الهكسـوس، تـوت عنـخ أمـون ينـادي بالتوحيـد، حتشبسـوت ومـن ثـم كليو باتـرا، ينتهـي المدخـل بعموديـن رومانيـين يحرسـهما أسـدان، يسـتقبلانك لردهـة مزخرفـة بالنقوشـات الإسـلامية تشـعر كأنـك خرجـت مـن ألـة الزمـن للتـو للعصـور الأمويـة والفاطميـة والعثمانيـة، أناقة الزخارف والفسيفسـاء عـلى الجـدران وتعشـيقات الأرابيسـك في المقاعـد العربيـة والأرجات، مـا أن تخـرج مـن الردهـة حـتى تسـتقبلك الحداثـة بعشـوائيتها وتنافرهـا الأرائـك الملونـة والحوائـط المكسـوة بالرسـومات السريالية، أسـطوانات، جيتـار، عـلى اليمـين مكتبـة وعـلى الشـمال في الجهـة المقابلـة بـار تزخـم رفوفـه بالزجاجـات كمـا المكتبـة العامـرة بالكتب، وإن كانـت المكتبـة مليئـة بالكتـب فالبـار مزدحـم بزجاجـات الخمـور والكحوليـات عـلى اختـلاف أشـكالها وأنواعهـا.

تقدمـت مريـم نحـو المكتبـة، كانـت مكتبـة يضـم أكثرهـا كتـب فلسـفية وفكريـة متنوعـة عـن الريديكاليـة والبرجوازيـة، والفاشـية، والليبراليـة، والاشـتراكية، والشـيوعية والفرويديـة، إلى آخـره؛ كتـاب مـن جميـع أنحـاء الأرض؛ كارل بوكـر، هانـا أرندنـت، جـي تالمـون، لينـين، وتومـس كـون إلى غيرهـم مـن المفكريـن والفلاسـفة الغربيـين وحـتى المفكريـن العـرب.

قالـت مريـم وهـي تمـرر يدهـا عـلى الكتـب المتراصـة بتسلسـل مقصـود لغايـة في نفـس مـن رتبهـا:

- هـي الأفـكار تأرجـح الشـعوب مـا أن يـترسى فكـر حـتى يقـوم فكـر آخـر مناهـض لـه فيزهـو الأول وينمـو الثـاني، وينقسـم المجتمـع ومـن ثـم يتصـارع، فينقسـم وتتحلـل روابطـه...

أكمـل ريـكي مـن حيـث مـا أنهـت كلماتهـا مسترسـلًا بيـده مـن

الناحيــة الأخــرى مــن المكتبــة العريقــة الآخــذة عــرض الحائــط وطولــه:

- الأفــكار ... تعطيــك نموذجًــا لمســتقبل يطمــح إليــه الشــعب ويلهــث خلفــه، ومــا أن ينخــرط فيــه حــتى يجــد الشــعب نفســه متورطًــا في صراعــات تدهــس أســفلها أبنائــه بينمــا ينهــض ويعلــو الفكـر بأصحابـه، يمـوت الشـعب وتـتراص جثثـه، بينمـا يعلـو فوقهـا صاحـب الفكـر، ينـسى المواطـن ناعتينـه بشـهيد الفكـر بينمـا يخلـد اسـم القائـد عـلى جـدار التاريـخ، جميعهـا أفـكار صبـت صبًّـا لتغريـب الـشرق فتتفـكك دعائمـه بـلا وعـي...

أكملت مريم:

- ولهـذا السـبب وضعـوا العقيـدة جانبًـا والفكـر في جانـب آخـر ومـن الأفـكار مـا اتخـذت العقيـدة إطـارًا لهـا، وإذا مـا جادلتهـم اتهمـوك بقـذف العقيـدة ذاتهـا.

أكمل ريكي بنفس بنبرة مريم:

في النهايـه تجديـن أنهـا جميعًـا صـور افتراضيـة عـن صـورة مجتمـع معـين، فالغالـب يصعـب جـدًّا إلى حـد المسـتحيل تطبيقـه ويحـدث التصـارع مـرة أخـرى، كلهـا بقصـد أو بـدون قصـد تخـدم الصهيونيـة والماسونية.

هنا وقف ريكي مباشرة أمام مريم وقالا في صوت واحد:

- ما إن وجد آل صهيون وجد الشيطان.

ثـم تراجعـت مريـم بكيانهـا كلـه تحـاول عيناهـا إيجـاد مخـرج مـن دهالـيز نظـرات ريـكي المتعمقـة بداخـل روحهـا، جلسـت عـلى كـرسي جانـبي في أحـد الأركان يقبـع مـا بـين جيتـار منكفـئ عـلى الحائـط،

ومنضـددة صغـيرة وضـع فوقهـا زهريـة فارغـة مـن الـورود وعلبـة سـجائر، ثـم قالـت:

- أليـس غريبًـا عـلى ريـكي الفـتى المدلـل أن يحمـل عقلـه كل تلـك الأفـكار؟

ثـم أسرت مريـم بداخـل نفسـها، وهـي تقلـب علبـة السـجائر بـين يديهـا محاولـة إبـداء بعـض مـن التجاهـل لنظـرات ريـكي الموجهـة نحـو وجههـا:

- عـن أي شيء تبحـث يـا ريـكي في وجهـي، إن حاولـت عمـرك كلـه لمـا اسـتطعت مـع أسراري سـبيلًا.

- سـحب ريـكي كرسـيًّا وضعـه بجانـب مريـم ناحيـة الجيتـار، جلـس عليـه ثـم أخـذ علبـة السـجائر مـن يدهـا ليضعهـا مـرة أخـرى فـوق الطاولـة وأجـاب:

- لست مدللًا يا مريم، ولم أكن يومًا كذلك.

تنهـد ريـكي مـن أعمـاق قلبـه تـاركًا وجـه مريـم بعـد يأسـه مـن إيجـاد أحـد الشـقوق في نفسـها الـتي اسـتطاعت بحنكـة ترميـم كل تصدعـات مآسـيها، التقـط جيتـاره محتضنًـا إيـاه يبحـث بـين أوتـاره عـن أغنيـة تنسـيه شـيئًا مـا دائـم الضغـط عـلى ذاكرتـه ثـم سـألته:

- هل اسمك الحقيقي ريكي؟

اختلطـت النغمـات بـين يـدي ريـكي لتخـرج صوتًـا شـاذًّا، وكأن الأوتـار بـين يديـه تتعـارك، تـرك الجيتـار منتبهًـا لمريـم:

- اسـمعيني يـا مريـم ... قـد يفكـر الكثـيرون أني شـاب مدلـل ثـري طائـش، لا، أنـا لسـت كذلـك، تعرفـين جـان عامـل البـار، هـذا الـذي أشـتري منـه أشـياء رخيصـة بمبالـغ ثمينـة تعرفينـه أليـس كذلـك؟ لا،

أنـت لا تعرفينـه، هـو رجـل يعـول أم مريضـة وخمـس إخـوة ووالـده متـوفي منـذ سـنوات، قـد تـأتي ليـالٍ أعطيـه لقـاء مـا كسـبت اليـوم بطولـه لأرجـع خـاوي الجيـوب. حكايـتي باختصـار يـا مريـم تبـدأ مـن أمـي، آه، هـن الأمهـات مـن يبـذرن بـذور الحكايـات، ومنهـن تكـبر قصصنـا، هـن القـادرات عـلى إنمائهـا والقـادرات عـلى جزهـا قبـل الآوان، أمـي ولـدت مـن أب يهـودي الأصـل روسي غـيَّر كنيتـه وديانتـه قبيـل الثـورة البلشـيفية عـام ١٩١٩ مثلـه مثـل الكثيريـن مـن زعمـاء نـواة الشـيوعية، كان مـن مؤسـسي الحـزب الأوائـل، كـبرت أمـي كاثوليكيـة السـطح يهوديـة العمـق، كلفـت أمـي بمهمـة كحـال كثـير مـن فتيـات الحـزب، وكانـت مـصر مـن نصيبهـا، والهـدف إنشـاء حـزب مـوازي للشـيوعية بطابـع شرقي، لا يتنـافى مـع القيـم والديـن ولكـن تبقـى نواتـه شـيوعية، أبي كان الطعـم رجـل خمسـيني العمـر ثـري، تغويـه فتـاة روسـية تغويـه بالجسـد، ومـن ثـم الفكـر ليكـون هـو مؤسـس الحـزب، تزوجهـا وأنجـب منهـا ماركـوس الـذي هـو أنـا ريـكي، تـوفي والـدي قبـل تحقيـق الحلـم رجعـت والـدتي الاتحـاد السـوفيتي بي وبنصيبهـا مـن إرث والـدي، أمـا إرثي فقـد وصى المجلـس الحسـبي عليـه ابـن عمـي الأكـبر، سـافرت معهـا لا أتجـاوز العامـين عانيـت الأمريـن ضيعـت أمـي أموالهـا ووهبتهـا للحـزب، عملـت منـذ أن كنـت في الرابعـة، عملـت في كل المهـن، مـا تتخيلينـه ومـا لا تتخيلـين، كنـت عامـل نظافـة، وسـائس أنظـف الإسـطبلات وأغسـل الخيـول، عملـت حـدادًا، ونجـارًا، ومنظـف أحذيـة، وعامـل بنـاء، وغيرهـا مـن المهـن، مرضـت أمـي بالـدرن، وحـتى نجـد مـا نتقـوت بـه كنـت أعـزف بالجيتـار واضعًـا أمامـي قبعـة أتسـول بمـا أعـزف في مـكان أغلبـه مـن المتسـولين، ماتـت أمـي لا تجـد الخيـط الـذي ترقـع بـه ثوبهـا.

رجعت إلى مصر والتقيت بابن عمي لأول مرة منذ خمسة عشر عامًا منذ رحيلي من مصر، وكان ابن عمي رجلًا عجوزًا بخيلًا أشد البخل، جعلني أعمل خادمًا عنده لقاء سكني وطعامي، زوجته عجوز شمطاء متصابية تروادني عن نفسي لقاء إطعامي من أجل كسرة خبز وقطعة جبن، كم من الليالي نمت متضورًا من الجوع، مات ابن عمي وفك المجلس الحسبي إرثي، كان الإرث أرضًا، أرضًا واسعة قاحلة ممتددة مترامية الأطراف، ليس معي ما يكفي من المال لاستصلاحها وليس بإمكاني بيعها، بنيت حولها سورً وتركتها في يد أحد الحراس، وهذه الفيلا القديمة التي أعيش فيها، أكسب عيشي من دروس اللغة الروسية لمن أراد تعلم اللغة ولمن أراد السفر، وذلك بجانب دروس البيانو والجيتار...

كان غريبًا أن يشترك كل من ريكي ومريم في جذور أمهاتهم اليهودية، لعل هذا كان سر الانجذاب بينهما، تطرق وجه مريم ناحية البار المقابل للمكتبة حيث زجاجات الفودكا والنبيذ المعتق بجانب أنواع أخرى، ثم قالت له ساخرة:

- تلك حانة وليست بارًا يا ريكي، من أين لك هذا أيها المعدم إلا من زجاجات الكحول.

قال لها:

- تلك هدايا، كل من علمته حرفًا روسيًّا قابله بزجاجة خمر وكتاب، لا أدري أيهما كان يغيب عقلي أكثر، انظري يا مريم ليس لدينا الكثير من الوقت لنبدأ العمل أود التخلص من هذه وذاك.

مشيرًا للمكتبة والبار، كان الوقت متأخرًا ومريم كانت منهكة،

فطلبت مـن ريـكي إرجـاء أمـر البـار والمكتبـة للغـد، خيرهـا مـا بـين حجـرات المـنزل، أيهمـا تفضـل النـوم فيهـا، الحجـرة الفرعونيـة أم الرومانيـة أم الإسـلامية أم العثمانيـة أم غرفتـه حديثـة الطـراز، لكنهـا اختـارت ردهـة صغـيرة مكشـوفٌ أحـد جوانبهـا تجـاه السـماء، موضـوع فيهـا أريكـة بسـيطة مريحـة كانـت لأحـد العمـال في المـنزل، جلـب لهـا ريـكي مـن ملابـس والدتـه الـتي كانـت بالنسـبة لملابـس مريـم الصريحـة فاضحـة، قلبـت مريـم الأثـواب قائلـة:

- مـاذا كانـت تعمـل أمـك يـا ريـكي؟ لـو تعـرف أمـي أني سـأرتدي قطعـة منهـم أمـام رجـل غريـب لتـبرأت مـني، خـذ تلـك الثيـاب وآتـني بثيـاب مـن خزانتـك.

احمـر وجـه ريـكي خجـلًا أمـام مريـم الـتي قالـت كلماتهـا ضاحكـة سـاخرة، ثـم أحـضر لهـا ريـكي بجامـة مـن ملابسـه، قصرتهـا بمقـص وعدلتهـا حـتى أصبحـت مقاسـها.

في صبـاح اليـوم التـالي اسـتيقظت مريـم لتجـد ريـكي وقـد أعـد لهـا إفطـارًا شـهيًّا، تناولـت مريـم الطعـام كمـن لـم يـأكل منـذ أيـام، لـم تجـد حرجًـا في إظهـار طبيعتهـا وأسـلوبها أمـام ريـكي، جـرت الكـرسي وكان سيسـحبه لهـا، أزاحـت منشـفة الطعـام جانبًـا وأسـندت السـكين والشـوكة بجوارهمـا، قسـمت الخـبز مـن المنتصـف بشـكل عشـوائي لتتابـع ازدرادهـا للقيمـات واحـدة تلـو الأخـرى، تغمسـها بنهـم ثـم تضعهـا في فمهـا، شربـت كـوب المـاء عـلى جرعتـين، وقامـت تغسـل يديهـا لتـأت مشـمرة سـاعديها وهـي تقـول:

- من أين نبدأ يا ريكي؟

سـألت مريـم ريـكي الـذي كان مذهـولًا مـن جـرأة فتـاة مثلهـا تـترك تصنعهـا الناعـم أمـام شـاب، إنهـا هـي مريـم جاذبيـة الـروح

والمحيا لكن غروره سرعان ما وسوس له: «ألا يحتاج يا ريكي بعض من الزيف الرقيق، ألا تكترث لك وتتجمل بعض الشيء». انتصف النهار وكانا بالكاد قد تخلصا من المكتبة، رن الهاتف، ذهب ريكي لاستطلاع من يهاتفه، انتهزت مريم الفرصة ودخلت المطبخ تعد الغداء، كانت الثلاجة خاوية تمامًا:

- هذا المعدم المغرور كيف سيدفع لي إن كان جيبه خاويًا.

راحت تتفقد الخزائن، أرز، بصل، زيت، ثوم، والكثير من التوابل والبهارات، ثم هذا الكنز الملقى على الأرض، طماطم وفلفل وباذنجان، فكرت ماذا تفعل وما تعد ... مقلوبة فلسطينية ... آخر عشاء أعدته والدتها لوالدها ولم يتناوله، ها هي بالدمع تعده لريكي، تحملت مريم ألم كل ضربة سكين في قطع الخضار كأنما كانت تنغرس بقلبها، ألهذه الدرجة يحبه قلبها حتى تتحمل كل تلك الآلام من أجل إعداد وجبة له، تناول ريكي طعام مريم بلا كلمة شكر واحدة، صمت صمتًا زاد من أوجاعها.

بعد الغداء تناولت مريم دواءها، هنا كسر ريكي حاجز الصمت سائلًا مريم عن نوع الدواء الذي تتناوله، كيف تأتي به؟ وهي لا تدري حتى نوع مرضها، هل هو خلل في السلوك أم المنطق أم خلل في واقعها؟ لم تجبه ولم يلح ريكي عليها بالسؤال مرة أخرى، وقبل أن يبدأ في التخلص من البار استأذن ريكي من مريم:

- آسف يا مريم، هناك عمل ملح بالخارج وعليَّ إتمامه، ربما لن أستطيع المبيت بالمنزل ولك أن تعتبري الدار دارك.

أحست مريم بإهانة عظيمة، كيف له تركها وهي ما غفل جفنها عنه طيلة اليوم واليوم السابق وكل يوم كانت تراه

فيـه؟! كيـف وقـد قبلـت المقايضـة لقـاء لقائـه ولـو ليومـين، لـم تكـن تتوقـع رد فعلـه هـذا، بـل إن قلبهـا تمـادى وزيـن لهـا حلمًـا أن الحيـاة سـتهبها السـعادة، سـيحمل ريـكي وردة وسـيعترف بحبـه لهـا وينتهـي الأمـر، لكنـه بالفعـل أنهـى الأمـر بتماديـه في إذلالهـا، وظنـت مريـم أنـه مـا فعـل هـذا إلا إمعانًـا في كـسر كبريائهـا.

خـرج ريـكي متأنقًـا تـاركًا مريـم تضـع الزجاجـات في صنـدوق كتركـه لأي شيء بالمـنزل ضامنًـا بقائـه:

- لا، أخطأت تقديراتك سيد مغرور، ليست مريم كأي شيء.

قالـت مريـم في نفسـها بينمـا كانـت تشـيعه بتلـك النظـرة المتقـدة بالتحـدي، وليتهـا تيقظـت لحقيقـة أنهـا لـم تكـن تتحـدى إلا قلبهـا. بعـد انتهائهـا مـن جمـع الزجاجـات والتخلـص منهـا عنـد أقـرب صنـدوق مهمـلات كمـا فعـلَا بالكتـب، قـررت الرحيـل، لـم يكـن في حقيبتهـا قـرش واحـد، ولـم يكـن معهـا حـتى مـا تبيعـه لتدفـع حـق أجـرة مواصـلات العـودة، باروكتهـا جديـدة، وكذلـك حقيبـة يدهـا لـم تسـتخدمها سـوى مرتـين بالعـدد، باعتهمـا كأغـراض مسـتعملة وسـافرت.

مـا أن رأت مريـم جيروزاليـم أمامهـا حـتى أجهشـت بالبـكاء عـلى كتفيهـا، حكـت لهـا عـن ريـكي كل شيء وحـتى تركـه لهـا معلقـة كلوحـة عـلى حائـط قلبـه الصلـب، ابتسـمت جيروزاليـم:

- إن الأحبـة هكـذا دائمًـا مـا ينظـرون لـكل فعـل أو تـصرف مـن أحبائهـم بعدسـة مكـبرة، فيتحـول البعـد إلى خطيئـة والكتمـان إلى جـرم.

أرادت أن تعنفهـا لوجودهـا في مـنزلٍ مـع شـاب غريـب، ثـم فكـرت أن يكـون التعنيـف في شـكل نصيحـة، لكنهـا لـم تفعـل هـذا أو ذاك،

إن مريـم لـن تقبـل النصيحـة ولـن يثـني عقلهـا التوبيـخ ففضلـت الإنصـات بـدون أن تجادلهـا.

في صبـاح اليـوم التـالي أعـدت جيروزاليـم ومريـم عدتهمـا للسـفر للمنيـا، حيـث أصـول والدهـا بولـس ومنبتـه الـذي لـم يكتمـل نمـوه في أرضهـا، ودت مريـم لـو أحـضرت معهـا هديـة لعمهـا، ودت لـو أثقلـت حقيبـة سـفرها بالملابـس الجديـدة الفاخـرة، فـلا تنظـر لهـا العائلـة نظـرة مـن هـم أعـلى، لكـن صفقتهـا مـع ريـكي فشـلت، جلسـت مريـم تنتظـر جيروزاليـم في الصالـة يغلبهـا التوتـر، مـاذا لـو لـم يسـتقبلها عمهـا؟ تـرى أي رد فعـل تتخـذ، لـم تجبرهـا جيروزاليـم يومًـا عـلى ديـن أو زي، تركتهـا لاختيـار قلبهـا، لا إكـراه في الديـن، وكيـف إن راضـت أمهـا وأسـلمت بينمـا قلبهـا لـم يسـلم بعـد، ومـاذا لـو بقيـت جيروزاليـم يهوديـة وفـاءً لذكـرى أورشـا، أو ظلـت مسـيحية حبًّـا في بولـس بينمـا قلبهـا مسـلم بالإسـلام والقرآن، هـي القناعـات والنوايـا وليـس المفـترض والواجـب عـلى أثرهـا تكـون مسـلماتنا العقيديـة في الحيـاة وعليهـا حسـابنا، دينـك هـو مـا صدقـه قلبـك وآمـن بـه عقلـك، وعـلى الله أجرنـا إن كان جنـة أو نـار، فليـس في الديـن مراضـاة لغـير الله ولا محابـاة.

اسـتقلا السـيارة المتجهـة للمنيـا، رحلـة أخـرى قـدر عليهمـا اجتيازهـا، تـرى مـاذا تخـبئ لهمـا الأقـدار فيهـا؟ كان فكـر جيروزاليـم كلـه ينصـب عـلى ذكرياتهـا مـع بولـس، مـا كانـت تظـن أول مـا رأتـه أن مصيرهـا سـتحدده نظـرة أولى مـن عينيـه عـلى إثرهـا صلبـت أمهـا وقتـل أبيهـا، وتركـت أهلهـا ومـن ثـم قتـل بيـد تلـك النظـرة مـن قبـل بنيامـين، ومـن ثـم تحمـل ببـذرة بنيامـين لتنجـب ابنًـا لـه، تهـرب بعدهـا مـن فلسـطين كلهـا يتيمـة هـي وابنتهـا فتحتمـي بملجـأ

مـصري، ومريـم الـتي خرجـت بهـا فلسـطينية لتدخـل بهـا أرض مـصر مصريـة، ومـن ثـم كمـال الرجـل الـذي أحبهـا بـكل مـا أوتي مـن سـعة قلـب، خـدع العالـم كلـه مـن أجلهـا ولـم تسـتطع أن تهبـه هـي مـن شيء سـوى إسـماعيل الابـن الضائـع؛ لتـدور الكـرة بعـد ذلـك وتحـب ابنتهـا ابنًـا لأم أصولهـا يهوديـة، فكـرت إلى أيـن سـتأخذها نظـرة بولـس وإلى مـتى؟ سـتظل تأخذهـا في حـين كان خاطـر مريـم يـدور في فلـك ريـكي، مـا رد فعلـه حـين لا يجدهـا؟ مـا الهواجـس الـتي سـتمر بعقلـه؟ وهـل اسـتطاعت الانتقـام لكبريائهـا؟ الحقيقـة أنهـا كانـت تنتقـم مـن قلبهـا الـذي اسـتطاع ريـكي سـلبه منهـا عـلى غـير رضـا منهـا، فليـس ريـكي مـن تمنـاه عقلهـا لـه.

الطريـق طويلـة والأنفـس معبـأة، وكان الصمـت ثالثهمـا، أغمضـا أعينهمـا متظاهريـن بالنـوم، وصـلا المحافظـة لكـن الطريق لـم ينته بعـد إلى القريـة، اسـتقلا سـيارة أخـرى وصلـت بهمـا للمركـز، ومـن بعـده اسـتقلا سـيارة أجـرة محملـة بالعمـال العائديـن في منتصـف النهـار مـن المركـز لقريتهـم، بـشر تظنهـم شربـوا مـن طـين الأرض حـد الارتـواء مـن كـثر مـا بـدا عليهـم مـن التقـارب مـن الأرض في الوصـف والـروح، كانـت القريـة اسـمها عـلى اسـم أحـد الرهبـان، في مدخلهـا ديـر كبـير بالاسـم ذاتـه، السـواد الأعظـم فيهـا مسـيحيون، معظـم الأراضي مملوكـة لهـم بينمـا اجتمـع المسـلمون وكانـوا قلـة في مـكان واحـد لا يفصلهـم عـن الأغلبيـة فاصـل أو حـدود.

لـم يوجـد في القريـة أحـد لا يعـرف مـكان مـنزل المقـدس يوحنـا، وصلـت جيروزاليـم ومريـم للمـنزل وإن صـح القـول للقـصر، مـنزل فخـم تحوطـه حديقـة غنيـة بالخـيرات والأطيـاب، تقدمـت مريـم تلتفـت إلى المنظـر السـاحر مـن حولهـا، قالـت مريـم في نفسـها:

«هـذا النعيـم كان لأبي نصيـب فيـه، بينمـا الفقـر مـن ضيـق حالـه معنـا يـكاد يقاسـمنا الـرزق»، أمـا جيروزاليـم فلـم يشـغلها سـوى خوفهـا عـلى مريـم أن تتغمـس في نعيـم جنـة الدنيـا تاركـة أرض أمهـا كانـت جيروزاليـم تنـادي مريـم: «مـا زلـت محتلـة ومغتصبـة أنـا يـا مريـم، ومـا زلـت متعلقـة بـك، وأنـت عـني بالتدريـج تنفلتـين، كـوني بجانـبي وإن لـم تسـتطيعي فـك قيـدي»، بينمـا مريـم تسـير بـين الأشـجار مسـحورة تـردد: «نفـسي ... نفـسي ...». تاهـت الابنـة عـن الأم.

خـرج العـم مسـتقبلًا بحفـاوة ابنـة أخيـه، فـاردًا ذراعيـه، صـدم بجيروزاليـم، فأثناهمـا حـال هيئـة جيروزاليـم المهيبـة، تلعثمـت الكلمـات بداخلـه، لكنـه تظاهـر بعـدم الاهتمـام، سـأل عـن مريـم فقالـت لـه جيروزاليـم: «كانـت بـين يـدي، وتاهـت في حديقتـك»، كان يقـف بجانبـه رجـل سـمج الملامـح يحمـل بندقيـة، طلـب منـه العـم البحـث عـن مريـم وطلـب مـن جيروزاليـم الدخـول، كان المـنزل في الداخـل لا يقـل فخامـة عـن الخـارج مـن حيـث البنـاء والأثـاث، صـاح العـم مناديـا: «تريـزا ... تريـزا»، أقبلـت الفتـاة مهرولـة، طلـب منهـا أخـذ الحقيبـة وإرشـاد جيروزاليـم لحجرتهـا في الطابـق العلـوي، بينمـا قـد خصـص هـو لمريـم حجـرة بجانـب حجرتـه في الطابـق السـفلي، لـم تكـن تلـك بدايـة الانفصـال بـين الأم والابنـه؛ لأن مريـم قـد بـدأت في الابتعـاد بالفعـل حـين قـررت الانفصـال، ظانـة أن جيروزاليـم تعيـق مسـتقبلها وتزعـزع اسـتقلاله.

انقـضى اليـوم مـا بـين الترحيـب والتعـرف عـلى الأهـل، الوحيـد الـذي لـم يكـن لـه وجـود بـين أقـارب مريـم هـو مطيـع، لـم تهتـم مريـم، فعاجـلًا أم آجـلًا سـتلتقي بـه، رغـم مـا كان يبـدو عـلى

بطرس ابن عمها الأكبر من ابتهاج وفرحة للقاء بابنة عمه إلا أن ضميره كان يخفي عكس ما أظهر، وهذا ما أظهرته الأيام فيما بعد لمريم، أما نجاة ابنة عمها الوحيدة، فكانت من الطيبة والتسامح لأن تقبل مريم وجيروزاليم بينهم بلا مانع أن يظلا بالمنزل، وقد عرضت بالفعل عليهما هذا الأمر.

في اليوم التالي استيقظت مريم مبكرًا، كان النسيم الصباحي المنكه برائحة الربيع يتسلى بمداعبة خصلات شعر مريم، في خارج المنزل حيث صحن الدار المتسع، وقفت مريم تتأمل المنظر الطبيعي، كان الفناء مربع الشكل، في وسطه يوجد حوض ماء متسع، تحت عريشة عنب تتدلى عناقيدها نحو الحوض، تكاد تلامس صفحة الماء الرائقة، النظر إليها يبهج النفس، أسفل العريشة قبعت مصطبة نصف دائرية أثيرة الفرش يحوط ظهرها وسائد صغيرة في الجانب المقابل للعريشة والمسطبة، وبجانب الحوض يوجد شجرة برتقال حباتها تضاهي كفة اليد، وقد هربت منها أربع حبات تلألأن في حوض الماء كأنهن أحجار كريمة على بساط مرمر، بينما تناثرت أحواض الزهور في الفناء خمائل مخملية اللون، وكان الفناء كله مفترش بالعشب الزمردي الأخضر تسوره أشجار الفاكهة المتشابكة والنخيل الباسط جريده نحو السماء.

في منتصف المصطبة جلس يوحنا، كان من السهل على مريم استشفاف خواطر العم التي استأثرت هي بها. جلست بجانبه باغتها يوحنا بالسؤال: هل تذكرين والدك؟

كيف لا! وهو لم يغب ليلة عنها تنام على ذكرى حكاياته لها، وفي كل موقف وحادث ويوم ميلاد جديد لها يرن الصدى ... لو

كنـت موجـودًا معـي ... أجابـت عمهـا في قـول مختـصر: «نعـم» أعاد العـم نبـش الذكريـات قائـلًا: «صفيـه لي». أغمضـت مريـم عيناهـا: انظـر يـا عمـي حولـك، كان والـدي طويـلًا يقـارب طولـه تلـك النخلة، أقـصر النخـلات في الفنـاء، ومثلهـا كان نحيفًـا، سـتجد أمامـك نخلـة أخـرى جنـت تمـرًا يميـل لونـه للعسـلي والبـني، ذلـك اللـون الـذي خضـب عيونـه، بـين الـورود أبحـث عـن وردة حمـراء قانيـة، اختلـط لونهـا بلـون حبـات القمـح سـتعطيك لـون أبي القمحـي المتـشرب بالحمـرة، كان حليـق الـرأس تـرى وجهـه إن نظـرت إليـه مثـل ميـاه هـذا الحـوض الصـافي، أخـضر قلبـه مثـل العشـب، ونقيـة نفسـه مثـل هـذا النسـيم». تأثـر يوحنـا بوصـف مريـم وصمـت قليـلًا قبـل أن يهـز الأرض صـوت خـوار ثـور طريـد دخـل الفنـاء يـدور حولـه، يجـري مـن ورائـه شـاب صنديـد، متوسـط القامـة ربـع، قـاسي الملامـح والنظـرات والتـصرف، قـوي البنيـة يكشـف عـن سـاعدين مفتـولي العضـلات، عريـض الكتفـين والمنكبـين، تهفـو منـه رائحـة الطـين، ذلـك الـتراب الأسـود الممـزوج بمـاء النيـل، أمسـك الشـاب الصنديـد الثـور بحبـل مـن رقبتـه يجـره، فسـحب الثـور هـو الآخـر الحبـل ليرجـع الشـاب إحـكام مسـكه بقبضـة أشـد حـتى اسـتطاع إرغامـه عـلى دخـول الحظـيرة، خـرج الشـاب مـن الحظـيرة خـروج الظافريـن يتمتـم بسـبِّ الثـور، أقبلـت نحـوه فتـاة بـزي قـروي تحمل قلـة مـاء ناولتـه إياهـا، أزاح الشـاب القلـة بشـكل شـبه عمـودي لفمـه وهـو رافـع رأسـه يتجـرع مـا بهـا مـن مـاء مـرة واحـدة.

قبـل أن تسـأل مريـم قـال لهـا عمهـا: «هـذا ابـني الأصغـر مطيع»، لـم تريـه أمـس، كان يسـقي الـزرع وبـات في الحقـل»، لفـت نظـر مريـم الفتـاة الـتي مـا أن رأهـا مطيـع حـتى أعيـد تشـكيل تقاسـيم

وجهـه، انبسـطت أساريره، وتبسـم فمـه حـتى بانـت نواجـزه، قالـت مريـم قاصـدة الفتـاة: «وتلـك». رد العـم: «هـذه تريـزا»، فتـاه يتيمـة تربـت منـذ أن كانـت صغـيرة في مـنزلي، المسـكينة فقـدت والديهـا مـرة واحـدة في حـادث سـيارة، والدهـا مـن الفـرع الفقـير لعائلتنـا، أتينـا بهـا للعيـش معنـا وهـي مـن حسـن أدبهـا تسـاعدنا في المـنزل». أقبـل مطيـع نحوهمـا يجـر رجليـه جـرًّا كأنهمـا مغروسـتين في الرمـال، وجـه تحيـة بـاردة لمريـم مسـتكثرًا مـد يـده نحوهـا وأسرع للداخـل، حـاول العـم تغطيـة أسـلوب ابنـه الفـج مـع ابنـة عمـه متعلـلًا بإرهاقـه: «كان الله بعونـه، طـوال اليـوم كان يسـقي الـزرع، رغـم كـثرة العاملـين إلا أنـه يـصر عـلى أن يخـدم الأرض بيـده، صعـب المـراس، كان عـليَّ تسـميته عـاصي بـدلًا مـن مطيـع»، بـدأت مريـم تقلـق، إن لـم تسـتحوذ عـلى مطيـع فلـن تظفـر بـشيء مـن ثـروة عمهـا، ولـن يفرقهـا شيء عـن تريـزا اليتيمـة المشـفق عليهـا فشـحنت نفسـها بكلمـات داخليـة: «يبـدو أن مطيـع يلـزم مـني الكثـير مـن العنـاء لترويضـه واسـتمالته، ثـور قـروي طريـد»، بينمـا همـا جالسـان إذا بصـوت آت مـن بعيـد ينـادي:

- يا مقدس ... يا مقدس.

كان أحـد المزارعـين قـد أتى يشـكو مـن اختـلاف بينـه وبـين جـاره عـلى حـدود الأرض، ويطعـن في ملكيـة جـاره لعـشرة أسـهم يدعـي أنهـم أخـذوا منـه، اسـتطاع العـم حـل الـنزاع بـأن يعطـي المـزارع عوضًـا عنهـم عـشرة أسـهم مـن ناحيـة أرضـه، رحـل المـزارع غـير شـاكر ولا راض، لكـن لا بـأس حيـث إنـه أخـذ عـشرة أسـهم سـتضاف لأرضـه بـلا كلـل، تعجبـت مريـم كل العجـب، كانـت ملامـح الدهشـة تعـم وجههـا تسـأل عمهـا: لمـا؟ اعتـدل العـم في جلسـته واضعًـا

كفيـه عـلى المصطبـة مطأطئًـا وجهـه نحـو الأرض قائـلًا لهـا:

- اسـمعي يـا مريـم ... حـين طلبتـك قديمًـا بـدون جيروزاليـم لـم أرد التعصـب أو الإهانـة، أنـا فقـط أحافـظ عـلى شـكل القريـة منعًـا للمشـاكل والفـتن ... تعلمـين ... هـذه القريـة أغلبيتهـا مسـيحية وأقليتهـا مسـلمة، كنـا نعيـش في توافـق ووئـام، بعـض مـن شـباب المسـلمين سـافر، أو بالآحـرى هاجـر، لـم نعـد نسـمع عنهـم شـيئًا، حـتى أطلـوا علينـا، وكانـت طلتهـم نذيـر شـؤم، اندسـت أفكارهـم بـين الشـباب، أنتـم أقليـة، أنتـم مضطهـدون، يملكـون ديـرًا وكنيسـتين كبيرتـين، ولا تملكـون سـوى مسـجدين، يملكـون الأرض وأنتـم تخدمونهـم ... طالبـوا بحقوقكـم، عاندوهـم ومـن ثـم انفصلـوا عنهـم ... وعمـت الفتنـة والكراهيـة والأحقـاد، كان لابـد مـن احتـواء الموقـف، فجلسـت مـع القساوسـة وأعيـان البلـدة وأمرنـا ببنـاء مسـجد يجانـب الديـر وكل كنيسـة، وفي كل قطعـة أرض زاويـة، احترمنـا حرياتهـم وبيوتهـم، وأراضيهـم محميـة بشـباب مـن شـبابنا، أنصفناهـم وإن كانـوا عـلى باطـل، والنتيجـة أخمدنـا الفـتن ودبـت الغـيرة مـن الأغلبيـة عـلى الأقليـة بدعـوى تدليلهـم، الأقليـة يـا مريـم مـا دامـت تمكنـت منهـا تلـك النظـرة المسـتضعفة لنفسـها لن يرضيهـم شيء، مـن ابتـدع كلمـة أقليـة هـو ذاتـه مـن أشـعل الفـتن، ومـن قبلهـا كنـا نسـيج واحـد قـوي، ولـو يعلمـون أنهـم درع القريـة لمـا اشـتعلت الأحقـاد، القريـة يـا مريـم تسـتند عليهـم وان اسـتقلوا لطمعـت فينـا بـاقي القـرى المجـاورة الـتي تنتظـر لحظـة الانفصـال ... صاحـب الشـكوى اسـمه عـلي والمشـكو منـه اسـمه جرجـس، ولـو أنصفـت جرجـس عـلى عـلي لقيـل إني ظالـم أميـل نحـو أهـلي وعشـيرتي، ولـو أنصفـت المسـلم لقـال الأعـادي إن القريـة تأسـلمت

وأن المقـدس يوحنـا أسـلم ولاشـتعلت الفتنـة بيـني وبـين أهـلي؛ لـذا اسـتقطعت قطعـة الأرض مـن أرضي ... إن الأعـادي يـا مريـم لنـا بالمرصـاد وإن لـم نتحـد لهلكنـا جميعًـا ... علينـا جميعًـا أن نضحـي.

عـلى الغـذاء تعمـدت مريـم الجلـوس أمـام مطيـع لعلـه ينتبـه لوجودهـا، لـم ينتبـه أحـد للمصيـدة الـتي كانـت مريـم تغزلهـا متحفـزة لاصطيـاد مطيـع سـوى جيروزاليـم، الـتي اسـتبصرت مـا تخطـط لـه ابنتهـا رغمًـا عـن قلبهـا وعـن مطيـع ذات نفسـه الـذي كان يتحـاشى النظـر تجـاه مريـم ممـرًا اللقيمـات عـلى عجـل لفمـه كي ينهـي غذائـه سريعًـا، لـم تشـأ مريـم في قـرارة نفسـها أن تعقـد مقارنـة حاسـمة بـين مطيـع وريـكي، فـالأول في نظرهـا لـم يـزد عـن ذلـك الثـور الـذي كان يصارعـه إلا درجـة أو درجتـين تسـمح لـه بالمـشي عـلى قدميـه وتنـاول الطعـام بيديـه، أمـا ريـكي فقـد تخطـى حـدوده البشريـة بمراحـل، ورغـم هـذا عقـدت مقارنـة أخـرى أسـندتها لنفسـها الطامحـة ... وفـق نظريـة هـذا يملـك إذا لـه حـق الامتـلاك.

عـلى طاولـة الطعـام كان بطـرس يجلـس بجانـب والـده عاقـد الجبـين، بينمـا كان الوالـد يحـادث ابنـة أخيـه بحديـث خفيـف تتخلله الطرائـف والنـكات، أمـا نجـاة فكانـت تمـرر الطعـام لجيروزاليـم ومريـم، تكومـه أمامهمـا بعفويـة وكـرم القروييـن تسـتحلفهم أكلـه، جلسـت زوجـة بطـرس بجانبـه منشـغلة بإطعـام الأطفـال تتصنـع الاهتمـام لمـا يقولـه الوالـد، تضحـك إذا مـا ضحـك الجميـع، وتصمـت إذا مـا صمتـوا، وكانـت تريـزا تجلـس في أحـد الزوايـا لا يـكاد أحـد أن يلحـظ وجودهـا معهـم معهـم، أنهـى مطيـع طعامـه سريعًـا تعقبتـه عينـا مريـم حـتى خروجـه مـن المـنزل، أكملـت

طعامهـا عـلى مهـل مظهـرة سـعادة مبالـغ فيهـا تجـاه أحاديـث عمهـا، خرجـت بعدهـا مريـم تبحـث عـن مطيـع، الجـو كان يتلظـى والشـمس عموديـة وسـط السـماء، وكان ابـن العـم جالسًـا تحـت عريشـة العنـب فـوق حصـير يـدوي الصنـع، يـبرم بـين يديـه حلـف نخيـل راصًّـا إياهـا بجانبـه واحـدة واحـدة.

جلست مريم أمامه وبصوت ناعم متمايل قالت له:

- ماذا تفعل يا ابن العم الغالي؟

قـد تفهـم العبـارة عـلى أنهـا لعمهـا الغـالي، وقـد تفهـم عـلى أنهـا تقصـد مطيعًـا واصفـة إيـاه بالغـالي، وفي كلا الحالتـين لـم يـدر مطيـع حـتى وجهـه ناحيتهـا مجيبًـا في حـدة.

- حبل لذلك الثور الأرعن.

أخـذت مريـم شـعرها بيدهـا ململمـة إيـاه عـلى جانـب واحـد كاشـفة عـن ذراعهـا وكتفهـا العاريـان، قالـت لـه وهـي تخلـل أصابعها بـين خصـلات شـعرها:

- ما رأيك في ابنة عمك؟

نظـر مطيـع نحوهـا بطـرف العـين في نظـرة خاطفـة ثـم قـال وهـو يجمـع الحبـال الصغـيرة بـين يديـه:

- جميلة.

لـم ترضهـا الإجابـة المختـصرة، فلـم تعـط وصـف جمالهـا حقـه، صمتـت قليـلًا ثـم قالـت متسـائلة:

- وتريزا؟

هنـا ثبتـت يـدا مطيـع عـن العمـل، وتحركـت ملامـح وجهـه باسـمة وقـال في هـدوء رائـق:

- فيها لا يغلو الحديث، هي الأجمل بين الجميلات.

اشـتعلت النـيران في قلـب مريـم، لـم تعهـد أن يمـدح أحـد غيرهـا في وجودهـا، حاولـت جاهـدة إخمـاد تلـك النـار، فغـيرت الحديـث:

- لأي مرحلة وصلت في التعليم يا مطيع؟

ضحك ساخرًا وقال:

- ومــن قــال لــك أني تعلمــت مــن الأســاس، كنــت أهــرب مــن المدرسـة لـلأرض ومـن الكتـاب للمنجـل، لـم أجـد في التعليـم نفـع لي مـدام مصـيري لـلأرض، وهــل سـيحرثها حــرف الألــف؟! وهــل سيسـقيها حــرف البـاء؟! أم تــرى سـيزرعها حــرف الجيــم ويجــني ثمارهـا بـاقي الحـروف؟!

لا سـبيل مـن إيجـاد مريـم لمدخـل تدخـل بـه لمطيـع، عليهـا صنـع حبـال أخـرى كمـا يصنـع هـو لثـوره، قـررت مواجهتـه:

- هل تعلم؟ حين زارانا عمي طلب يدي لك.

ضحك مطيع ضحكة مكتومة وقال لمريم:

- هاتِ يديك.

أمسـك مطيـع يديهـا وأخـذ يقلبهمـا ذات اليمـين وذات الشـمال ثـم تركهمـا مناديًـا عـلى تريـزا، و قبـل وصـول تريـزا اتجـه لمريـم وقـال لهـا:

- يديـك ناعمـة رقيقـة لا تنفـع لشـد الحبـال معـي، أنـا أحتـاج ليـد خشـنة، قويـة، عتَّقهـا العمـل.

أقبلـت تريـزا، وكانـت أول مـره تنتبـه لهـا مريـم، فتـاة تقاربهـا في السـن، ذات وجـه مسـتدير وردي اللـون عـلى عكـس مـا كانـت تظـن عـن لـون بـشرة أهـل الصعيـد، بعيـون تشـبه عيـون الغـزال عسـليتي

اللـون، ممتلئـة الخديـن، رقيقـة الشـفتين، ذات أنـف أفطـس، عريضـة الجبهـة، تفـرق شـعرها بمكابـس شـعر ملونـة، تظهـر مـن منديـل شـفاف عصبتـه عـلى رأسـها، مزينـة حوافـه بالترتـر والخـرز الملـون، وقـد جمعتهـم في ربطـة عـلى جانـب صدغهـا تدلـت منهـا عناقيـد الخـرز، ممتلئـة الجسـد، تلبـس ثوبًـا ملونًـا بـوردات كبـيره طبعـت عليـه، مكشـكش مـن الصـدر واسـع أسـفله ومـا بينهمـا حـدد خصرهـا بحـزام ضيـق في المنتصـف، فصـار خصرهـا كحلقـة صغـيرة تفصـل نصفيهـا، تتراقـص حـول خصرهـا ضفيرتاهـا الكثيفتـان، يتدلى الثـوب وحـتى منتصـف أرجلهـا الملتفـة بـلا ثنايـا والمزينـة بخلخـال فـضي ومـن أسـفله ارتـدت حـذاء بلاسـتيكي رخيـص شـفاف اللـون كأنـه البلـور في قدميهـا.

جلسـت تريـزا أمـام مطيـع تلـف الحبـال معـه، لـم تجـد مريـم مكانًـا لهـا بينهمـا، فخرجـت مـن صـورة لا يتسـع إطارهـا لثلاثـة، كانـت جيروزاليـم تقـف في الشرفـة تتابـع مريـم وتـرى خطواتهـا الثابتـة المتزنـة نحـو حفـرة حفرتهـا لنفسـها، أمـا مريـم فقـد أيقنـت أن تريـزا هـي عائقهـا الوحيـد، كيـف لهـا أن تجعـل مطيعًـا ينصـاع لهـا؟ كيـف تقاتـل عـلى أرض العـدو؟ إذن عليهـا سـحب الغنيمـة لأرضهـا في البدايـة.

مـضى يومـان، بـدأ ينسـحب سـحر المـكان بالتدريـج أمـام مريـم، مـا عـاد النظـر للطبيعـة يجذبهـا، مـا عـادت تسـتطيع اصطنـاع الضحـكات أمـام مواقـف عمهـا ونكاتـه، كان قلبهـا كـدوار شـمس يتجـه تلقائيًّـا تجـاه ريـكي، حاولـت مريـم قمـع حبهـا لريـكي وإجهـاض تعلقهـا بـه ولكـن دون جـدوى؛ لهـذا أخـذت قرارهـا ببـتر قلبهـا للأبـد. ذهبـت لحجـرة عمهـا، مـا كانـت جيروزاليـم لتـترك

مريـم، كانـت تراقـب كل تحركاتهـا وتصرفاتهـا عـن بعـد، وبشـكل لا إرادي منهـا، وضعـت جيروزاليـم أذنيهـا عـلى البـاب تسـترق السـمع، قالـت مريـم في صـوت مدمـع خـادع:

- عمـي منـذ أن عرضـت عـليَّ الـزواج بابـن عمـي مطيـع تعلقـت بـه، كنـت أظـن أني قـادرة عـلى غـرس بـذرة محبـتي لـه في قلبـه، لكـني وجـدت في بيتـك شـجرة ضاربـة جذورهـا في قلبـه، ممتـدة فروعهـا لشراييـنـه تدعـى تريـزا.

قال العم بصوت غاضب:

- مريـم لمطيـع، ومطيـع لمريـم، خـذي يـا مريـم، خـذي كل هذه النقـود، اذهـبي بمطيـع لأي مـكان غـير القريـة، اشـتر لـه ملابـس حديثـة الطـراز، أريـه أماكـن غـير الأرض، أشـغليه بأمـور غـير الأرض وعمـل الفلاحـين، أشـغلي عقلـه عـن أي شيء يعلقـه بتريـزا، هـذا لـو تعلمـين صعـب عـليَّ وعـلى الأرض الـتي أثمـرت بـين يديـه، و شربـت مـن عرقـه، لكـن لوالـدك عـليَّ حـق سـأعطيه لـه في شـخصك يـا مريـم، لـن أجعـل قلبـك ينفطـر يـا غاليـتي.

كانـت سـعادتها لا توصـف، فقـد حقـق لهـا العـم مطالبهـا قبـل أن تنطـق بهـا، خرجـت مريـم مزهـوة بانتصارهـا، فخـورة بإنجازهـا، تتمايـل عـلى الجانبـين تدنـدن لحنًـا مـا، تلقفتهـا جيروزاليـم عنـد بـاب حجرتهـا أمسـكتها مـن ذراعهـا بعنـف وجرتهـا خلفهـا، دفعتهـا للداخـل وأغلقـت البـاب، وقعـت مريـم أرضًـا لـم تأخـذ جيروزاليـم بيدهـا بـل تركتهـا إمعاننـا في تعنيفهـا:

- لمـا أنـت مـصرة عـلى قتـل نفسـك، زواجـك مـن مطيـع هـو الانتحـار بعينـه، مـاذا لـو لـم يكـن ابـن عمـك غـني؟

سـاعدت مريـم نفسـها في النهـوض، ثـم قالـت لأمهـا في لهجـة

تحـدي:

ومـاذا لـو لـم تكـن جيروزاليـم أمـي؟ ... مـاذا لـو لـم يذبـح أبي أمـام عيـني بسـببك؟ لتنجبـين لي أخًـا مـن قاتـل أبي، وتصبحـين بعدهـا عشـيقة لهـذا الشـخص، وأعيـش يتيمـة في ملجـأ، ومـن ثـم تصبحـين زوجـة لكمـال لتهبينـني أخـا ثالثًـا أتعلـق بـه، ولأنـني مريـم ابنـة جيروزاليـم يخطـف أخـي مـن أمامـي، ومـن ثـم تعطيـني الأقدار كـنزًا تهبـه لي بـين يـدي، هـل تعتقديـن أني سـأتركه بسـببك أيضًـا، قـد لا يناسـبني مطيـع لكـن حتمًـا أموالـه تليـق بي وأرى نفـسي أسـتحقها.

نظرت جيروزاليم في عيني مريم وقالت:

- ومـاذا لـو لـم أقابـل أبـاكِ مـن الأسـاس ... لمـا صلبـت أمـي وقتـل أبي وهجـرت مـن أرضي واغتصبـت مـن قاتـل زوجـي، وتزوجـت كمـال رغـم إرادتي والأهـم كنـت لـم أنجبـك يـا مريـم.

ضحكت مريم بإزدراء وقالت:

- لـو لـم تقابـلي أبي لظللـتِ يهوديـة إسرائليـة خائنـة لـلأرض، تخدمـين أسـيادك مـن الأمريـكان والأوروبيـين، أبي مـن حـررك، ومـن أجلـك قُتـل وبسـببك تلفـت خلايـا عقـلي، هـل أيقنـتِ الآن مـن هـو هـم الآخـر وعبئـه، أنـت همـي الثقيـل فـوق عمـري كلـه، حـاولي رجـاءً ألَّا تثقـلي عـليَّ بأكـثر مـن ذلـك يـا جيروزاليـم.

ثم تركتها وغربت، كشمس ودعت جيروزاليم للأبد.

-١٢-

في جهـة أخـرى مـن العالـم كان يقبـع ثلثـا قلـب جيروزاليـم، جيكـوب وإسـماعيل، أمـا بنيامـين فقـد شـب فيمـا سـمي بإسرائيـل، في مـنزل بنيامـين الـذي تـزوج بعـد رحيـل جيروزاليـم بشـهر واحـد مـن ابنـة أحـد أعضـاء حـزب الليكـود الإسرائيـلي، جلـب بنيامـين عـدة مربيـات لجيكـوب عوضًـا عـن جيروزاليـم، وبعـد إتمامـه أربـع سـنوات بعـث بـه إلى أمريـكا حـتى يتتلمـذ منـذ البدايـة عـلى أيـدي أمريكيـة، لـم يشـعر جيكـوب بانتقـاص لبعـد جيروزاليـم عنـه، عـلى عكـس إسـماعيل الـذي عانـت نفسـيته أشـد العنـاء فاقـدًا شـهيته للطعـام واللعـب، لا تـراه ضمـن أقرانـه إلا وخالجـك شـعور أنـه بالفعـل يتيـم بالرغـم مـن أن عمـاد آخـاه الأكـبر قـد أولاه اهتمامًـا كبـيرًا تـاركًا العـداوة بينـه وبـين جيروزاليـم، فأوسـطه بـين أبنائـه غـير مفـرق بينهـم في شيء. بعـد عامـين رجـع عمـاد وأسرتـه مـن الخليـج مغـيرًا محـل إقامتـه نهائيًّـا إلى القاهـرة.

رحلـت مريـم ومطيـع للقاهـرة بينمـا سـافرت جيروزاليم للسـويس، رحـل مطيـع معهـا إرضـاءً لوالـده ليـس أكـثر، بـل وكان الأمـر مفاجئًـا لـه، حـتى إنـه لـم يسـتطع توديـع تريـزا؛ لأن والـده بعـث بهـا عنـد خالـة مطيـع كي تسـاعدها في الإعـداد لعـرس ابنهـا، والحقيقـة أن العـم يوحنـا قبيـل سـفر مطيـع ومريـم بعـث لتريـزا أن تأتيـه في حجـرة الضيـوف وأغلـق البـاب ودار هـذا الحـوار بينهمـا:

- تعالي واجلسي بجانبي يا بنيتي.

جلسـت الفتـاة بجانـب يوحنـا الـذي لطالمـا اعتبرتـه أباهـا الثـاني

بعـد وفـاة والدهـا.

- أنا أعلم كل شيء بالنسبة لما يضمره قلبك تجاه مطيع.

احمر وجه الفتاة خجلًا وهمت بالرحيل.

- انتظـري يـا تريـزا، إني لا أريـد لـك انكسـار الخاطـر ووجـع القلـب، هنـاك خـبر قـد تتأجـج بـه نفسـك وتختنـق بـه آمالـك إذا سـمعتيه، إن مطيـع سـيتزوج مـن مريـم ربمـا الشـهر القـادم؛ لـذا وجـب عـليَّ مـن بـاب الأبـوة أن لا أضعـك في موقـف كهـذا، وأن أبعـدك تمامًـا عمـا ينغـص حياتـك، سـتتزوجين قبـل زواج مطيـع ومريـم، وعليـك أن توافقـي.

لـم تسـتطع تريـزا مغالبـة دموعهـا أو البـوح ليوحنـا بمـا وعدهـا بـه مطيـع؛ إذ وعدهـا بأنـه سـيخطبها قبـل تنويـر محصـول القطـن، وسـيتزوجها بعـد جنيـه.

- تريـزا، إن قلـوب الشـباب متقلبـة، وقـد خانتهـا فراسـتها مـن ظنـت غـير ذلـك، عليـك أن تجنـبي نفسـك مـن الوقـوع في موقـف تجديـن نفسـك فيـه وجهًـا لوجـه أمـام مطيـع، وقـد تشـبثت بذراعـه فتـاة غـيرك، بينمـا تحملـين سـلة الـورد تنثريـن منهـا فـوق رأسـيهما مباركـة مهنئـة.

بنبرة سريعة قالت تريزا:

- رجاءً يا عمي اجعلني اترك المنزل اليوم لا بل الآن.

ربت يوحنا على ظهر تريزا وبصوت هادئ:

- فتاة طيبة.

في القاهـرة اشـترت مريـم لمطيـع ملابـس جديـدة غـير الـتي اعتـاد عليهـا، كان الجلبـاب أكـثر رحابـة وراحـة بالنسـبة لـه مثـل الأرض

الواسعة، الجلباب حرية بينما القميص والبنطال كانا بالنسبة له لا يختلفان عن ذلك الحبل الذي كان يصنعه لثوره، الزي الجديد قيود حول عنقه وجسده كله، لم يتكيف معه ولم تعجبه هيئته التي ألبستها له مريم، ظنت مريم أنه يمكن شراء قلب مطيع بالمدنية الحديثة والموضة، كانت غائبة عن حقيقة أن ترويض قلب قروي معلق بفتاة أخرى يكاد يقارب المستحيل، ما زالت مريم ترى وجه تريزا في حدقتي مطيع، مطبوع فيهما كوشم دق بعينيه لا يمحوه حتى فقدان النظر.

أخذته للعالم الآخر عالم مريم في نفس ذات الكازينو الذي اعتدات التواجد فيه، دخلت وفي يدها مطيع، بشكل عفوي ظلت تبحث عن ريكي، كان هناك تلتف حوله الفتيات شاردًا بعيدًا عنهن اقتنصتها الغيرة لثوانٍ لكن سرعان ما تدارك عقلها الموقف غاضًّا الطرف عنه، لم تشأ مريم التقدم نحو ريكي، كي لا يظهر عليها أنها تلاحقه، وليلاحقها هو إذن إن أراد الحديث معها، وقفت فوق حلبة الرقص الدوارة المستديرة تعلم مطيع الرقص، كان من السهل العثور عليها، عطر روحها الخاص كان دليل ريكي عليها، الحلبة تدور ما أن يهنأ ببعض من نورها حتى تضيع ثانية، قرر استلابها من بين الراقصين، ما أن تحركت باتجاهه حتى سحبها بشدة في حركة خاطفة كاد يوقعها بها، لكن يده الثانية كانت أحن من الأولى فتلقفتها، فقالت له:

- ماذا تريد مني يا ريكي؟ اتركني وشأني.

قالت هذه الكلمات وما تزال متشبثة بذراعيه، ولو كانت حقًّا تود الابتعاد عنه لافلتت نفسها منه، قال لها مبرئًا نفسه:

- مريم حين تركتك بالمنزل، لم يكن بجيبي قرش واحد

وكنت وعدتك بدفع المال، يومها تعاقدت على عمل مع أكثر من شخص لآخذ العربون من اثنين منهم لإعطائهم دروس في اللغة الروسية، وآخر كنت سأحيي حفل ميلاده، واثنين آخرين طلبوا مني ترجمة وكتابة بعض النصوص، ما كنت أتخيل أني أقوم بكل هذا العمل دفعة واحدة إلا من أجلك، لم تكتمل معي المائتا جنيه، فرجعت لأخذ أيٍّ من مقتنيات المنزل لرهنها فلم أجدك، مريم، أنا أطلب يدك، سنعمر معًا الأرض، سنزرع جزء والجزء الآخر سنقيم عليه مشغلًا لتديريه أنت، فعلًا أنا أحتاجك لنفسي ولإعمار الأرض، سأبيع هذا المنزل قبر التاريخ الذي دفنت فيه حاضري لأبني مستقبلي معك.

لم تؤثر كلمات ريكي في مريم، أشارت بيدها لمطيع التائه بين أجساد البشر المتمايلة، والذي يضع يديه على أذنيه متحاشيًا صخب العالم وضوضائه، وقالت لمن هي بين يديه:

- هذا هو ابن عمي مطيع، يملك أرضًا هو الآخر مثلك، لكنها جاهزة لن أفني شبابي وعمري فيها، وقد طلب يدي أيضا وأنا وافقت.

وقف ريكي أما تلك الكلمات كطائر قصًّا جناحاه، حلم بالطيران والارتفاع معها لكنها تركته ليحيا بقية حياته على الأرض.

مر أسبوع على وجود مريم ومطيع في القاهرة، قرر مطيع الرجوع لبلدته، وفي الكازينو حين كانت مريم جالسة بجانبه تحاول إثارة غيرة ريكي الذي كان جالسًا على غير عادته وحيدًا شارد الذهن متسمرة عيناه في التحديق بمريم ومطيع، قال مطيع:

- هذا الخنزير لماذا ينظر إلينا هكذا؟ هل أذهب لأضربه؟ بل

سـأذهب لأضربه.

هـم مطيـع بالنهـوض فأمسـكت مريـم بيـده وجذبتـه بعنـف لمقعـده وقالـت:

- ليس خنزيرًا أيها الثور الأرعن.

- أنـت إذا تهينـني، خـذي هـذه هـي رابطـة العنـق والجاكـت والقميـص والبنطـال والحـذاء اللامـع؛ كل الملابـس الـتي جعلتـك تظنـين أني أصبحـت كهـؤلاء حـتى أسـمح لعيـون لرجـل غريـب أن تثقـب امـرأة تتبعـني.

كان مطيـع يقـول مـا يقولـه وهـو يخلـع ملابسـه قطعـة تلـو الأخـرى وسـط ضحـكات الجميـع وازدرائهـم، ولـم يكـن مـن مريـم إلا لملمـة ملابسـه والخجـل يـأكل مـن وجههـا أثـر الموقـف المحـرج الـذي وُضعـت فيـه مـن قبـل مطيـع، أخـيرًا أصبحـا خـارج الكازينـو، وتحـت ضغـط وتوسـلات مريـم ارتـدى ملابسـه، كان مطيـع ينـوي الرحيـل، لكـن مريـم طلبـت منـه إيصالهـا لمنزلهـا محاولـةً كسـب أكـبر وقـت معـه لعـل وعـسى تنجـح في اسـتمالته، رجعَـا للسـويس، ومـا أن وصـلَا حـتى جـاءت الأخبـار مـن القريـة بخـبر وفـاة العـم يوحنـا، انهـارت طموحـات مريـم فـوق رأسـها، مـات مـن كان سـيصل بهـا لمبتغاهـا ظانـة أن تريـزا انتـصرت.

توجـه الجميـع للقريـة متشـحين بالسـواد، خيـم اللـون الأسـود القريـة حـدادًا عـلى العـم يوحنـا، أتـت المعـددات مـن كل صـوب وحـدب لتشـييع جنـازة الميـت الـثري، وقـد زادوا في نحيبهـم بمـا يليـق بمقـام الميـت، منهـن مـن أخـذت تعـدد وأخـرى تنـوح بصوتهـا، ومنهـن مـن اكتسـت بالطـين، غطـي الأوتجـراف والراديـو بمـلاءة سـوداء، جلسـت جيروزاليـم واضعـة يدهـا عـلى خدهـا

صامتـة، بينمـا وضعـت مريـم غلالـة سـوداء مخبئـة وجههـا بهـا، تتلفت بعينيها باحثـة عـن تريـزا الـتي لـم يكـن لهـا أثـر لا بـين أهـل الـدار أو الخـدم وأحيانًـا تغلبهـا الحـسرة عـلى نفسـها، فتبـكِ عـلى ما خططـت لـه وضـاع، لكنهـا قـررت بداخـل نفسـها موازيـة نيـة أخـرى أو لنقـل خطـة موازيـة أخـرى، فحدثـت نفسـها قائلـة: «سـأرحل بعـد أسـبوع الحـداد الأول، وسـأرجع لريـكي، سـأبكِ أسـفل قدميـه راكعـة، وسـيقبل اعتـذاري لـن أهـون عليـه، وسيشـفع حبـه لي عنـده، لـن أرضى بالخسـارة أبـدًا، هنـاك دومًـا مـا يمكـن كسـبه لـن أخـسر»، شـعرت مريـم براحـة وأن وطيـس المشـاحنات بداخلهـا قـد هـدأ مـا أن فكـرت في تلـك الفكـرة، حـتى أنهـا لـم تسـتطع منـع نفسـها مـن الابتسـام والضحـك بصـوت عـالٍ وسـط مـا كانـت تدمـع عيناهـا مختلطًـا بكاؤهـا بضحكاتهـا، فاعتقـدت النسـوة حولهـا أن مـا يصـدر مـن مريـم إنمـا هـو مـس مـن جنـون.

بعـد الثلاثـة أيـام الأولى للعـزاء اتجـه بطـرس نحـو مريـم وطلبهـا في اجتمـاع يضـم الإخـوة الثلاثـة ومعهـم مريـم بـدون وجـود جيروزاليـم، وكان طلبـه عـلى مـرأى ومسـمع مـن جيروزاليـم، ممـا أثـار ذلـك حفيظـة مريـم لكـن جيروزاليـم كانـت أزكى مـن أن تقـع في الفـخ.

اقنعـت مريـم أن هـذا أحـد حقوقهـم في العائلـة وإن كانـت هـي زوجـة الأخ، لكنهـا تظـل غريبـة عنهـم.

في حجـرة يوحنـا العـم المتـوفى التـف مطيـع ونجـاة ومريـم حـول بطـرس، الـذي فتـح وصيـة الأب أمامهـم، لـم تكـن الوصيـة إلا حرمـان لمريـم وإغـداق في نفـس الوقـت، أوصى الأب بـأن نصـف الـثروة سـتئول لمطيـع بـشرط أن يـتزوج مريـم وإن رفـض يذهـب

نصيبه لبطرس، بالنسبة لبطرس ونجاة فقد أوصى لبطرس النصف الثاني كله بشرط تكفله برعاية أخته وجعل لها معاشًا شهريًّا يزداد سنويًّا بنسبة محددة، وذلك لأنها كانت أرملة بلا أبناء، وقف مطيع رافضًا وصية والده قائلًا إنه سيضحي بما يملك لقاء زواجه من تريزا، طلب بطرس من مطيع أن يهدأ ويجلس، لأنه لا فائدة من تركه إرثه حيث إن تريزا قد تزوجت الأسبوع السابق، ولا علم لأحد بمن تزوجت؟ أو أين؟ سوى الأب المتوفى.

ثارت ثورة مطيع أخذ يطرق بيديه فوق رأسه لاعنًا الحي والميت وهو يلقي بقطع الأثاث ويشق ملابسه، كان بالفعل كثور شرس قد أفلت من قيده، أخذوا إخوته في تهدئته بينما كانت مريم تجلس لازمة الصمت في سكينة تبتسم من وراء وجه الحزن الذي ارتدته لأجل عمها المتوفى، خرجت مريم من حجرة عمها غير آسفة لما خلفته وراءها من حطام قلبي مطيع وريكي، علمت جيروزاليم بما أوصى به العم، لم يكن بيدها أي شيء حيال طموح ابنتها العاصف، أرادت مريم أخذ السعادة عنوة ظانة أنها تكمن في المال، خططت الأقدار وقسمتها كما ادعت لنفسها، بضع أيام وينسى مطيع تريزا ومن بعدها يصبح خاتم في يدها ستجعله يبيع الأرض وكل أملاكه في القرية لتبدأ حياة أخرى في المدينة ستكون ما ظن أصدقائها فيها الفتاة الثرية، المدللة، التي تستطيع شراء أي شيء وكل شيء، هكذا خيل لها عقلها وزينت لها نفسها.

رجعت مريم للقاهرة لشراء مستلزمات العرس مع جيروزاليم في تلك المرة؛ لأن الأم لم تشأ إيضاح تحرر الابنة وتمردها أمام العائلة المحافظة في كونها فتاة تستطيع السفر والتحرك

بمفردهـا، كانـت مريـم رافضـة الفكـرة وأثنـاء اسـتعداها للسـفر دار ذلـك الحـوار بينهمـا:

- سأسافر معك يا مريم.

- منذ متى تسافرين معي؟ وكأنك تعرفين المدينة أكثر مني.

- اسـمعي يـا مريـم إن أردتِ لعـب تلـك اللعبـة عـلى نفسـك ومطيـع فعـلى الأقـل عليـك إجـادة لعبهـا، أنـت سـتكونين فـردًا مـن عائلـة صعيديـة محافظـة هـل تظنـين أن مطيـع سـيترك لـك الحبـل عـلى غاربـه مثـلي.

- لما لا تريحين عقلك بالكف عن الانشغال بي؟

- ولما أنت مصممة على معاملتي بتلك الطريقة يا مريم؟

- تتحدثـين وكأنـك قديسـة، ألـم تخدعـي قلبـك مـن قبـل؟ لمـاذا سـلمتِ نفسـك لقاتـل أبي؟ لمـاذا؟ أليـس مـن أجـل المـال أيضًـا ألـم يغـرك بهـرج الحيـاة مثـلي.

- بل من أجلك يا مريم.

- كاذبة لقد أهملتني.

- تأدبي.

ثم لطمتها على وجهها وما كان من مريم إلا أن انهارت.

- بل من أجل نفسك من أجل الذهب والمال.

اقتربـت جيروزاليـم محاولـة أخـذ مريـم إليهـا بينمـا كانـت مريـم تبتعـد.

- نعـم غـرني المـال وسـلب عقـلي الذهـب وسـحرتني الرحـلات والحفـلات، نسـيتك ونسـيت والـدك، كنـت مستسـلمة لغـزو بنيامـين المـادي ... أنـت عـلى حـق مريـم، كنـت مخـيرة مـا بـين الحيـاة في

عـز إسرائيـل أو المـوت مـن أجـل فلسـطين.

ضحكت مريم بهستيرية وقالت:

- وأنا مثلك مخيرة بين عز ابن العم وفقر الأقرب للقلب.

ذهبـت مريـم وجيروزاليـم للقاهـرة تجولـت مريـم في الأسـواق والمتاجـر اشـترت كل مـا هفـت لـه نفسـها وتمنتـه مـن قبـل، أسـبوعان مـن التسـوق نهمـت فيهمـا بشراهـة كل مـا يقابلهـا، لـم تبـق عـلى متجـر راق إلا وهاجمتـه مقتنصـة أجمـل المعـروض بداخلـه وأثمنـه، لـم تذهـب للكازينـو المعتـاد وإن حامـت نفسـها مـرارًا حـول فكـرة الذهـاب، فلربمـا تجـد ريـكي لكنهـا سريعًـا مـا كانت تقلـع عنهـا ككونهـا صفحـة في قلبهـا وانطـوت، ولكـن في النهايـة شيء مـا حـرك مشـاعرها تجـاه الكازينـو فقالـت لنفسـها: «لا بـأس مـرة واحـدة فقـط لـن توقـظ الحنـين بداخـل قلـبي»، معللـة لنفسـها أنهـا غـير ذاهبـة لرؤيـة ريـكي بـل للاحتفـال بآخـر أيـام عزوبيتهـا وتوديـع عربـدة الشـباب وسـهراته.

أطلـت بملابسـها الجديـدة القيمـة كمـا لـو كانـت أمـيرة، أثـارت الانتبـاه برونقهـا الجـذاب المفعـم بالـثراء في كل مـا احتواهـا وأحـاط بهـا، وعـلى غـير عادتهـا لـم تبـال بنظـرات الإعجـاب ولـم تهتـم بكلمـات المـدح والثنـاء، شيء مـا أرادتـه ولـم تجـده رغـم مكابرتهـا في الاعـتراف بحقيقـة أن مـا تريـده هـو ريـكي، غالطـت ميـل قلبهـا، ولكنهـا قالـت: «لا لـن أسـأل عنـه، تأخـر ولـم يـأت، ولـو لـم يـأت مـن الأسـاس لـن أسـأل عنـه»، غيابـه طـال، وبـدأت مريـم تقلـق، لتسـأل عنـه مـن بـاب الصداقـة القديمـة ليـس أكـثر. اتجهـت نحـو جـان:

- أهلا جان، ألم تر ريكي اليوم؟

قالت مريم بغير اكتراث كي لا تعكس نبرتها ما وارى قلبها.

- لا يا مريم لم أره الليلة ولمدة أسبوع مضى.

انتفض قلب مريم وكاد يخرج من ضلوعها،تركت البار مسرعة، فصاح عليها جان وهي تخرج من الكازينو:

- مريم، ان قابلته اخبريه بان جان يسأل عنه ويستفسر عن حاله.

أمام باب منزل ريكي وقفت مريم، الباب كان مفتوحًا كأنما كان ينتظرها، وقفت لبعض الوقت تنهدت ثم دخلت بتأنٍ، كان ريكي جالسًا على أريكته، مشعث الشعر، غير مهندم الثياب، وقد طالت لحيته، كان في حالة يرثى لها، كطفل متشرد فقد أمه، جلست مريم بجانبه، حاولت تجميع كلماتها لعل جملة مفيدة تخرج من فمها تنفع في مواساته وتخفف حالة أثر ما فعلته به. وضعت يدها على كتفه ناطقة اسمه بطريقة كأنما تواسيه مشفقة عليه بها، انكب ريكي على ركبتيه أمامها، ماسكًا كلتا يديها واضعهما على وجهه ويجهش بالبكاء، وكيف الحال إذن ودموع حبيبها ملء كفيها، سحبت مريم يديها وليتها كانت قادرة على سحبها من قلبها أيضًا، تركته لتمضي في طريق سقوطها منحدرة للأسفل بسرعة جنونية.

رجعت للقرية محملة بتجهيزات العرس الحزين، رغم ضجر بطرس من وجود جيروزاليم وربط ملكية والده بوجود مريم بينهما إلا أن جيروزاليم أبت أن تترك مريم، فقد كانت متمسكة بها ولو رغمًا عنها، بالنسبة لمطيع كان زواجه من مريم هو نصف خسارة عوضًا عن خسارة كاملة، بالرغم من أن الحداد في القرى كان من عاداته وتقاليده عدم إتمام أي مراسم أفراح

أو زفـاف إلا بعـد مـرور عـام مـن وفـاة القريـب، لكـن العـم الـذي يتمتـع بحنكـة أشربهـا مـن الأيـام قـد أوصى بـإسراع مراسـم الإكليـل حـتى يتسـنى لهـم تنفيـذ الوصيـة.

بشـكل متواضـع تمـت مراسـم الـزواج، ارتـدت مريـم فسـتان أحلامهـا الـذي اشـترته مـن نفـس دار الأزيـاء الـتي كانـت تعمـل بـه، وقـد أصبـح مـن ضمـن زبائنـه الطبقـة الجديـدة الـتي ولـدت في الشـعب المـصري بعـد انحسـار طبقـة الأمـيرات وزوجـات البشـوات والإقطاعيـين والرأسـماليين لتحـل مكانهـا طبقـة زوجـات الضبـاط والقـادة والحكومـة، وكل رجـل كان يعتـلي مكانـة في نظـام الدولـة الجديـد، ارتـدى مطيـع جلبابًـا بلديًّـا وقفطانًـا، مسـندًا عـلى كتفـه شـالًا ناعمًـا بنقـوش حريريـة مزينـة محيطًـا رأسـه بعمامـة بيضـاء متقنـة اللـف.

وقـف العروسـان بجانـب بعضهمـا البعـض واتضـح بينهمـا التنافـر في المظهـر والمعـنى، في طريقهـا كانـت مريـم تمتطـي جـواد طموحهـا الجامـح تقـترب أكـثر وأكـثر مـن هـوة سـقوطها، اختـل تـوازن الجـواد ليصبـح تنينـا التـف عنقـه حولهـا وبسرعـة الـبرق وخطفـة ضوئـه سـقطت في هـوة المجهـول حـين قـال القـس لمريـم ومطيـع: «والآن أعلنكمـا زوجًـا وزوجـة».

عنـد بـاب حجرتهمـا تـرك مطيـع مريـم، ذهـب لحظـيرة المـواشي فـرش هنـاك ونـام، في الصبـاح سـألته مريـم أيـن قـضى ليلـة البارحـة رغـم كونهـا قـد لاحقتـه بعينيهـا لهنـاك قـال بتهكـم:

- كنت أبيت مع من هم أحسن منك.

ثـم غـرب عـن وجههـا ذاهبًـا للحقـل ليقـضي النهـار بأكملـه، حاولـت مريـم التماسـك أمـام جيروزاليـم مدعيـة أن الأمـور بينهمـا

تسـير عـلى مـا يـرام أسـبوع مـر ولـم يتغـير شيء مما مـر، لـم تـرد إعـلان انهزامهـا أمـام جيروزاليـم أو انسـحابها مـن معركتهـا المخطـط لهـا.

في بدايـة الأسـبوع الثـاني فكـرت مريـم في الذهـاب لمطيـع في الحقـل بعدمـا أعـدت لـه الطعـام بنفسـها، ارتـدت أجمـل ثيابهـا، وطلبـت بتحضـير عربـة الخيـول وتزيينهـا وتبخيرهـا، كان مطيع واقفًا بـين العمـال ماسـكًا فأسـه يغرسـه بأقـصى قـوة في الأرض، وينزعـه سريعًـا كمـا لـو كان يقلـب مـع الأرض آلامـه وذكرياتـه مـع تريـزا، لكـن هيهـات فـإن تقليبهـا مـا هـو إلا انعـكاس لهـا، يتناثـر الغبـار مـن حولـه كأنـه دخـان نفسـه الغاضبـة.

تبخـترت نحـوه مريـم في أبهـى زينتهـا، حـل محلهـا في عقلـه صـورة تريـزا مقبلـة نحـوه بـصرة الطعـام وقلـة المـاء فأبصرهـا هـي، هـم إليهـا يحمـل عنهـا مـا تحمـل بكلتـا يديهـا، أفاقـه صـوت مريـم المغايـر عـن صـوت تريـزا، فألقـى بمـا في يـده مـن مـاء وطعـام سريعًـا، أخـذ مطيـع مريـم مـن يدهـا يجرهـا مـن خلفـه دفـع بهـا لداخـل العربـة، قـاد العربـة بأقـصى سرعـة حـتى وصـل للمـنزل مـن أمـام البوابـة الكبـيرة أوقـف العربـة وأخـرج مريـم الـتي دفعهـا مـن شـعرها، وظـل يسـحبها مـرة أخـرى مـن أمـام البوابـة مـارًّا بالحديقـة حـتى دخـل بهـا المـنزل، في الحديقـة تعـثرت أرجلهـا لـم يـترك لهـا فرصـة للنهـوض، وظـل ممسـكا بيدهـا يسـحلها عـلى الأرض، رغـم مـا اعتـادت عليـه مريـم مـن كتمـان الآلام إلا أنهـا لـم تسـتطع تحمـل آلام احتـكاك جلدهـا بـالأرض، فأخـذت تـصرخ بشـكل مريـع جمـع صراخهـا كل مـن بالمـنزل، اتجهـت جيروزاليـم نحـو ابنتهـا وبـكل عزمهـا هـوت عـلى مطيـع تثنيـه عنهـا، اختـل تـوازن مطيع تـاركًا

مريـم مـن يـده، احتضنـت جيروزاليـم مريـم، فأبعدتهـا مريـم الـتي تسلخ ظهرهـا كلـه، ولـم تكـن قـادرة عـلى تحمـل حـتى حضـن أمهـا، نعــت مطيــع مريــم بالعاهــرة والســاقطة والســارقة، لــم ينقــص حرفًـا ممـا قالـه مـن قبـل بنيامـين لجيروزاليـم، إنـه التاريـخ يعيـد نفسـه يعيـد حياكـة تفاصيلـه عـلى جسـد مريـم.

حـضرت جيروزاليـم نفـس الدهـان الـذي أعدتـه لهـا أورشـا مـن قبـل، تدهـن بهـا جسـدها تغـني نفـس الأغنيـة العبريـة الـتي غنتهـا أورشـا لهـا مـن قبـل، أيقنـت مريـم حينهـا أن مـا صنعتـه في نفسـها بيديهـا لا بيـد مطيـع، وأنهـا لا فـرق بينهـا وبـين جيروزاليـم ثانيـة.

ليت الظلمة تغطي أعيننا!

إلى أين نهرب من صوت قلبنا؟

الذي يدعي:

أليست أيدينا هي التي سفكت دمائنا!

إلى أين نهرب أيضًا من وجوهنا؟

آه، يا ليت الظلام يكسو عيوننا.

إلى أين المفر من نداء قلبنا الداعي؟

ها هي أيدينا سفكت دمانا.

إلى أين المناص من وجوهنا؟

القلب جدب الدم القذر يشرق.

أنت، أنا، أنت.

ما فعلناه حتى الإله واسع المغفرة لن يغفر.

والمذعورون يتراكضون في مدينة الهلع.

في المساء دخل مطيع حجرة مريم ماسكًا بيده ثياب كتلك التي كانت تريزا ترتديها، وقال لها ساخطًا: «من اليوم جسدك هذا لن تداريه سوى تلك الثياب»، ردت مريم في لهجة رافضة حادة: «لا»، أخرج مطيع جميع ملابسها الجديدة من الخزانة وخرج بها، وجاء لمريم صوته من الحديقة:

- اخرجي يا مريم كي تري آمالك الزائفة وهي تحترق أمام عينك، أمن أجل تلك الملابس، أمن أجل تلك الحياة احتلتِ مفرقة بيني وبين تريزا، أيتها السارقة اخرجي.

خرجت مريم لتجده يحرق ملابسها، وقد كانت النيران لا تأكل الملابس بل تأكل قلب مريم، سجنت مريم نفسها يومين في حجرتها، رافضة أن تخرج بالملابس القروية، وهي التي ظنت أنها هي التي ستجبر مطيع على الانصياع لها ما دامت الثروة مرهونة بها، في صباح اليوم الثالث دخل مطيع حجرة مريم عاقدًا جبينه:

من اليوم ستدخلين المطبخ، ككل نساء الدار، اسمعي يا مريم إن أردتِ حياة سلام معي كوني كما أنا.

هنا حسم مطيع الأمر لتأتِ الرياح بما لا تشتهيه مريم، ارتدت مريم الثوب القروي ثوب مطيع، ثلاثة أسابيع أخرى مضت، لم يقترب مطيع من مريم لا بالروح ولا بالجسد، وكيف للماء العذب أن يختلط بماء البحر وبينهما برزخ لا يلتقيان.

في يوم كان مطيع عائدًا من الحقل أمام باب المنزل وجد نفسه فجأة وجهًا لوجه أمام أخيه الأكبر بطرس الذي قال له في حزم:

اليوم ستدخل بمريم، ليس مهمًّا لو كانت المرة الأولى والأخيرة

الـتي تضاعجهـا فيهـا، بـل يهمـني هـذا المنديـل الأبيـض الملطـخ بـبراءة شرفهـا، فالنـاس أكلـت مـن وجهـي بمـا فيـه الكفايـة.

ثـم أخـرج منديـلًا أبيضًـا ناصعًـا مـن جيبـه أعطـاه لمطيـع، كان مطيـع راجعًـا للتـو مـن سـقاية الأرض تعلـوه غـبرة ويدنـوه الطـين، لابسًـا ثوبـه الملطـخ بالطمـي والـذي لـم يجـف بعـد، تفـوح منـه رائحـة العـرق المخلـوط بملـح الأرض، أقبـل نحـو مريـم الـتي زعـرت لمنظـره فتكومـت حـول نفسـها فـوق سريرهـا فاعـترف لهـا مطيـع بنيتـه، فانتابتهـا قشـعريرة تقـزز، فافرغـت بسـببها كل مـا في بطنهـا، أخذهـا مطيـع مـن يدهـا شـبه مغتصبًـا إياهـا، تركهـا ملطخـة بالطـين آخـذًا المنديـل ملقيًـا إيـاه أسـفل أرجـل بطـرس ورحـل، كانـت تلـك هـي المـرة الأولى والأخـيرة الـتي جامـع فيهـا مطيـع مريـم، والـتي لـم تذهـب هبـاءً، فقـد كانـت مثمـرة، فخـرج منهـا تـوأم ذكـر وأنـثى.

ظهـرت علامـات الحمـل عـلى مريـم مبكـرًا، علمـت جبروزاليـم أن مريـم قـد أصيبـت بالحمـل، إصابـة مقتـل، سـافرت للسـويس سريعًـا حيـث الطبيـب المعالـج لمريـم، أقـر الطبيـب بـأن عـلى مريـم إيقـاف علاجهـا عـلى الفـور، كي لا تؤثـر العقاقـير عـلى الجنـين، دارت الأفـكار بعقـل جيروزاليـم كيـف لـو تركـت مريـم العـلاج؟ مـاذا سـيكون الحـال؟ وكيـف سـتواجه مطيـع والعائلـة في حـال علمـوا بمرضهـا العقـلي، وقـد ركعـت مريـم أمامهـا قبيـل زفافهـا طالبـة منهـا عـدم إفشـاء الـسر؟ لـم يكـن أمـام جيروزاليـم سـوى حـل واحـد.

رجعـت جيروزاليـم للقريـة في نفـس اليـوم، أسرعـت لحجـرة مريـم ثـم أوصـدت البـاب، جلسـت قبالـة مريـم وبـدون تمهيـد قالـت لهـا: «اسـمعي مريـم، أنـت تحملـين في رحمـك موتـك، إمـا

أن تذهـبي للطبيـب لنجـري لـك عمليـة إجهـاض للجنـين، أو تمتنعـي مـن اليـوم عـن أخـذ الـدواء، وحينهـا أنـا لا أعلـم كيـف سـيكون حالـك ومـدى تطـور الخلـل بعقلـك»، أمسـكت مريـم بطنهـا وكأنهـا تحـاول حمايـة مـا في رحمهـا، فقـد تكـون تلـك هـي المـرة الوحيـدة الـتي يتسـنى لهـا إنجـاب طفـل، فهمـت جيروزاليـم مريـم، طلبـت منهـا ادعـاء المـرض الشـديد، وأن لا تـترك مضجعهـا وسـتتولى هـي الأمـر، ذهبـت جيروزاليـم لبطـرس وكانـت تعلـم مـدى تأثـيره عـلى مطيـع وبعينـين دامعـة ترجتـه أن يطلـب مـن مطيـع الموافقـة عـلى الذهـاب بمريـم للسـويس لمـا تعانيـه مـن تعـب قـد يسـلبها ربمـا روح الجنـين الـذي في رحمهـا، في المسـاء طلـب مطيـع مـن مريـم تحضـير نفسـها للسـفر.

سـافر مطيـع بمريـم وجيروزاليـم وعنـد بـاب المـنزل تركهمـا ورحـل بعدمـا أعطـى لمريـم مبلغًـا مـن المـال، لـم يرجـع مطيـع يومهـا للقريـة بـل اتجـه للقاهـرة، مـر بالشـوارع الـتي أخذتـه إليهـا مريـم مـن قبـل، توجـه للكازينـو ذلـك المـكان الصاخـب الـذي أتـت بـه إليـه مريـم، تـردد في دخولـه لكـن لمـا لا، ليجربـه هـذه المـرة لعلـه يجـد مواسـاته فيـه، عـلى بـاب الكازينـو اصطادتـه زيـزي الفتـاة اللعـوب المعروفـة باصطيـاد فرائسـها مـن الأثريـاء السـذج القرويـين، أو العجائـز المتعلقـين بذيـل الشـباب مـع واحـدة مـن أمثالهـم، كان يراقبـه مـن بعيـد ريـكي، بحـث عـن مريـم معـه، لكـن مطيعًـا كان بدونهـا، أخـذت زيـزي مطيـع مسـكرة إيـاه حـتى الثمالـة وبعدهـا خرجـت بـه، كانـت الظنـون والهواجـس تلعـب بـرأس ريـكي، هـل تركـت مريـم مطيـع؟ هـل تشـاجرا؟ وهـل لا زالـت تنتظـره، وإن كان ريـكي بالفعـل يـود نسـيانها رغمًـا عنـه، فأيـن هـي؟

رجعت مريم لبيتها وحجرتها القديمة غير حاملة من ثراء عمها وابن عمها شيئًا سوى ما تحمله بطنها من جنين، وما تحمله نفسها من الآلم، كانت جيروزاليم مترقبة لما قد يحل بابنتها جراء تركها العلاج، أول عشرة أيام مرت بسلام لا تغيير في شخصية مريم أو تصرفاتها ما عدا أعراض الحمل الطبيعية لأي امرأة، وفي اليوم الحادي عشر بدأت الأحلام تراودها عن والدها بولس، كانت عبارة عن ذكراياتها الرائعة معه، أجمل سنين عمرها التي لم تتكرر ثانية، كانت تلك الأحلام موازية لأحلام أخرى كانت ترى فيها ريكي ولمدة عشرة ليال لم يتركها بولس أو ريكي، كانا يؤنسان منامها، بعدها بدأت الكوابيس تتسرب لمنامها وسط رؤاها الجميلة حتى اختلطت بها، وهكذا حتى أتمت شهرها الأول، بداية الشهر الثاني لم تنبئ بشيء جيد بل بالعكس رغم أن مريم كانت لا تزال محتفظة بتماسكها ووعيها إلا أن الكوابيس طغت على منامها غير تاركة لأي أثر من الذكرى السعيدة، ليلة قصف منزلهما القديم والتفاف جنود العدو حولها هي وأباها وأمها وحتى لحظة اقتلاع رأس بولس، نظرته لها وعيناه مثبتة في رأسه المنفصلة عن جسده وهي تتدحرج على حجرها، هروبها وتسابقها دبابة بنيامين، ثم وصولها لمنزله، جيكوب أخوها ابن قاتل أبيها وهو بين ذراعي أمها ترضعه، ومن ثم نسيان جيروزاليم لها، مشهد بنيامين يلبس العقد ذو العين الواحدة داخل النجمة الخماسية، هروبها لمصر، الملجأ، الصبية الساخرون منها، صراعها مع جيروزاليم من أجل الاستقلال عنها، وحتى وصولها ليد مطيع يسحلها فوق التراب والأرض الخشنة ... كل ما مر به قلبها من عذابات سجلته أحلامها وطيلة شهر، لا تكاد يغمض جفنها حتى تقرع الكوابيس باب نومها مرة أخرى

وعـلى هـذا الحـال.

كانـت النقـود الـتي تركهـا مطيـع قـد نفـذت، لـم تكـن جيروزاليـم قـادرة عـلى تـرك مريـم والذهـاب إلى مطيـع للمطالبـة بنفقـات مريـم؛ لـذا قـررت الرجـوع لماكينـة الخياطـة، والعمـل مـن أجـل إيجـاد قـوت يومهمـا، في الشـهر الثالـث بـدأت حالـة مريـم في التدهـور سريعًـا، أخـذت تفقـد اتزانهـا ووعيهـا لمـا حولهـا، بـدت لمريـم في يقظتهـا هـلاوس بصريـة تـرى فيهـا رأس بولـس، وقـد تعـددت وتماثلـت في كل شـبر حولهـا تغطـي الأسرة والكـراسي وكل الأثـاث، تمـلأ السـقف والأرض، لدرجـة أنهـا كانـت تقـف بالسـاعات خوفًـا مـن التحـرك فتـدوس عـلى رءوس والدهـا المتراصـة كمـا خيـل لهـا عقلهـا، لـم يكـن بيـد جيروزاليـم مـن شيء سـوى سـكب الدمـوع عـلى حـال ابنتهـا الـذي تدهـور أكـثر وأكـثر، كثـيرًا مـا كان يـتراءى لمريـم أن والدهـا بولـس ينظـر إليهـا مـن السـماء، وقـد مـد لهـا سـلمًا للوصـول إليـه، وفي يـوم فتحـت مريـم النافـذة، ولحقتهـا جيروزاليـم في آخـر لحظـة كادت ترمـي فيهـا نفسـها، انهـارت مريـم وحاولـت الإفـلات مـن يـدي جيروزاليـم لتصعـد لبولـس.

قـرر ريـكي نسـيان أمـر مريـم لكـن تكـرر رؤيتـه لمطيـع مـع زيـزي قـد أثـار في نفسـه الهواجـس تجـاه مريـم ومـا حـل بهـا، فقرر السـفر للسـويس حـتى يتقـصى أخبارهـا، كان يعـرف عنـوان مريـم ففـي العـام المـاضي قـرر مراقبتهـا تلـك الغامضـة حـتى يفـك طلاسـم غموضهـا، وبهـذا كشـف سر مريـم الـذي وارتـه عـن الجميـع، مـن أمـام مـنزل مريـم وجـد نافـذة مفتوحـة مضـاءة، علـم ريـكي بوجـود أحـد بالمـنزل فتجـرأ وصعـد ووقـف عنـد بـاب الشـقة وقـد علـت الضجـة والأصـوات المختلطـة بالبـكاء والكلمـات غـير المفهومـة حـتى

وصلـت لمسـامعه، رن الجـرس مـرارًا ولكـن بـلا مجيـب بينمـا كان الصـوت يتعـالى ويـزداد، خـشي ريـكي أن يكـون مكـروه قـد حـل بأحـد مـن أهـل البيـت، فكـسر البـاب ودخـل وهالـه مـا رأى، جيروزاليـم ممسـكة بمريـم ومريـم تحـاول الإفـلات منهـا وهـي منهـارة تحـاول الاتجـاه للنافـذة، لـم تكـن جيروزاليـم قـد التقـت بعـد بريـكي لكـن بـدا لهـا وكأنـه مـلاك بعثـه الله لهـا لإنقـاد مريـم، مـا أن رأتـه حـتى اسـتنجدت بـه:

- امسـك بهـا معـي، لا تجعلهـا تصـل للنافـذة، تريـد إلقـاء نفسـها مـن النافـذة.

هم ريكي بالإسراع نحو مريم، وقال مخاطبًا أمها:

- حاولي أن تعثري على حبل وها أنا أمسك بزمامها.

أحكـم ريـكي قبضتـه حـول مريـم، وأحـضرت جيروزاليـم الحبـل، وسـحب ريـكي مريـم تجـاه الفـراش وربـط يديهـا كل واحـدة بحـرف منـه:

- مهلًا عليها، إنها حامل يا بني.

غُرسـت الجملـة في أذن ريـكي كالسـيخ المحمـوم، لكنـه تـدارك نفسـه سريعًـا كي لا تفلـت منـه مريـم، وجـد أنهـا تـركل بأرجلهـا وقـد يـؤذي هـذا جنينهـا فقيـد أرجلهـا أيضًـا، بـدا عـلى مريـم وكأنهـا لا تعـرف جيروزاليـم أو ريـكي، نظراتهـا الغريبـة تجاههمـا كانـت تقـول ذلـك، بعدمـا قيـدا مريـم، هـدأت عاصفتهـا قليـلًا واطمأنـا عليهـا، حينهـا فقـط تنبهـت جيروزاليـم للغريـب متفقـدة وجهـه، وقالـت لـه: «هـل نعرفـك يـا بـني؟» ودعتـه للجلـوس، فقـال لهـا: «اسـمي ريـكي مـن رفقـاء مريـم القدامـى»، فـردت عليـه جيروزاليـم: «إذن أنـت ريـكي». قـال لهـا: «بمـا أنـك تعرفينـي فـلا داعـي لأعـرف نفسي

أكـثر، أنـا الـذي أود التعـرف عـلى مريـم، فيمـا يبـدو أني مـا زلـت جاهـلًا بهـا». لـشيء مـا بداخلهـا أحسـت جيروزاليـم بالارتيـاح لـه، فقـد رأت في عينيـه نحـو مريـم تلـك النظـرة الـتي كانـت تراهـا في عيـون بولـس نحوهـا هـي ومريـم، وذلـك الاهتمـام كمـا كان يفعـل كمـال.

ذلـك الشـعور بالمسـؤلية والاهتمـام اللـذان لـم تلحظهمـا مـن أحـد غيرهمـا إلا في عيـون ريـكي، قصـت لـه روايتهمـا وحـتى لحظـة وجــوده بينهمــا، لــم يشــأ ريــكي إخبــار جيروزاليــم عــن مشــاهدته لمطيـع في الكازينـو، يكفيهـا عـبء مريـم، تنـاوب ريـكي وجيروزاليـم السـهر ومراقبـة مريـم، وفي اليـوم التـالي أحـضر ريـكي عـدة النجـارة وأحكـم إغـلاق جميـع النوافـذ، كان حـال مريـم وهـي مقيـدة يثـير كل مشـاعر الألـم والحـزن والشـفقة، هـذا الكبريـاء كلـه كيـف للمرض أن يكبلـه هكـذا؟ تلـك النظـرة المتنمـرة كيـف للظـروف أن تكسرهـا؟ ذلـك الجمـال كيـف لأحـد أن يشـوه معالمهـا، كانـت مريـم وقـد تحولـت لهيـكل عظمـي، يكسـو السـواد أسـفل عينيهـا، وقـد بهتـت بشرتهـا واصفـرت ذهبـت مريـم وتبدلـت بأخـرى.

فكـر ريـكي أن يذهـب لمطيـع يطلـب منـه نفقـات مريـم وجنينهـا، لكـن بـأي صفـة سـيطلب منـه حـق مريـم عليـه؛ لـذا قـرر العمـل والإنفــاق عليهــا حــتى يتــم شــفاؤها أو لحــين أن يرجــع مطيــع لصوابـه؛ لأنـه في نفـس الوقـت كانـت حيروزاليـم غـير قـادرة بمفردهـا عـلى تكفـل مريـم لكونهـا تحتـاج لمراقبـة دائمـة ليـل نهـار، لـم يكـن أمــام ريــكي ســوى حــل واحــد وهــو أن يفــرط في جــزء مــن أرضــه ليبيعـه كي يغطـي نفقـات جيروزاليـم ومريـم، ذهـب حيـث أرضـه المتراميـة عـلى الجانبـين، ليجـد مـا لـم يخطـر عـلى بالـه ولـم يكـن

في حسبانه، أخذ الحارس الأرض بوضع اليد، أسقطته المفاجأة أرضًا قسمت ظهره وشاب بها عمره، كيف تأتيه الخيانة من حارسه، فليس بالضرورة أن يكون كل حارس أمينًا، بل إن كل أمين هو حارس.

انهار ريكي وبدأ بالصياح، طالب بحقه، أخذ ينادي بأعلى صوته أنا صاحب الأرض والحق، فرد الحارس الخائن مصوبًا بندقيته نحو قلب ريكي: «وأنا الأقوى، أن أردت لك فيها مكانًا فليكن قبرك، سنوات أحرسها، أصد الكلاب الضالة عنها، انظر لكتفي هذا ولعيني تلك كلها أصابتها ضريبة حمايتي لهذه الأرض، أظن أني بأخذها آخذ تعويض تلك السنين آخذ حقي فيها»، ضاع حلم ريكي، ضاع عمره الآتي بضياع أرضه ممن أئتمنه عليها، رجع بالخيبة وانعدام الحيلة، ليس أمامه الآن سوى الذهاب لمطيع واصفًا حال مريم لعله تأخذه شفقة بها، ذهب للكازينو، وسأل عنه جان الذي أجاب أنه لم يأتِ منذ يومين لا هو ولا زيزي، رجع ريكي لجيروزاليم، مقررًا البحث عن عمل في السويس، كي يتسنى له الاهتمام بمريم وجيروزاليم.

عمل ريكي كاتبًا لدى أحد التجار يكتب له فواتيره ويحسب مديونيته لقاء أجر يومي لا بأس به، كان يأخذه ويضعه في يد جيروزاليم أولًا بأول كما استطاع تأجير حجرة متوسطة الحال، ولكن لم تتحسن حالة مريم بل كانت سوءًا، كان عام ١٩٦٧ منذ بدايته نذير شؤم ليس على مريم وجيروزاليم فقط، بل على سائر شعوب المنطقة بأكملها، كانت المؤشرات كلها تنبئ بحرب وشيكة، بدأ تواتراتها تتصاعد منذ آواخر عام ١٩٦٦ وبدت واضحة تجلياتها عام ١٩٦٧.

لـم يتبـق لمريـم في شـهرها التاسـع سـوى سـتة أيـام، وقـد كانـوا الأصعـب والأشـد؛ حيـث بـدأ يأتيهـا المخـاض في الخامـس مـن يونيـه مـن عـام ١٩٦٧، وقـد صـادف هـذا اليـوم البغتـة الإسرئيليـة عـلى مـصر، آلام الطلـق مـع فقـدان الصـواب الـتي كانـت تعانيهـا مريـم ضاعـف إحسـاس جيروزاليـم بقـرب الهزيمـة، الـتي مهـد لهـا مطيـع ابـن عمهـا، أيـن هـو الآن ممـا فيـه مريـم، ليـس طمـع الـثروة فقـط مـا غرسـها في الوحـل بـل زيـف أسـطورة أن ابـن العـم للفتـاة هـو الحمايـة، وهـو السـند، وهـا هـو سـندها يأخـذ عمرهـا وينهـار، تـاركًا إياهـا تجابـه مصـير تمسـكها بـه وحدهـا، هـل هـي الخيانـة أم هـو المنطـق في أن مـن يحفـر حفـرة لغـيره لابـد أن يقـع فيهـا؟ أو لعلـه عقـاب اختيارهـا لـه دون مـا اختـار قلبهـا وأحـب، عـلى مريـم تحمـل سـوء اختيارهـا، وتحمـل انجرافهـا وراء الآمـال الزائفـة، إن مـا وصلـت لـه إنمـا هـو كبـوة جـواد طموحهـا الجامـح، رغـم تحذيـرات جيروزاليـم، رغـم تحذيـرات مطيـع لهـا بنفسـه، إلا أن كبرياءهـا تـرك لهـا العنـان محلقًـا بهـا حـتى سـقطت.

كانـت مستشـفيات مـدن القنـاة كلهـا وليـس فقـط السـويس مـلأى بالجرحـى والقتـلى تنتظـر اسـتقبال المزيـد، ولا مـكان لاسـتقبال حـالات الـولادة في وقـت أولى فيـه اسـتقبال حـالات المـوت، ومـع ذلـك اسـتطاعت ممرضـة أشـفقت بحـال مريـم توفـير فـراش لهـا في إحـدى صـالات حجـر التمريـض، علقـت لهـا المحاليـل وأعطتهـا بعـض المقويـات فلـم تكـن مريم قـادرة عـلى المقاومة، فاستسـلمت تماما لمـا هـي فيـه، يقسـم ظهرهـا ألـم الطلـق المتزايـد والمتتابـع تجلـس بجوارهـا جيروزاليـم وريـكي، وبجانبهمـا الصنـدوق المصـدف حامـل الرسـالات الثـلاث، كانـت الصالـة تطـل عـلى حجـرة التمريـض

والـتي كان بهـا مذيـاع تُبـثُّ فيـه أحـداث الحـرب متلاحقـة، كان كل مـا يبـث لـم يكـن سـوى أكاذيـب عـن الانتصـار وانهـزام العـدو، كان ريـكي متفائـلًا جـدًّا حيـال الأحـداث، لكـن جيروزاليـم لـم تملـك نفـس الشـعور، شيء مـا بداخلهـا كان ينبئهـا بعكـس كل مـا يقـال، يومًـا بعـد يـوم، ألـمٌ يتلـو ألـم وحـتى اليـوم السـادس الموافـق العـاشر مـن يونيـو، يـوم الاعـتراف الرسـمي بالهزيمـة.

التـف طاقـم التمريـض كلـه حـول المذيـاع، بـدأ الطلـق يشـتد بمريـم أكـثر وأكـثر، كان الـكل متأهـب لسـماع خطـاب الرئيـس، فأعلنهـا صراحـة أن انهزامنـا هـو الواقـع الفعـلي للمعركـة، ثـم أعلـن انهزامًـا آخـر بتنحيـه، ذرفـت الدمـوع لتنحي جمـال عبدالنـاصر أكـثر ممـا كانـت تـزرف بسـبب الهزيمـة، حـين كانت قلـوب الشـعب ونواياه طيبـة ونيـة الحاكـم صالحـة، لـم يعاتبـه الشـعب بـل اندفعـت حشـوده تسـأله البقـاء، هـذا هـو الحـب الـذي لا يشـتريه أحـد، والـذي لا يـأتي إلا وقـد لازمتـه حسـن النوايـا مـن الحاكـم والمحكـوم.

تمخضـت الحـرب عـن الهزيمـة، بينمـا رزقـت مريـم بتـوأم أيفـن وسـام، وقـد أسـمت جيروزاليـم الفتـاة أيفـن واسـمى ريـكي الولـد سـام، كانـت أيفـن تشـبه جدتهـا بالضبـط، بينمـا ولـد سـام غريـب الملامـح لا يشـبه سـوى نفسـه، كانـت صحـة أيفـن جيـدة بالنسـبة لتـوأم ولـد في ظـروف أم مثـل مريـم، لكـن سـام كان ضعيفًـا جـدًّا، دقائـق مـن ولادتهمـا وإذا بصـوت الصواريـخ يـدق فـوق الـرءوس، كان يلـزم سـام عنايـة خاصـة بعـد ولادتـه وبسـبب الحـرب لـم يتسـنى لـه العـلاج والتشـافي، دوت صفـارات الإنـزار تخـرج كل مـن بالمشـفى، أخرجـت جيروزاليـم دواء مريـم سريعًـا وأعطتهـا إيـاه، ثـم هـرول الجميـع للخـارج، دقائـق ثـم انهـار المشـفى بأكملـه، في

الشارع تناثرت جثث الشهداء والجرحى بين حطام الأبنية، كانت السماء وكأنما تمطر بارودًا وقذائف.

أسفل أحد الجراجات وداخل صندوق عربة نصف نقل، اختبأت جيروزاليم ومعها مريم وريكي والصغيرين، كان حال مريم كطفلة تلمع في عينيها أضواء السماء لا تميز إن كانت تلك حربًا أم ألعابًا نارية، فلا تزال تحت تأثير المرض، ولكي تتعافى وتلملم شتات نفسها تحتاج من الصبر الكثير، حين هدأ الوضع قليلًا خرج ريكي يبحث عن ما يطعم به الصغار وتقتات به مريم، وربما يكرمه الحظ بمكان أكثر أمنًا، لم يكن حال من بالخارج أحسن منه، فمعظم من تبقى كان من الجرحى غير القادرين على المشي أو التعكز للوصول لمكان آمن، وكان الغبار والدخان حائلًا بينه وبين الطريق يمشي وسط رؤية مغممة بضباب الحرب.

غفت مريم، بينما كانت أيفن تصرخ من الجوع وكان سام صامتًا ساكنًا لا يوحي حاله إلا بالسوء والمرض، ظلت جيروزاليم حينها صامتة تتلقى الضربات بصمود، ها هي ابنتها وحفيداها أمامها تقتلهما الظروف ببطء، نظرت جيروزاليم لمريم معاتبة مشفقة: «لما يا مريم ضيعتِ نفسك، ابتعدتي عني، ألقيتي بنفسك في ظلمات الضلال، هيأت لك نفسك يا صغيرتي بأنك قادرة، خذلتك قدرتك وخانك كبرك»، من عفار الحرب خرج لها في زيه العسكري، ماسكًا سكينه المدببة وبنفس النظرة التي ما تغيرت، من بين ذراعيها أخذ أيفن وسام ملقيًا بهما في ذلك العفار المضبب واضعًا بدلًا منهما ابنها جيكوب، صرخت جيروزاليم صرخة عميقة مدوية تفتحت لأثرها عينا مريم،

حمـدت الله أن ذلـك لـم يكـن سـوى كابوسًـا، كانـت مريـم نائمـة وقـد أيقظتهـا صرخـة الفـزع، وكان سـام شـبه مغيـب عـن الوعـي تتعـالى أنفاسـه سريعـة، أمـا أيفـن فقـد كانـت متيقظـة تنظـر لجدتهـا متعلقـة بثيابهـا.

مـر بعـض الوقـت لـم تسـتطع جيروزاليـم تقديـره بعدهـا أتى ريـكي ولـم يكـن محمـلًا لا بالحليـب ولا بالطعـام بـل حامـلًا امـرأة شـابة مصابـة تـنزف مـن جراحهـا، طلـب ريـكي مـن جيروزاليـم إبقائهـا معهـا ريثمـا يذهـب هـو لإحضـار المعونـة ويرجـع، كانـت المـرأة وقـد أنهكهـا النزيـف واعيـة بقـدر مـا تتحـدث، قسـمت جيروزاليـم حجابهـا وربطـت بـه جرحهـا الغائـر، نظـرت المـرأة للصغيريـين بشـفقة، قالـت جيروزاليـم: «مسـاكين، ولـدا اليـوم وأمهمـا غـير قـادرة عـلى إرضاعهمـا»، فمـا كان مـن المـرأة المصابـة إلا أن حملـت الطفلـين وأرضعتهمـا رغـم جراحهـا، وأثنـاء ذلـك بدأت تـسرد قصتها: «منـذ يومـين أتى منـدوب مـن شركـة الطـيران الـتي يعمـل بهـا زوجـي، ينبئنـا بخـبر وفاتـه، تـرك لي مـن الأطفـال أربعـة أصغرهـم رضيـع، الله وحـده أعلـم بحالـه الآن، منـذ الحـرب قطعـت الاتصـالات بيننـا وبينـه حـتى علمنـا بالفاجعـة، أهالينـا مـن دمنهـور مـا اسـتطعنا الاتصـال بهـم، ولا اسـتطعنا توصيـل الجسـمان إليهـم، نفـذ الـزاد في منزلنـا، ولـم ينذرنـا أحـد بوقـوع أيـة حـروب مـن قبـل أن تقـع رغـم مـا يقـال بـأن الدولـة نفسـها كانـت عـلى علـم، يهنـأ قادتهـا مـع أبنائهـم وتلتهمنـا نحـن الحـرب، خرجـتُ لأحـضر لهـم الطعـام وفي طريقـي حـدث مـا حـدث، أنـا قلقـة عـلى أولادي أن يكـون أصابهـم أذى»، ثـم أعطـت لجيروزاليـم ورقـة بعنـوان أهلهـم في دمنهـور على قـدر مـا كانـت الكلمـات مؤلمـة عـلى قـدر مـا كانـت المـرأة متفائلـة.

رجـع ريـكي مـرة أخـرى لا يحمـل النجـدة أيضـا بـل شـيخًا عجـوزًا لـم تصبـه الحـرب بـأذى، وشـابًّا يرتـدي ملابس الجنـود مصابًـا إصابة بالغـة في كتفـه بجـوار قلبـه، تركهمـا ريـكي في العربـة ورجـع مـرة أخـرى، قـال الشيخ: «منـذ شرارة الحـرب الأولى قـرر أبنـائي الرحيـل، لكـني رفضـت وقلـت لهـم لـن أتـرك أرضي لليهـود مـا حييـت»، أعقب الجنـدي قائـلًا: «منـذ أن توليـت مهامـي عـلى الحـدود لـم نؤمـر بـترك سـلاحنا وترابنـا إلا اليـوم». كان ريـكي يخـرج طالبًـا النجـدة فيعـود محمـلًا بالبـشر، امتـلأ الجـراج بـكل نـوع وفئـة مـن النـاس، جمعتهـم الحـرب عـلى الألـم المريـر، قصـص لـم تكتمـل، حيـاة بأكملهـا وقـد أمسـت ذكـرى في لمـح البـصر.

أصبـح واضحًـا أنهـم سـيبيتون الليلـة في الجـراج، سـأل طفـل فقـد أسرتـه أمـام عينيـه منـذ سـاعات ولـم يكـن التأثـر ظاهـرًا عـلى وجـه، وكأن الصدمـة بلـدتْ فيـه مشـاعر الخـوف ويبسـت قلبـه الغـض الصغـير: «مـاذا لـو علقنـا هنـا لا أمـوات ولا أحيـاء؟»، أجـاب أكثرهـم تشـاؤمًا: إن نجونـا لوجدنـا المـوت ينتظرنـا في مـكان آخـر، وإن علقنـا فنحـن هنـا ننتظـر المـوت إلى حـين، حركـت كلماتـه بـكاء رجـل تبـدو عـلى هيئتـه شـدة البـأس وقـوة اليقـين، خانتـه دموعـه فصـار كالطفـل المكلـوم في أمـه وأبيـه، مريـم نائمـة وجيروزاليـم مستسـلمة وكانـت أيفـن تـصرخ رافضـة وسـام صامتًـا أبكمـه المـرض، وكان ريـكي هـو حارسـهم المـنزوع السـلاح المقيـد القـوى.

تدهـورت حالـة المـرأة والشـاب مـن بعـد منتصـف الليـل، وكانـت حالـة الجنـدي لا تنـبئ بالخـير، أمسـك الجنـدي بيـد ريـكي وهمهـم بكلمـات لـم يسـمعها، فوضـع ريـكي أذنـه عـلى فمـه لعلـه يسـمع شـيئًا فسـمع الجنـدي يقـول: «قـل لأمـي دموعـك سـتحرقني مـن

الألـم عليـك فـلا تدمعـي، سـأكون قريبًـا مـن حيـث لا تعلمـين، فـلا تهدريـن دموعـك هبـاء»، فسـأله ريـكي: «وأيـن أجـد والدتـك لأخبرهـا؟». أجابـه الشـاب مشـيرًا بأصبعـه: «هنـاك، تقـف عـلى الرصيـف تفتـش بـين الأحيـاء والأمـوات عـني». بعدهـا تفتحـت الآفـاق المحجوبـة أمامـه تسـتقبل روحـه المبتهجـة الخارجة مـن ثغره الباسـم، مـات الجنـدي الشـاب، أخرجـت جيروزليـم مـن الصنـدوق المصـدف مصحفهـا تقـرأ فـوق رأسـه القـرآن، ثـم أخرجـت الإنجيـل معطيـة إيـاه لريـكي: «اقـرأ منـه عليـه نحـن لا نعـرف إن كان مسـلمًا أم مسـيحيًّا».

في الصبـاح دخـل الجـراح جنـودٌ كان الظاهـر مـن هيئتهـم أنهـم مصريـون، وبالرغـم مـن هـذا ارتعشـت قلـوب الجميـع وتقاربـت أجسـادهم بعضهـا البعـض، وبصـوت مطمـئن قـال قائدهـم: «لا تقلقـوا نحـن نمشـط المنطقـة بعـد آخـر كل غـارة، نلملـم الجثـث ومـا تبقـى مـن أحيـاء». أيقظـت جيروزاليـم الأم المصابـة لكـن روحهـا كانـت قـد صعـدت أيضًـا لبارئهـا. خرجـوا مـع الجنـود مسـتقلين شـاحنة حربيـة كانـت مخصصـة لنقـل الجنـود مـن الثكنـات والمعسـكرات إلى الحـدود، كانـت فارغـة إلا مـن المصابـين ومتـشردي الحـرب خاويـة مـن الجنـود، في أحـد الأركان انـزوى ثلاثـة أطفـال أصغرهـم طفـل تحملـه أختـه الكـبرى يمسـك قطعـة خـبز، توجهـت نحوهـم جيروزاليـم سـألتهم أن كان أحـد مـن والديهـم عـلى قيـد الحيـاة، فقالـت الفتـاة الوسـطى وهـي منغرقـة في البـكاء: «والـدي تـوفي وأمـي ذهبـت لإحضـار الطعـام ولـم تـأت، ثـم أكملـت بكاءهـا بصـوت أعـلى، اتخـذت الأخـت الكـبرى دور الأم وضمـت أختهـا نحوهـا تربـت عـلى كتفهـا، عرفـت جيروزاليـم أنهـم أبنـاء

الأم المتوفـاة في الجـراج، أخرجـت الورقـة الـتي أمنتهـا الأم عليهـا قبـل موتهـا وأعطتهـا لقائـد الجيـش، كانـت السيارة متجهـة للقاهـرة، وصلـت بهـم بسـلام عـلى الرصيـف كان يجلـس جمـع مـن البـشر مـن أنحـاء عـدة جمعتهـم القاهـرة لملاقـاة أقاربهـم العائديـن مـن مـدن القنـاة الثلاثـة الإسـماعلية وبورسـعيد والسـويس، ومـن بينهـم رجـل عجـوز محفـورة عـلى وجهـه علامـات البـؤس والشـقاء يلبـس جلبابًـا ريفيًّـا رثًّـا لـم يجـدد منـذ سـنين، وقـد أكلـت الخطـوب مـن عمتـه حـتى هلهلتهـا، كان العجـوز يمسـك بصـورة يضعهـا في وجـه كل داخـل وخـارج: «هـذا ابـني هـل شـاهدته؟ هـذا ابـني مجنـد في الجيـش هـل مـر بـك؟ التصقـت الصـورة في وجـه ريـكي، كانـت للجنـدي الشـاب، فنظـر ريـكي لـلأب المفجـوع، وبلسـان متثاقـل قـال لـه في عطـف: «لـن أطيـل عليـك يـا أبي انتظـار أخبـار ابنـك، إنـه قريـب منـك الآن وقـد يحيطـك الآن، لكـن بروحـه هـو مـن أوصـاني أن تحـاول أمـه كبـح دموعهـا كي لا تتألـم روحـه تأثـرًا بحزنهـا». نظـر العجـوز نحـو امـرأة واقفـة عـلى الرصيـف في يدهـا صرة، تتلفـت حولهـا باحثـة عـن ابنهـا وقـال: «المسـكينة طـول الليـل تعـد المخبـوزات لـه وأصرت عـلى أن تحضرهـا معهـا لـه خشـية أن يكـون جائعًـا»، اتجـه الأب إليهـا وقـال لهـا الخـبر في سـكون واسـتقبلته هـي بسـكينة، وبرغـم هـول الخـبر إلا أنهـا أبـت إلا أن تحقـق وصيـة ابنهـا وقـد أنـزل الله في قلبهـا الرضـا والصـبر تاركـة صرة المخبـوزات عـلى الرصيـف ليلتقطهـا الأطفـال الجوعـى الثلاثـة الذيـن فقـدوا أباهـم ثـم أمهـم الـتي ذهبـت لإحضـار الطعـام ولـم ترجـع.

غـيرت الحـرب في ريـكي كثـيرًا مـن المعتقـدات والظنـون المتأصلـة في نفسـه؛ أولهـا أنـه ليـس الوحيـد الـذي يعيـش وحيـدًا في هـذه

الدنيـا، فهـا هـي الحـرب تقطـع أوصـال البـشر وأرحامهـم، وهـا هـي الدنيـا تجـره نحـو مسـئولية حيـاة أشـخاص آخريـن، وهـا هـي مريـم معـه كمـا تمـنى مـن قبـل، لكنهـا بـين يـدي رجـل آخـر يحمـل هـو أبنـاءه قبـل أن يحملهـم والدهـم.

نقـل ريـكي مريـم والطفلـين للرعايـة في المستشـفى، بـدأت حالـة مريـم تتماثـل للشـفاء وتصـل لمرحلـة وعـي تجعلهـا قـادرة عـلى الاعتنـاء بطفليهـا، ولـم تكـن حالـة سـام عـلى مـا يـرام كان يحتـاج فـور ولادتـه لرعايـة خاصـة، لكـن لظـروف الحـرب والقصـف الـذي اسـتهدف المشـفى نتـج عـن ذلـك إعاقـة ذهنيـة وبدنيـة قـد أصابتـه بتأخـر عمـن سـواه في عمـره، وأولهـم أيفـن، كانـت مريـم وجيروزاليم مـن ضمـن مـن وفـرت لهـم الدولـة أماكـن سـكنية بسـبب تلـك الورقـة الـتي أعطاهـا قائـد جيـش الحـدود لجيروزاليـم إبـان خروجهـا مـن فلسـطين، والـتي أصبحـت مفتـاح تحركهـا في مـصر، وكلمـة الـسر الـتي مهـدت لهـا الطريـق للحيـاة، عـلى الأقـل بشـكل يجعـل أيديهم مغلولـة عـن الاحتيـاج لأحـد، بشـكل وفـر لهمـا السـكن ومتاعـه، ووفـر لهمـا معاشًـا شـهريًّا، بالإضافـة لتكاليـف عـلاج مريـم، أمـا الطفـلان فـكان عـلى والدهمـا التكفـل بهمـا، الوالـد الـذي لـم يظهـر في المشـهد وحـتى إتمـام أيفـن وسـام عامهمـا الأول، ذهبـت مريـم للعمـل في مشـغل، واسـتطاعت جيروزاليـم الحصـول عـلى ماكينـة خياطـة بواسـطة طلـب تقدمـت بـه، أمـا ريـكي فقـد تغـيرت حياتـه جذريًّـا، تـرك حياتـه البوهيميـة الـتي كان يعيشـها وعمـل في أحـد المؤسسـات بشـكل منتظـم، تـاركًا مهنـة إعطـاء الـدروس الروسـية، واكتشـف بمحـض الصدفـة أنـه يمتلـك هوايـة جديـدة وهـي زراعـة شـتلات الـورود والنباتـات، وكانـت تلـك أحـد مصـادر رزقـه، اهتـم

بحديقته الصغيرة جاعلًا إياها كقطعة من الجنة، وقد استقطع من المنزل حجرة جعلها متجرًا يبيع فيه وينسق الزهور، نسي أمر أرضه المسلوبة، وإن كانت ما زالت معلقة بنفسه، استمرت علاقته بمريم وجيروزاليم ولكن كصداقة متناسيًا أمر حبه لها، رغم أن ذلك الحب كان لا يزال متقدًا كجمر أسفل كومة الرماد، وكذلك كان الحال بالنسبة لمريم، الوحيدة التي كانت قادرة على رؤية وميض هذا الجمر، كانت جيروزاليم التي أحست أنه من واجبها عمل المستحيل لإبعاد مريم عن ريكي، لم تجد حلًّا سوى وضع مطيع في المشهد مرة أخرى ولو رغمًا عنه.

وفي يوم كان ريكي في زيارتهما يلاطف الطفلين ويمازحهما، ومريم تجلس في الجهة المقابلة هادئة راضية، وقد ذاب كبرياؤها تمامًا أمام ريكي الذي انقشع غروره أمامها أيضًا، كان على جيروزاليم الآن أداء دور الشرير الذي سيضع الحواجز والسدود بينهما، فيعود مطيع ليأخذ دوره من ريكي، ويعاد تشكيل الأدوار بالشكل الصحيح، فألقت بقنبلة قائلة: «ألم يئن الأوان لمطيع أن يرى طفليه». صمت الجميع، فلو أن جيروزاليم أحرقت قلب مريم لكان أهون عليها من نطق اسم مطيع، أما ريكي فقد كان وقع سؤال جيروزاليم كوقع مطرقة فوق رأسه، فقالت مريم وهي تضم سام نحو صدرها، وقد تعلقت أيفن بريكي: «من يسأل عمن يا أمي؟!». فأكملت جيروزاليم: «وهل يعرف مكان سكننا الجديد، ومن يدري فربما الرجل راجع نفسه وأحس بخطئه، لكنه حين أراد تصحيح الأمور لم يستطع الوصول إليك، على الأقل نحن نعرف مكان وجوده، أليس كذلك ريكي؟». ثم نظرت جيروزاليم لريكي، فحاول ريكي تدارك مشاعره وبنبرة بائسة

حـاول أن يحورهـا: «نعـم، كلامـك صحيـح، مـن الظلـم أن يُحـرم أبٌ مـن طفليـه»، قالـت مريـم بشـكل هيسـتيري: «وأنـا أليـس مـن الظلـم مـا فعلـه بي؟». ردت جيروزاليـم متعمـدة النظـر في عيـني مريـم: «بـل الظلـم هـو مـا فعلتيـه أنـت بنفسـك، وتحاولـين فعلـه مـع هذيـن الطفلـين». هربـت مريـم تجـاه حجرتهـا صامتـة، بعدمـا لجـم الذنـب لسـانها وأبكمهـا، كذلـك اسـتأذن ريـكي ليغـادر وقبـل رحيلـه قالـت لـه جيروزاليـم: الأيـام المقبلـة قـد لا نتواجـد بالمـنزل يـا ريـكي، ربمـا نسـافر للمنيـا». قـال لهـا مبتسـمًا: «بالتوفيـق سـيدتي»، ثـم أغلـق البـاب.

في صبـاح اليـوم التـالي كانـت مريـم وجيروزاليـم في طريقهمـا للمنيا لملاقـاة مطيـع، بـدون مقاومـة وافقـت مريـم، هـل هـو اعـتراف بمـا جنتـه عـلى نفسـها؟ أم بالفعـل شـفقة بأطفالهـا خوفًـا أن يكـون في حرمانهمـا مـن والدهمـا ظلـم لهمـا؟ أيًّـا كان السـبب لـم يكـن مطيـع في حسـبانها، قبيـل المـنزل وفي الطريـق لفـت نظـر مريـم شـخص شـبيه بمطيـع قـذر الملابـس، طويـل الشـعر وغـير حليـق الـرأس، يجلـس بجـوار حائـط أحـد المنـازل، بيـده كمـا لـو كانـت زجاجـة خمـر، نبهـت مريـم جيروزاليـم لمـا رأتـه مشـيرة لهـذا الشـخص، أدركـت جيروزاليـم وللوهلـة الأولى مـا حـل بمطيـع، وكان أولى بهـم الرجـوع، لكـن كان يتبقـى عـلى مريـم إخـلاء يدهـا مـن ذنـب مطيـع.

دخلـت مريـم وجيروزاليـم المـنزل كل واحـدة منهمـا تحمـل طفـلًا، قابلهمـا بطـرس بـلا سـلام أو تحيـة، ثـنى طـرف عباءتـه الثمينـة بطرفهـا الآخـر وجلـس واضعًـا سـاقًا فـوق أخـرى يتأفـف النظـر نحوهمـا. فاسـتهلت جيروزاليـم الحديـث: «نريـد التحـدث لمطيـع. وبـدون أن يلتفـت إليهـا قـال «سـيطول انتظاركمـا، أعتـذر

منكمـا فأشـغالي اليـوم كثـيرة». تركهمـا بطـرس مـارًّا مـن أمامهمـا كطـاووس يختـال بهيئتـه، مـا أن تركهمـا حـتى دخلـت نجـاة مرحبـة بهمـا وتعتـذر لمـا بـدر مـن بطـرس، فسـألتها مريـم: «مـاذا حـدث يـا ابنـة العـم؟» أطلـت نجـاة عـلى الطفلـين تأخذهمـا بـين يديهـا تناغيهمـا متهربـة مـن الإجابـة، لكـن مريـم ألحـت في السـؤال، وبـكل أسى أجابـت نجـاة: «منـذ رحلـتِ يـا مريـم بعدهـا ولقرابـة شـهرين لـم نـر فيهمـا مطيـع، ظننـا أن الأحـوال بينكمـا تحسـنت، حـتى جـاء اليـوم الـذي رجـع فيـه مطيـع البلـدة مرتديًـا زيًّـا غـير زيـه، كان معـه شـخصان يشـبهانه في الهنـدام، كان واضـح مـن هيئتهـم أنهـم غـير قرويـين وليسـا مـن الصعيـد أيضًـا، حـاول بطـرس معرفـة سره، لكـن مطيعًـا كانـت نوايـاه أعمـق مـن بـئر بـلا قـرار، تغـير كثـيرًا فقـد في القاهـرة تعلقـه بـالأرض، حـتى نظرتـه تغـيرت ينظـر باشـمئزاز لـكل مـا حولـه، رائحتـه تغـيرت وكـذا طبعـه، يومـان وبعدهـا رحـل مـرة أخـرى.

اكتشـفنا فيمـا بعـد أنـه بـاع نصـف أملاكـه مـن الأرض، فجـن جنـون بطـرس وأخـذ يـصرخ كالنسـاء، يولـول ويلطـم فحاولـت زوجتـه تهدأتـه، فأزاحهـا بعنـف وكانـت في شـهرها السـابع فأسـقطت الجنـين الـذي كان ذكـرًا، الولـد الـذي تمنـاه بطـرس بعـد خمـس فتيـات، ولـولا حفـظ الله لفقدناهـا هـي الأخـرى، بعدهـا لـم يـر بطـرس أمـام عينيـه سـوى الانتقـام مـن مطيـع، لكـن أيـن هـو مطيـع؟ بعـد شـهر آخـر رجـع مطيـع، عـرف بطـرس كيـف يسـايره في الحديـث، علـم منـه أنـه تعـرض للنصـب مـن جانـب امـراة قاهريـة لعـوب، لـم يغفـر بطـرس ولـم يتراجـع عـن خطـة انتقامـه، وضـع أمـام مطيـع الخمـور بأنواعهـا فأدمنـه الخمـر ومـن ثـم الحشـيش

والمخـدرات، وفي لحظـة مـن لحظـات سـكره وغيـاب عقلـه جعلـه يبصـم عـلى بيـع بقيـة أملاكـه، مـلأ حجرتـه بالخمـور والمخـدرات غـير مكـترث بـه، أصبح مطيـع كالمخبـول لا يـترك زجاجـة الخمـر مـن يـده، خذيـه يـا مريـم وأنقذيـه، عالجيـه فلـو تركتِـه لبطـرس سـيقضي عليـه حتمًـا».

أثنـاء حديثهـم دخـل مطيـع، وكان هـو نفسـه هـذا الضـال الـذي رأوه عـلى قارعـة الطريـق، حـتى إنـه مـن كـثرة سـكره وغيـاب عقلـه لـم يتعـرف عليهمـا، نظـرت مريـم نحـو جيروزاليـم تسـألها، بـل سـؤال مـا تفعـل أجابتهـا جيروزاليـم بصـوت عـال واضـح: «وقـد أبـرأتِ ذمتـك أمـام الله مـن ذنـب مطيـع، إن تتركيـه أو تأخذيـه هـو قـرارك». لـم يكـن قلـب مريـم رغـم مـا تعـرض لـه مـن القسـوة قـاس، فلـم تكـن مريـم امـرأة بـلا مشـاعر رغـم مـا يظهـر عليهـا مـن صلـف وجمـود، أخذتهـا الشـفقة بمطيـع، وقـررت أن تأخـذه معهـا لعلاجـه، أمـا مطيـع فحـين أخبرتـه بأنهـا ذاهبـة بـه للمدينـة فـرح كثـيرًا وتهلـل وجهـه وأخـذ يلـف ويـدور ويقـول: «ايـه ايـه ايـه سأسـافر للمدينـة ايـه ايـه سأسـافر للمـرح، والأضـواء سـترقص في عيـني». سـحبت المدينـة عقـل مطيـع بمرحهـا وسـلبت قلبـه بفتنتهـا وأخـذت مالـه بغوايتهـا.

لـم يعـد في بـال جيروزاليـم مـن فكـر سـوى حـال ابنتهـا مريـم، لـم يكـن هنـاك متسـع حـتى للتفكـير في إسـماعيل وجيكـوب، كانـت همـوم مريـم تشـغل المسـاحة الكليـة مـن عقلهـا، وازداد حمـل مريـم تحمِّلهـا الأيـام همًّـا تلـو الآخـر، وهـا هـو مطيـع فـوق كاهلهـا أيضًـا, عرضـت جيروزاليـم الذهـاب بـه عـلى الفـور إلى المشـفى وقـد فعلـت، هنـاك وأول مـا دخـل أحـس مطيـع بمـا هـو فيـه خاصـة

أنهـم أخـذوا مـن يـده زجاجـة الخمـر، فأخـذ يثـور ويهيـج، وكان أمـام مريـم حالـه كحـال الثـور حـين رأتـه أول مـرة يطـارده فيهـا، التـف حولـه الأطبـاء وقامـوا بتقييـده وحاولـت مريـم تهدأتـه، مـن بعيـد كان المشـهد ينقصـه تريـزا حـتى يسـتعيد مطيـع هـدوءه واتزانـه، تذكـرت جيروزاليـم حـين اضطـرت لتكتيـف مريـم في حملهـا، الفـارق الوحيـد أنهـا كانـت بدونـه، فقالـت جيروزاليـم لنفسـها وهـي تمسـح عـبرة شردت مـن عينهـا: «آه يـا مريـم، تـراه ذنـب مـن؟ ذنـبي أم ذنـب نفسـك تحملـين؟». أيقنـت مريـم لحظتهـا مـا فعلـت بنفسـها وبمطيـع وبريـكي وتريـزا، وقبـل أن يـذرف إحسـاس الذنـب دموعهـا، رفعـت رأسـها مكابـرة قائلـة لنفسـها: «إنـه قدرنـا جميعًـا، وليـس ذنـب أحـد».

بعـد أسـبوعين كانـت حالـة مطيـع قـد تحسـنت كثـيرًا عمـا كان، تسـلمته مريـم مـن المشـفى لكـن لأيـن سـترجع بـه، لأخيـه الظالـم، أم لحياتهـا؟ روحهـا الطيبـة تأمرهـا بأخـذه ونفسـها تطالبهـا بتركـه، حائـرة بـين الـروح والنفـس تقـف عـلى حائـل أحـد مـن حـد السـيف، وعليهـا الاختيـار، قالـت موظفـة الاسـتقبال في المشـفى: «العنـوان سـيدتي، نريـد عنـوان مطيـع»، أجابتهـا مريـم بـأن تكتـب مـصر القديمـة، أخـذت قرارهـا لـن ترجـع بـه لبطـرس ثانيـة.

ظـل مطيـع قرابـة أسـبوع هـادئ الطبـع يلاطـف الأطفـال تـارة، ويجلـس أمـام التلفـاز تـارة أخـرى، وربمـا يسـاعد في أعمـال المـنزل، لـم تنـس مريـم ريـكي منـذ آخـر مـرة كان فيهـا بالمـنزل، هـي لا تريـد مـن الحيـاة سـوى وجـوده بجانبهـا، مـا زالـت مريـم متيمـة بـه، فقـد كان ريـكي قـد تحـول في حياتهـا مـن الحبيـب المـراوغ إلى الأب المسـئول، أخـذ ارتباطهـا بـه شـكلًا آخـر، جعـل صلتهـا به أقـوى، قد

ينفصل الأحبة لكن كيف للأبوة أن تفصل البشر عن بعضهم، قررت الذهاب للسؤال عنه في منزله القديم، طوال الطريق وهي تحاول اللحاق بالكلمات الهاربة منها ماذا ستقول له؟ لنرجع لكن لنرجع إلى ماذا؟ فلتعد، لكن فليعد بأي صفة؟ تعتذر، عن أي شيء تعتذر؟ تبرر موقفها، ولما التبرير من الأصل؟ لتذهب وليكن ما يكن ولتقل ما تقل، وقفت على أعتاب المنزل كأول مرة خائفة، يرتعش بداخلها الفضول تجاه هذا المجهول الذي يدعى ريكي، يسحبها قلبها نحو عالمه ليضعها كورقة خريف أمام عتبة حياته، تنتظر التقاطه لها لتخضر فوق راحة يده وتدب في عروقها الحياة.

فتح لها الباب، لم يكن ريكي بل كان جان عامل البار، وبدون سلام أو إعطائه فرصة للترحيب به سألته عن ريكي، فقال لها وهو يشير لها بالدخول: «مريم ... مرت سنوات منذ آخر مرة رأيتك فيها، وكنتِ أيضًا تسألينني يومها عن ريكي». قالت مريم وهي تدخل بخفة، يطرق قلبها تكاد تسمع دقاته على بعد أمتار: «في المرة الأولى كنت أبحث عنه وهو أمامي، أما اليوم فأنا أبحث عنه بعد الغياب بالفعل، أين ريكي، جان؟». سألته بيأس أخفى خلفه ظنونًا وهواجس، إنها كما تخلت عنه لن تلقاه، فقالت وهي تحدث نفسها: «يعطيك الله القلب المناسب، ومن ثم تضيعه، فيظل حولك يحوم غير قادر على لحاقك أو الإمساك بك، هذا ذنبك وهذا عقابك، وكان الآوان قد حان لتعاقب مريم بذنبها». أجابها جان بنظرة يملؤها الحزن: «لن تجديه يا مريم، أنت ضيعته وقد التقى بنفسه بعيدًا عنك، لا تظني أني لا أعرف قصتكما وإن لم يخبرني بها

أحـد، عامـل البـار هـو المنتبـه الوحيـد المراقـب في المـكان، هـذا عاشـق، وهـذا مـراوغ، هـذا محطـم وهـذا خائـن، وأنـا لـم أجـد حبيبـين أكـثر صدقًـا وكذبًـا، أكـثر ابتعـادًا وقربًـا أكـثر شـوقًا وتمنعًـا منكمـا أنـت وريـكي، ريـكي يـا مريـم قـرر الفـرار منـك للأبـد، نعـم لـم يكـن سـوى الفـرار مـن ذنـب الحـب المتجـدد، ذهـب طالبًـا الغفـران والخـلاص لعلـه ينسـاكِ، تطـوع بنفسـه لدير لـم يذكـر أمامـي اسـمه وطلـب الترهـبن بـه». ريـكي العاشـق الراهـب الهـارب مـن أسـوار حـب مريـم لأسـوار الديـر لا يختلـف عـن بولـس الراهـب العاشـق الهـارب مـن أسـوار الديـر لأسـوار حـب جيروزاليـم، كلاهمـا راهـب وكلاهمـا عاشـق اسـتطاع واحـد الإفـلات، والآخـر قـدم رقبتـه قربانًـا.

دفنـت مريـم ريـكي حيًّـا بداخـل قلبهـا، ورحلـت بـلا رجعـة مـن مـنزل ريـكي مـرة أخـرى واضعـة حبـة أخـرى في عقـد الفـراق الـذي أحـاط رقبتهـا بعـد رحيـل والدهـا بولـس، زاد الـشرخ بـين مريـم وجيروزاليـم برحيـل ريـكي شرخًـا تنَّـأ بتصـدع وانهيـار قريـب، لـم يكـن لمطيـع عمـل، ولـم يكـن يشـارك في أعبـاء المـنزل ونفقاتـه بـشيء، قالـت لـه مريـم بعـد أن طفـح كيلهـا: «ألـم يحـن الوقـت لتـولي نفقـات أبنائـك، المعـاش مـع مـا آخـذه مـن عمـلي ومعـاش أمـي مـا عـادوا يكفـون مسـتلزمات البيـت، ثـم إن عـلاج سـام ليـس بالهـين؟». بصـوت وهـن لا يـكاد يكـون مسـموعًا قـال مطيـع: «غـدًا سـأبحث عـن عمـل».

كان سـام يعـاني مـن عـدة أمـراض كالربـو والتأخـر الذهـني والبـدني غـير أن مناعتـه أضعفتهـا كـثرة العلاجـات، أمـا أيفـن فكانـت خطواتها تسـبق خطواتـه في كل مراحـل النمـو، مـن يراهمـا لا يصـدق أنهمـا

تـوأم، أيفـن مـن أخـذت بيـده تعلمـه المـشي، ومـن علمتـه تهجـي الحـروف، هـي مـن كانـت بيدهـا تطعمـه وتحنو عليـه إن أصابـه أذى، تعلـق بهـا سـام أكـثر مـن تعلقـه بأمـه وأبيـه وجدتهمـا جيروزاليـم في حـين كانـت أيفـن أشـد ارتباطًـا بجيروزاليـم.

ذهـب مطيـع بالفعـل يبحـث عـن عمـل كمـا وعـد مريـم غـاب بالسـاعات ثـم أتى آخـر النهـار يحمـل زجاجـة خمـر واضعًـا إياهـا بـين ذراعيـه بحـرص، جلـس عـلى المنضـددة ووضـع الـكأس والزجاجـة أمامـه، قابلتـه جيروزاليـم بنظـرة حـادة بـدون أن تنطـق بكلمـة واحـدة، ثـم انكبـت عـلى ماكينـة الخياطـة، أقبلـت مريـم مـن المطبـخ حـين سـمعت صـوت فتـح البـاب وإغلاقـه، وأمـام مـا رأتـه مـن مطيـع وقفـت مصدومـة لدقيقـة صامتـة بعدهـا جلسـت عـلى الكـرسي المجـاور لـه، فقالـت مريـم في هـدوء: «إن لـم تجـد عمـلًا فكيـف لـك أن تـأتي بزجاجـة الخمـر تلـك؟!». وبنفـس الهـدوء أجابهـا مطيـع: «نعـم عملـت». لـم تـزد مريـم في درجـة صوتهـا بـل زادتهـا هدوئـا: «إذا أعطـني مـا تبقـى ممـا حصلـت». نظـر لهـا مطيـع باقتضـاب متحدثًـا بضجـر: «أي نقـود تبحثـين عنهـا، بالـكاد اشـتريت بهـا زجاجـة الخمـر، أتظنينـني عملـت كرئيـس الـوزارة مثـلا يـا امـرأه، صحيـح إنـك غبيـة وجاهلـة، مـررت عـلى أماكـن كثـيرة إمـا يريـدون كاتبًـا أو محاسـبًا أو صاحـب حرفـة، وأنـا يـا حمقـاء كمـا تعرفـين أمـيٌّ لا أعـرف الكتابـة أو القـرأة، ولا أجيـد أي حرفـة، تاجـر واحـد وجـدت عنـده مهنـة يملـك عربـة يجرهـا حمـار فزادهـم اثنـين، أمـا الثانيـة فقـد كان ينقصهـا الحمـار فاسـتعوضني بـدلًا منـه لقـاء أجـرة يوميـة، تـرى بعقلـك هـذا إن وجـد مـاذا سـتكون أجـرة الحمـار يـا بلهـاء؟!». ثـم ضحـك كثـيرًا سـاخرًا، والحقيقـة أنـه كان يسـخر مـن مريـم لا

مـن نفسـه متشـفيًا فيهـا وفي عوزهـا للمـال، وقفـت مريـم وكنمـرة غاضبـة زأرت في وجهـه: «إن كنـت تعلـم أنـك بـدون أرضـك حمـار، إذن لمـا فرطـت فيهـا؟». وقـف مطيـع بمحاذاتهـا وقـال لهـا بصـوت منخفـض ينعكـس الحقـد مـن خلفـه رافعًـا حاجبيـه جاحظـة عينـاه، وقـد اتسـعت حدقتيهمـا غـلًّا وحقـدًا: «كي لا تهنئـين بقـرش منهـا، بدونـك لمـا تجرعـت قطـرة خمـر، ولكانـت عـلى يمينـي حـب قلـبي تريـزا، ومـن يسـاري أرضي، لكنـك محتالـة نصبـت مصيـدة طمعـك حـول أبي، اغـربي عـن وجهـي أو لتذهـبي للجحيـم أم عسـاكِ تريديـن تشـويه وجهـك القبيـح هـذا». تركتـه مريـم وهـي خائفـة حاملـة طفليهـا تختـبئ بداخـل أحضانهمـا الصغـيرة.

بعـد سـت سـنوات مـن هزيمـة مريـم النكـراء أمـام أطماعهـا والـتي خرجـت منهـا خاويـة اليديـن إلا مـن طفلـين أحدهمـا عليـل، وعــبء اسـمه زوج فــوق كاهلهــا، بـدأت تسـتعيد قواهــا نحــو الحيـاة الجديـدة، صحيـح أن الحيـاة قاسـية ليـس بعـض الـشيء ولكـن كثـيرًا، لكـن مريـم مـا استسـلمت، اسـتطاعت عمـل مشـغل صغـير للخياطـة وأعمـال التطريـز، كانـت تـشرف فيـه عـلى فتاتـين تعمـلان تحـت يدهـا وعـرف اسـمها في الحـي والأحيـاء المجـاورة حـتى وصـل صيتهـا لبعـض الأحيـاء الراقيـة، انشـغلت مريـم عـن الصغيريـن كثـيرًا، لكـن جيروزاليـم اسـتطاعت حـل محلهـا ببراعـة، تركـت جيروزاليـم ماكينـة الخياطـة وتفرغـت لهمـا، وكـون جيروزاليـم مسـلمة تشربـت أيفـن بالإسـلام كثـيرًا مـن بـين يديهـا حـتى إنهـا كانت تصـلي معهـا، وحفظـت بعـض السـور والآيـات لـم يضايـق هـذا الأمـر مريـم حـتى أنـه في يـوم صارحـت مريـم جيروزاليـم بأنهـا لا تجـد غضاضـة إن أسـلم أحـد أبنائهـا، سـتترك لهـم حريـة الاختيـار،

كما تركت لها هي حرية الاختيار، كانت أيفن صغيرة على معرفة معنى العقيدة، ربما لم يخرج ما تقوم به عن مجرد تقليد لجيروزاليم، لكن ما حدث من انهيار تام في علاقة الأم بالجدة باعد بينها وبين الإسلام أيضًا ربما لو أن الفرصة أتيحت لها للبقاء في كنف جيروزاليم من يدري أي مستقبل كانت ستختار.

-١٣-

ستة عشر عامًا منذ أن تركت جيروزاليم ابنها جيكوب، صحيح أنها لم تنطق اسمه ولو مرة واحدة أمام مريم إلا أن نسيان جيروزاليم له بالفعل كان شيئًا غير منطقي، كانت مريم أكثر الناس معرفة بقلب جيروزاليم، وكانت تعلم أنها لم ولن تنس جيكوب، من الناس الذين لم يقتنعوا بانتصار ٧٣ واعتبار كامب ديفيد هزيمة أخرى ولكن بشكل دبلوماسي كانت جيروزاليم، أما مريم فكانت على عكس جيروزاليم سعيدة مستبشرة بما حقق بما أنها كانت تميل للسلام اكثر من المقاومة، كانت جيروزاليم ناصرية مائة بالمائة، وكانت تعتقد أن لو القدر أمهل عبد الناصر الوقت حتى العبور لكان نسف إسرائيل بأكملها، في مقابل أن مريم وجدت في عبد الناصر أسباب الهزيمة ومسبباتها، كل منهما كان له ميوله السياسية أيًّا كان لم يكن هذا من أسباب الشقاق بينهما.

في يوم كان كبقية الأيام لو لم يحدث فيه ما لم يكن متوقعًا، كانت مريم في المشغل وأيفن كانت جالسة تعلم أخاها سام عد الأرقام وفي هذا اليوم دق جرس الباب، حسبتها أيفن والدتها فجرت بسرعة لفتح الباب لتجد أمامها شاب صغير يقف قبالتها، طويل القامة لونه أبيض شاحب شحوب الموتى، أصفر الشعر وخفيف الحاجبين، كان وجه يأخذ شكلًا طوليًّا ليس بالعريض أو المستدير، ملابسه كانت مأنقة جدًّا تفوح منه رائحة ما أذكاها، قال لها ببرود: «هل السيدة جيروزاليم هنا؟ قالت

الصغـيرة لـه: «نعـم». وبـدون أن يعطـي أيفـن فرصـة لإخبارهـا أو تـأذن لـه بالدخـول أزاحهـا مـن أمامـه ودخـل كأنمـا هـو صاحـب الـدار، التفـت إلى أيفـن وقـال: «اقفـلي البـاب». جيروزاليـم كانـت تعـد الغـذاء في المطبـخ وأتى صوتهـا مـن هنـاك: «هـل أتيـتِ يـا مريـم؟». تحـرك الغريـب تجـاه الصـوت حـتى وصـل لجيروزاليـم: «بـل جيكـوب مـن أتى يـا أمـي». انفلتـت الأواني مـن يـد جيروزاليـم، وكادت تسـقط، اتجـه نحوهـا جيكـوب لكنهـا سرعـان مـا اسـتندت عـلى رخامـة المطبـخ قبـل أن يصـل إليهـا ويسـاعدها.

خرجـت جيروزاليـم للصالـة وجلسـت عنـد أقـرب كـرسي واضعـة يدهـا فـوق وجههـا، وقالـت: «مـا الـذي أتى بـك يـا جيكـوب؟». وبنفـس الـبرود قـال لهـا: «حقـي فيـك يـا أمـي، بعدمـا رحلـتِ تاركـة إيـاي طفـلًا رضيعًـا بحـث عنـك والـدي بنيامـين إن كنـتِ تذكرينـه، بحـث عنـكِ كالمجنـون في كل شـبر ولـم يجـدك، تأكـد أنـك تركـتِ إسرائيـل وفلسـطين، لكـن إلى أيـن؟ مـصر أم سـوريا أم الأردن، أي البـلاد لجـأتِ لهـا، انخـرط أبي في العمـل وارتقـى في مراتـب الجيـش، جلـب لي عوضًـا عنـك مـن المربيـات والمرضعـات الكثـير، حـاول تعويـضي بـكل السـبل عـن جحـودك ونكرانـك، بقـدر مـا كنـتِ أمًّـا سـيئة كان أبًـا جيـدًا، تفـرغ لإعـداد مسـتقبلي وكـرس حياتـه للعمـل مـن أجـلي، ازداد نفـوذه وتضاعفـت ثروتـه، حـتى عـام ١٩٦٧ حـتى وصلـت قـوة أبي منتهاهـا بمسـاعدة جـدي في أمريـكا، حـتى أصبحـت شركـة بنيامـين جيكـوب أكـبر شركـة مقـاولات ما بـين أمريـكا وإسرائيل، شركـة قـادرة عـلى توسـيع حـدود إسرائيـل وتعميرهـا بجانـب منصبـه في الجيـش، بعـد حـرب ٦٧ أتـت الفرصـة لأبي للبحـث عنـك، كانـت الأمـور في قبضتنـا، عـرف أبي أنـك في مـصر كمـا توصـل لعنوانـك،

حياتك وحياة مريم كانت بداخل ملف سلم ليده، كان أبي قادرًا على قتلك، قادرًا على تعذيبك، لكنه وجد ما كنتِ فيه وما كنتِ تعيشيه وجد ذلًّا أمرَّ من القتل والتعذيب، فتركك تتجرعين من نزف دمائك قطرة قطرة، عام ٧٣ شارك أبي في الحرب ومات، انتظرت الفرصة بعدها لدخول مصر ولقائك وجائت الفرصه الآن بعد اتفاقية السلام، لم أكن لأدخلها بعد الحرب أو قبلها سواء حرب ٦٧ أو ٧٣، السلام كان الكارت الأخضر لمروري لمصر بنفس جواز سفري الإسرائيلي، بالمناسبه أسرتك يا جيروزاليم استوطنت ممتلكاتها السابقة بستان قبر المسيح، والطاحونة وصهريج الماء، كل الأراضي حول كنيسة القيامة والمسجد الأقصى استوطناها، تركنا لكم مصر وأبقينا على ما هو أثمن وأقيم، عودي معي يا أمي، عودي لأصولك، جيروزاليم اليهوديه ابنة أورشا اليهودية ابنة القدس اليهودية».

في هذه الأثناء دخلت مريم، لم تدر بنفسها وهي تخرج من حقيبتها المقص لتهوي به على جيكوب، لكن قلب الأم حرك جيروزاليم وجعلها تمسك بمريم تثنيها عن قتل أخيها فغرز المقص في كتف مريم التي انتابتها التشنجات تصرخ في وجه جيروزاليم بهيستيرية غير مفهومة كلماتها، كانت تصرخ وتبكِ وتشوح بيديها وتشد في شعرها وفي نفس الوقت كان جرحها ينزف، لم تكن جيروزاليم قادرة على إمساكها، مطيع كان بالمنزل استيقظ على صوت صراخ مريم لكنه ظل واقفًا من بعيد يراقبها كما فعل جيكوب، كان الاثنان يحملان نفس نظرات التشفي فيها، مسكينة مريم، ظلت هكذا حتى أغمي عليها.

فتحت مريم عينيها في المستشفى، وضعت جيروزاليم يدها

فـوق جبينهـا فأزاحتهـا مريـم موليـة وجههـا تقطـر مـن عينيهـا دمـوع الذكريـات الأليمـة، دخـل الطبيـب يسـألها عـن حالهـا فقالـت مريـم في يـأس بائـس مـن الحيـاة بأكملهـا: «روحـي تحتـاج لأجـازة مـن هـذا العالـم». طلـب الطبيـب مـن الجميـع الخـروج، كان مطيـع واقفًـا مـع جيكـوب في الطرقـة، جلسـت جيروزاليـم عـلى كـرسي بجانـب حجـرة مريـم، اتجـه نحوهـا جيكـوب مودعًـا إياهـا، مـرر يـده ليسـلم عليهـا فمـدت يدهـا هـي الأخـرى، لكـن وفي منتصـف طريقهـا نحـو يـده توقفـت يـد جبروزاليـم، كأنمـا شـلت فسـحبها جيكـوب تجاهـه وسـلم عليهـا عنـوة، «سـنلتقي ثانيـة، ولـو رغمًـا عنـك سـتجدينني أمامـك يـا أمـي». ثـم نظـر نحـو أيفـن وداعـب وجنتيهـا بقرصـة خفيفـة، لكـن الصغـيرة كانـت مغتاظـة منـه حانقـة، فمسـكت يـده وعضتهـا، قـال جيكـوب: «حفيدتـك تشـبهك يـا جيروزاليـم، وإن كانــت هيئتهـا غـير مسـالمة، متمـردة هـي مثـل أمهـا». ثـم أدار وجهـه عنهمـا، اتجـه جيكـوب نحـو مطيـع، مـال نحـوه هامسًـا في أذنـه وهـو يخـرج بعـض الورقـات الماليـة وضعهـا في يـده تراقبهمـا أيفـن مـن بعيـد.

مـر يومـان ورجعـت مريـم للبيـت، لـم تكـن بحـال جيـدة لا بدنيًّـا ولا نفسـيًّا، فنظمـت كلمـات سريعـة متلاحقـة لأمهـا: أمـي، دخـول جيكـوب المـنزل هـو بدايـة فراقنـا، اختـاري إمـا أن تفاريقيـني، أو آخـذ أنـا أبنـائي وأفارقـك». رصـت مريـم كلماتهـا بسرعـة ودخلـت حجرتهـا، ظلـت أيفـن مـع جدتهـا الـتي أخذتهـا مـن يدهـا وأجلسـتها أمامهـا حكـت لهـا قصتهـا، فبـدأت الحديـث منـذ ولادة أورشـا وحـتى هـذه اللحظـة مدونـة قصتهـا في ذاكـرة أيفـن مـا نسـيتها يومًـا، تسـمعها لنفسـها مـن حـين لآخـر، ثـم همسـت لهـا بسرهـا

الـذي لسـنوات ظـل مريـم وجيكـوب يفـكان طلاسـمه، ثـم أخـذت الصنـدوق المصـدف ورحلـت.

في الصبـاح ذهبـت مريـم تستسـمح جيروزاليـم لكنهـا لـم تجدهـا، وقبـل أن تخـرج مـن حجرتهـا طلبـت منهـا أيفـن أن لا تنهـك نفسـها في البحـث، فهـي لـن تجدهـا إلا لـو ... أمسـكتها مريـم مـن كتفهـا وقالـت: «إلا مـاذا يـا أيفـن، تكلمـي، إلا مـاذا قـولي لي». قالـت لهـا مريـم مترجيـة، لكـن أيفـن كانـت عـلى عهـد جدتهـا مطيعـة صامـدة وقالـت لهـا: «اجمعـي جيكـوب وإسـماعيل، وسـأقول لـك أيـن جيروزاليـم». أمسـكتها مريـم مهـددة، وقالـت لهـا مكـشرة عـن أنيابهـا في مشـهد أخـاف الصغـيرة: «سـأقتلك إن لـم تخبريـني أيـن جدتـك». لكنهـا لـم تتراجـع: «إن قتلتيـني فلـن تعـرفي أبـدًا مـكان جـدتي، ومهمـا فعلـتِ لـن أقـول لـك، اجمعـي جيكـوب وإسـماعيل لأخـبرك عـن مكانهـا». تركتهـا مريـم دافعـة إياهـا بعنـف وتركـت المـنزل لتبحـث عـن جيروزاليـم، يومهـا تولـت أيفـن خدمـة أخاهـا أطعمتـه واهتمـت بـه، كان هـذا أول يـوم تسـلمها فيـه الظـروف مسـئولية الأخ الضعيـف، حـين تأخـرت مريـم قصـت أيفـن عـلى سـام قصصًـا كانـت تحكيهـا لهمـا جدتهمـا حـتى نـام، بعدهـا خرجـت أيفـن للصالـة تنتظـر مريـم الـتي أتـت متأخـرة جـدًّا لـم تلتفـت مريـم لصغيرتهـا ودخلـت حجرتهـا.

كـبرت الطفلـة بداخـل أيفـن يومهـا شـاخت قبـل أوانهـا، شـهرٌ مـر عـلى هـذا الحـال تخـرج مريـم للبحـث عـن جيروزاليـم، لتعـود ليـلًا وتدخـل حجرتهـا غـير عابئـة بأيفـن وسـام، كانـت أيفـن تعـد الطعام وترتـب المـنزل وتغسـل الملابـس كأم صغـيرة، أمـا مطيـع منـذ أن وضـع جيكـوب في يـده المـال لـم يعـد ثانيـة، أهملـت مريـم عملهـا

حـتى تركتهـا الفتاتـان وعمـلًا لحسـابهما، اسـتطاعا وبسـبب انشـغال مريـم بالبحـث عـن جيروزاليـم أخـذ زبائـن مريـم، شـح المـال في اليـد خاصـة أن معـاش جيروزاليـم منـذ رحيلهـا انقطـع.

كانـت أيفـن تذهب للكنيسـة مـن كل أحد تقـف في طابـور الصدقات أحيانـا تأخـذ نقـودًا، وأحيانًـا أخـرى طعامًـا، بالإضافـة لجلبهـا حبـوب الـذرة لتصنـع منهـا الفشـار كمـا كانـت تفعلـه جدتهـا لهمـا، وتبيعـه، بالـكاد كانـت مريـم تؤمـن مصاريـف علاجهـا وعـلاج سـام، وكانـت أيفـن الصغـيرة تتكفـل بالبـاقي بقروشـها القليلـة ومـا تأخـذه يـوم الأحـد أو تجـود بـه الجـارات، كانـت الطفلـة دائمـة التطلـع لـكل مـا هـو ثمـين رغـم مـا كانـت تعيـش فيـه مـن فقـر مدقـع تبهرهـا مجوهـرات السـيدات الثريـات وملابـس أطفالهـن، تمـر مـن أمـام المتاجـر المرصوصـة عـلى أرففهـا الألعـاب تمـني نفسـها لعلهـا في المسـتقبل تظفـر بواحـدة، وفي يـوم كانـت ذاهبـة للكنيسـة وبيدهـا وردة تفـرد أوراقهـا مـال أم طعـام، أي الصدقـات سـتأخذ، مـرت بجانبهـا طفلـة ترتـدي فسـتانًا زهريًّـا كفسـتان الأمـيرات، كان جميـلًا جـدًّا، وددت لـو كان معهـا مثلـه، أثنـاء الصـلاة دعـت أيفـن بداخـل نفسـها: «يـا الله اجعـل والـدة تلـك الفتـاة تتـبرع بفسـتان ابنتهـا في العيـد القـادم للكنيسـة ويكـون مـن نصيـبي»، بالفعـل وقبيـل العيـد حـين كانـت ذاهبـة مـع سـام لتصطـف في الطابـور تنتظـر كسـوتهما، وإذا بهـا تلمـح الفسـتان لـم تـنزل عينيهـا مـن عليـه حـتى أخذتـه أحــد الفتيــات حينهــا، قفــزت أيفــن في الهــواء تجاهــه وتمســكت بذيلـه وهـو بيـد الفتـاة الأخـرى، وقعـت حينهـا عـلى الأرض وتمـزق معصمهـا، لكـن إحساسـها بالحـسرة تجـاه الفسـتان كان أقـوى، ممـا أفقدهــا الإحســاس بالألــم كانــت تــصرخ وتبــكِ وتقــول: «لا، اتــركي

لي هـذا الفسـتان، لقـد دعـوت الله مـن أجـل الحصـول عليـه». رأف بحالهـا أحـد القساوسـة وأعطاهـا الفسـتان وأرضى الفتـاة الأخـرى، صبيحـة يـوم العيـد كانـت أيفـن تتبخـتر مرتديـة الفسـتان وهـي مزهـوة بنفسـها فقـد حصلـت عـلى مـا تمنـت.

بعـد ستة أشـهر فقـدت مريـم الأمـل في العثـور عـلى جيروزاليـم واستسـلمت لوصيتهـا، عـلى الإخـوة أن يجتمعـوا، ومـن ثـم يحـل اللغـز، وفي يـوم تفاجـأت مريـم بمطيـع يدخـل البيـت بعـد غيبـة طويلـة ومـن خلفـه جيكـوب، كان مطيـع يرحـب بـه في ذهـول ودهشـة مـن مريـم: «تفضـل سـيد جيكـوب، تفضـل مـن هنـا سـيدي». أجلـس مطيـع جيكـوب في حجـرة الضيـوف، ثـم هـرول تجـاه المطبـخ جالبًـا في يـده كوبًـا وجلـس بجـوار جيكوب عـلى الأرض يصـب لـه الخمـر مـن زجاجـة أحضرهـا معـه، كان مطيـع كالكلـب المطيـع بالنسـبة لجيكـوب، ملازمًـا إيـاه مجيبًـا لأوامـره. فقـال جيكـوب وهـو ناظـر إلى مريـم تقطـر مـن عينيـه نظـرات التشـفي ويمـلأ وجهـه الحقـد: «قـل لأمـي يـا مطيـع إن ابنهـا جيكـوب هنـا». فجلسـت مريـم عـلى الكـرسي المقابـل وأجابتـه: «أمـك رحلـت بـلا عـودة يـا جيكـوب». فـزع جيكـوب وقـال: «ماتـت؟» أجابتـه مريـم: «لا، بـل رحلـت، ورجوعهـا مشـترط بوجودنـا نحـن الثلاثة معًـا في ذات الوقـت والمـكان؛ أنـا وأنـت وإسـماعيل، أظنـك تعـرف إسـماعيل؟». قـال جيكـوب بكلمـات متلاحقـة: «أعرفـه، هـذا الـذي أنجبتـه بعـدي ورضيـت أن تربيـه، وفرقـت في المعاملـة بيـني وبينـه». ثـم وقـف أمـام مريـم مشـيرًا بإصبعـه مهـددًا: «اسـمعي، تلـك ليسـت حجـة لأبحـث معـك عمـا يسـمى إسـماعيل، سـأجد أمـي آجـلًا أم عاجـلًا، ولـن يكـن يومهـا لـك فيهـا حـق أو لأي أحـد غـيري». بعدهـا رحـل

ومـن خلفـه مطيـع يلهـث وراءه.

أسـبوعان وأتى خـبر مطيـع أنـه وجـد ميتًـا أسـفل أحـد الكبـاري والسـبب جرعـة مخـدرات زائـدة، لـم تسـتبعد مريـم بـل كانـت متأكـدة أن جيكـوب وراء الحـادث، عـاد جيكـوب لينتقـم ويحـارب مريـم عـن بعـد، بـلا أن يـترك أي بصمـة توحـي بأفعالـه أو دليـلًا عـلى إدانتـه، دفنـت مريـم مطيـع في مدافـن عائلتـه، وكانـت تلـك الزيـارة آخـر مـرة تذهـب فيهـا مريـم لمنبـت والدهـا بولـس، وهـا هـي تتـوالى حبـات عقـد المفقـود، شـخص وراء شـخص، عـادت مريـم تحـاول مـع أيفـن جاهـدة، تـارة تتوسـل لهـا، وتـارة تعنفهـا كي تبـوح بـسر جدتهـا، صحيـح كانـت أيفـن تشـعر بالشـفقة عـلى مريـم حـتى أن البـوح بالـسر كان يصـل للسـانها يحـاول العبـور مـن خلـف شـفتيها، لكنـه كان يفـر سريعًـا، وكانـت تقـول في نفسـها: «لا لـن أخـون العهـد».

كان جيكـوب يمـر مـن حـين لآخـر يسـتفسر عـن أي خـبر حـتى هـو فقـد الأمـل في إرجاعهـا إلا بإرجـاع إسـماعيل.

-١٤-

عـشر سـنوات مـرت، ووصـل بنـا قطـار التاريـخ إلى عـام ١٩٨٤، حقبـة جديـدة بـدأت، مريـم تسـترجع إلى حـد مـا قواهـا، أدارت المشـغل مـع تغـير الموضـة، طالـت الجيبونـات وارتفعـت فتحـات الصـدر في الفسـتان لتغطـي حـتى الرقبـه، الكثـيرون بـدأوا في ارتـداء الحجـاب، وحـتى مريـم كانـت ترتـدي «البونيـه» خوفًـا مـن هـؤلاء مـن كانـوا يمشـطون الشـوارع يبحثـون عـن أي مقـصرة لملابسـها أو مسترسـلة بشـعرها، أخـذ الجميـع طابـع التديـن ليـس عـن علـم وديـن، ولكـن مـن خـوف وذعـر وأصبـح الاحتشـام مظهـرًا سـائدًا عـن كونـه جوهـرًا عـن اقتنـاع.

كـبرت أيفـن وبداخلهـا حـس مـن الجمـال ورثتـه مـن مريـم وجيروزاليـم، أكملـت تعليمهـا المتوسـط بجانـب عملهـا المسـاعد لمريـم؛ حيـث كانـت تحيـك الثيـاب وكانـت أيفـن تطرزهـا، ثـم تأخذهـا لتوزيعهـا عـلى المتاجـر والمحـلات الكـبرى، أحيانًـا كانـت تأخـذ منهـم الملابـس غـير مطـرزة تشـبه الخـرق الباليـة تطرزهـا بيدهـا وتعيـد تنسـيقها وتشـكيلها ليبيعونهـا هـم بأسـعارهم الباهظـة مقابـل فتـات كانـوا يعطونـه لأيفـن، تغـيرت الطبقـة لتظهـر عـلى السـطح طبقـة أخـرى مـن زوجـات رجـال الأعمـال والحيتـان ورجـال الديـن المتكسـبين ممـا أعطاهـم الله مـن علـم قليـل وأعطتهـم الحيـاة مـن مكـر عظيـم، خـذي يـا أيفـن طـرزي هـذا الفسـتان أتقـني صنعـه، فهـو لفلانـة زوجـة رجـل الأعمـال الفـلاني، وهـذه عبـاءة لزوجـة الشـيخ الفـلاني. يخـرج العمـل مـن تحـت يدهـا

باسم صاحب دار الأزياء، وتظل هي الجندي المجهول خلف كل قطعة ثمينة. سام لم ينل من التعليم إلا أقل القليل بالكاد يكتب ويتعلثم في القراءة، كانت أيفن هي كل دنياه وكانت عصاه التي يتعكز عليها، ويلوح بها في وجه أي مضطهد له، لا تدري إن كانت أيفن تكتسب القوة من ضعفه أم أن ضعفه هو المتسلل منها إليه.

مريم كانت بمثابة المجداف الذي تجدف به أيفن، ولولا وجودها صامدة حولها لغرقت منذ زمن، كانت أيفن تجلس أمام مريم؛ الأولى تطرز قطعة ثياب، والثانية كانت تحيك أخرى، توقفت أيفن فجأة، تأملت وجه مريم متعمقة في مداخله، تمر عبر زواياه، فسحبت أيفن دمعة تسللت من عينها أحست بها مريم:

- هل تبكين يا أيفن يا حبيبتي؟ مسحة الحزن التي على وجهك لو كنت فقط أستطيع محوها لكنت ارتحت، أحيانا يخيل لي أنك تسألين، ماذا أذنبت في الحياة؟ ما الذنب الذي اقترفت حتى أعاقب بأضعاف ما تحتمل نفسي.

تنهدت مريم تاركة من بين يدها قطعة القماش:

- بداخلي صدى يا حبيبتي يؤرقني، إلى متى ستظل مقاومتي، والحمل قد ازداد وتثاقل وتضاعف، هم الوحدة والفقد والحنين لنا الله يا أيفن، فقد حملت ذنب الأسلاف ولعنة الآباء، حبيبتي لو تبوحي لي بالسر ربما لارتاح فؤادي المضطرم على جدتك.

بدموع متتالية قالت مريم:

- لما تخليتي عن جيروزاليم يا أمي؟

- أنـت لـم تعـاصري الأحـداث يـا أيفـن، لـم تكـن جيروزاليـم في أشـد فـترات احتياجـي لهـا أمًّـا جيـدة، إن جيكـوب ليـس بالبعيـد عنـك، إنـه ابنهـا الـذي أنجبتـه مـن قاتـل أبي، أتدريكـن حجـم تلـك الحقيقـة عـلى نفـسي، ضيعـت جيروزاليـم آمـالي كلهـا.

- وهل كنتِ أنت ابنة جيدة؟

سريعًا مسحت مريم دموعها وأمسكت بما كانت تعمل فيه:

- عليك تسليم الثوب المطرز غدًا يا أيفن لا وقت للحديث.

رغـم هـذا كانـت مريـم شـجرة البلـوط العاريـة مـن فروعهـا الصامـدة بجذورهـا، رغـم العواصـف مـا زالـت متشـبثة بـالأرض مـا زالـت متشـبثة بجيروزاليـم.

وفي يـوم شـتوي ملتهـب الصقيـع، كانـت لفحـة الـبرد فيـه تمـر عـلى الوجـه فتلسـعه كالسـوط، أجلسـت أيفـن سـام عـلى سريـره، تهيـل فوقـه الأغطيـة الكثيفـة خوفًـا عليـه مـن أزمـة جديـدة قـد تـؤدي بحياتـه، غريـب سـام في كل وعكـة وأخـرى يقـرر الأطبـاء أن تلـك نهايتـه، مـا يلبـث في مرضـه أيامًـا وربمـا أسـابيع حـتى ترجـع حالتـه لتسـتقر، كانـت أيفـن تقـول لنفسـها: «أليسـت تلـك بقـوة». وتجيبهـا مريـم: «نعـم هـي قـوة، سـام قـوي، إنـه رغـم الضعـف قـوي». جلسـت مريـم كعادتهـا حـين يوجعهـا الشـتاء بالحنـين لـدفء الأحبـة المفارقـين، تلبـس شـال جيروزاليـم تحتضـن نفسـها بـه، تسـتجمع ذكريـات الغـوالي مـن أنفـاس أبخـرة القهـوة السـاخنة في فنجـان لطالمـا لامـس شـفتي جيروزاليـم، تلبـس كوفيـة كان ريـكي قـد أهداهـا لهـا، سـألتها يومًـا عنهـا أيفـن، فقالـت لهـا إنهـا مـن صديـق، ولـم تذكـر لهـا اسـم ريـكي الـذي حدثتهـا عنـه جدتهـا، جلسـت تطالـع أحـد الصحـف القوميـة وفجـأة خرجـت منهـا صرخـة

نجاة وقالت: «هو، إنه هو». أمسكت أيفن الجريدة منها بدون أن تفهم شيئًا، ثم قالت مريم لها: «انظري يا أيفن، إنه هو عماد كمال، أخو إسماعيل».

كان خبرًا عن القبض على أحد المتورطين في أحداث الإرهاب المندرجة تحت أهداف الجماعات المتطرفة، بسرعة خرجت مريم وسط الأمطار والوحل والصقيع لا تدري أيفن إلى أين.

في المساء دخلت مريم متخشبة ترتعش أطرافها من البرد، جسدها دافئ وعيناها متورمة بادرتها أيفن:

- ماذا حدث يا أمي؟

ألقت مريم نفسها على أقرب كرسي وبأنفاس متقطعة قالت:

- ذهبت لمحامي ليوصلني لإسماعيل عن طريق تتبع خيط أخاه.

- وما أداراك أنه هو بالفعل أخو إسماعيل.

- كانت صورته بجوار اسمه، لا يمكن أن أنسى ذلك الوجه الذي أفلت يدي من يد إسماعيل ما حييت.

لم تهتم حينها أيفن بأي شيء سوى مرض مريم الذي بدأ يشتد عليها، ارتفعت درجة حرارتها، ماذا تفعل أيفن في هذا الليل الساكن بوحشة الوحدة؟ فتحت النافذة مستقبلة المطر بيديها تدعو لمريم، كما كانت تفعل جيروزاليم حين ترى أمطار السماء، استجمعت دعواتها وبعض الآيات القرآنية والصلوات والترنيمات، كانت تأخذ دعوة من هنا وصلاة من هنا، آية من هنا وسطر من الإنجيل من هنا، تتردد على لسانها قولة: «يا ربي أنت أعلم بحالي، وأن ليس لي سواها، فباسمك الحق اشفها».

ثـم أنهـت دعاءهـا بمـا كانـت تنهـي جدتهـا دعاءهـا بالصلاة والسـلام عـلى محمـد وجميـع المرسـلين، ولـو كانـت تعـرف مـن الأسـفار شـيئًا لكانـت ذكرتـه، كانـت كالتائهـة الضالـة أسـفل السـماء.

لا تـدري كـم مـن الوقـت مـر عـلى وقوفهـا في النافـذة حـتى انتهـت زخـات المطـر، ذهبـت لمريـم فوجـدت أن درجـة حرارتهـا قـد هـدأت قليـلًا وانتظمـت أنفاسـها، ثلاثـة أيـام ومـا زالـت الأم مريضـة، لـم يكـن مرضهـا بدنيًّـا، كان نفسـيًّا أكـثر عـلى الرغـم مـن انتظامهـا في العـلاج، ربمـا القلـق، ربمـا الخـوف، ربمـا الترقـب مـن رهبـة اللقـاء إو إمعـان الغيـاب، دق البـاب وآه مـن وقـع دقـات البـاب عـلى قلـب أيفـن، كانـت تتوقـع أن يكـون جيكـوب؛ لأن مـن عادتـه المـرور بـين الحـين والحـين ليثبـت وجـوده ويرحـل كريـح خبيثـة مـرت عـلى حـين غلفـة، فتحـت البـاب وكانـت مريـم تجلـس في الصالـة حـين لمحتـه مقبـل باتجاههـا، إسـماعيل شـاب جميـل المحيـا، مبهـج الطلعـة تـدور حـول وجهـه هالـة مـن الشـعر الأسـود الكثيـف، مختومـة جبهتـه بعلامـة الصـلاة، يرتـدي جلبابًـا أبيـض ناصعًـا كأنـه قطعـة مـن وجهـه، أول مـا رأتـه مريـم تـراءت لهـا ذكريـات هيهئتـه أخافتهـا فابتعـدت خطـوات للـوراء، شـعر بخوفهـا إسـماعيل فأقبـل نحوهـا أكـثر، وذكرهـا بكلماتهـا: «سـأظل أختـك يـا إسـماعيل رغـم اختـلاف دياناتنـا، سـيبعدونك عـني وسيسـخر منـك بـاقي إخوتـك، لكـني سـأظل أختـك يـا إسـماعيل». ثـم أخـرج مـن كيـس يحملـه آخـر هداياهـا لـه، وقـال: «لـم يتسـنى لي ارتـداءه يـا مريـم، كان يحتـاج ضبطًـا وقـد احتفظـت بـه حـتى ألقـاك لتعيـدي حياكتـه». حينهـا قذفـت مريـم بنفسـها في حضـن إسـماعيل، بلـل دمعهـا لحيتـه، وبللـت دموعـه خصـلات شـعرها، التقـى الأخـان بعـد

سـنين الغيـاب.

قبـل كل شيء سـأل إسـماعيل عـن جيروزاليـم ، فحكـت لـه مريـم القصـة منـذ آخـر مـرة افترقـا فيهـا، وضـح لهـا إسـماعيل الفـارق بينـه وبـين أخـاه رغـم تشـابه الملبـس والهيئـة، إلا أن العمـق مختلـف تمامًـا عـن الظاهـر بينهمـا، كمـا أنـه بـرئ مـن أفعـال أخيـه المتطرفـة عـن الديـن الإسـلامي، اطمأنـت مريـم وأيقنـت حقيقـة كانـت غائبـة عنهـا، فـلا يجـب أخـذ جميـع البـشر بذنـب إنسـان لمجـرد قـرب الصلـة بينهمـا، لـم يتبـق سـوى جيكـوب وانتظـار رجوعـه المفاجـئ، شـهر ونصـف ولـم يـأت جيكـوب، لـم يكـن للانتظـار قيمـة عنـد مريـم أمـام التقائهـا بإسـماعيل، شـاع في المـنزل الفـرح مـن جديـد بعـد رجـوع الغائـب، كان إسـماعيل متزوجًـا مـن فتـاة جميلـة الـروح ناعمـة التعامـل هادئـة الطبـع، إذا مـا تكلمـت كأنمـا الزهـر مـن حولـك انتـثر، وإذا مـرت بجانبـك كأنمـا النسـيم قـد ألقـى السـلام عليـك. أحبتهـم وأحبوهـا، كانـوا يتحدثـون في كل أمـور الحيـاة مـا عـدا الديـن والعقيـدة، فالحيـاة لـم تضيـق جوانبهـا وتنفـذ منافذهـا إلا مـن الدخـول في مسـلمات الآخـر وعقائـده، مـا دخـلي بديانتـك مـا دام حسـن المعاملـة ثالثنـا، ولمـا أطلـق نـيران الاختـلاف والخـلاف بيننـا مـا دامـت سـتلتهمنا نحـن الاثنـين، فثوابـتي العقديـة تثبـت إيمـاني ولا تهـز حسـن جـواري بـك.

أتـت ريـاح الـشر تحـوم مـع بدايـات زعابيـب أمشـير، جـاء جيكوب وقـدر أن إسـماعيل كان يومهـا موجـودًا، يـا لهـا مـن نظـرة رمـق بهـا جيكـوب إسـماعيل، أشر مـن الـشر ذاتـه، تـكاد تخـرج منهـا سـهام الحقـد والكراهـة لمـن اسـتعوضت بـه أمـه عنـه، هنـا وعنـد نقطـة الالتقـاء وجـب كشـف الـسر قالـت أيفـن:

- إن جـدتي جيروزاليـم بخـير وهـي عـلى قيـد الحيـاة، سـأبوح لكـم بالـسر المكنـون بداخـل قلـبي منـذ سـنين، تذكريـن يـا أمـي حـين كنـت بالمشـفى، وبعدمـا خرجـتِ طلبـتِ مـن جـدتي الرحيـل، جـدتي بالفعـل كانـت سـترحل لـولا أنـك طلبـتِ منهـا الرحيـل بلسـانك لكانـت أخبرتـك عـن وجهتهـا، لكنهـا ودت لـو تجعلـك تدركـين أهميـة وجودهـا معـك ومـن منكمـا هـو حمـل الآخـر وهمـه.

قاطعتها مريم:

- تكلمي يا أيفن أتوسل إليك.

- جيروزاليـم تعمـل في خدمـة المصليـين في مصـلى النسـاء بداخـل جامـع الأزهـر.

بعدمـا تركـت جيروزاليـم المـنزل لا تحمـل سـوى صندوقيهـا؛ حامـل الرسـالات السـماوية وصنـدوق الذكريـات، توجهـت في البدايـة للحـدود الفلسـطينية المصريـة بـين رفـح المصريـة ورفـح الفلسـطينية، كانـت تأمـل في توديـع أرض القـدس للمـرة الأخـيرة، لكن الصدمـة الأكـبر كانـت لهـا بالمرصـاد فبعـد اتفاقيـة كامـب ديفيـد، والـتي كان مفادهـا انتهـاء حالـة الحـرب بـين إسرائيـل ومـصر وتحسـين العلاقـات السياسـية والاقتصاديـة وفتـح أبـواب لمشـاريع متبادلـة ومـد جسـور سـياحية ودبلوماسـية بـين الشـعبين، لـم تعـط الحـق لجيروزاليـم في العبـور للقـدس الـتي كانـت لا تـزال تحـت الاحتـلال الإسرائيـلي، وقـد فرضـت إسرائيـل عليهـا سـلطتها والدخـول إليهـا يلزمـه تأشـيرة إسرائيليـة، ضاعـت جيروزاليـم أسـفل أقـدام السـلام لترجـع خائبـة الآمـال، رجعـت أدراجهـا ومنهـا إلى الجامـع الأزهـر.

عـلى الفـور هـرع الأبنـاء الثلاثـة للقـاء الأم، ذهـب كل مـن إسـماعيل ومريـم كجـزء مـن جيروزاليـم يريـدون رد أنفسـهم إليهـا،

بينما كان كل هدف جيكوب هو امتلاكها وأخذها معه، سافرت القلوب قبل الأجساد ترفرف على جناحي الحنين، توضأ الثلاثة قبل دخولهم المسجد، سألوا عن جيروزاليم، ومن لا يعرف جيروزاليم أول من وجدها كانت مريم، لمحتها وهي واقفة ما زالت بشموخها وكبر مقامها بيدها زعافة صغيرة من الريش تمسح بها أرفف المصاحف، لم تكن جيروزاليم لاحظت وجود مريم، توجهت مريم نحوها، ثم وقفت متأملة وجهها دون أن تنتبه حتى التفتت جيروزاليم.

- أمي.

ثم اختفت مريم في حضن جيروزاليم.

اصطف الثلاثة حول جيروزاليم، أرادت مريم أن تعاتبها، وأراد إسماعيل أن يقبل يديها، وكان جيكوب يريد تعنيفها لتركها إياه، لم يقدر أيٌّ منهم فعل ما أراد تيبست الإرادة أمام جلالها، تناثرت الكلمات حول وجودها، بصوتها الهادئ قالت: «جميعكم أبنائي، إرادة الله أبيت أم شئت، بالرضا أبنائي». ثم نظرت لمريم: «بالغصب أبنائي»، ونظرت لجيكوب: «بالقلب أبنائي». ونظرت لإسماعيل، ثم تنهدت تنهيدة عميقة عمق السنين الماضية من عمرها، عمق الألم داخل قلبها المقدس، جيروزاليم ... من صبت الدمع في كئوس أعدائها ترويهم، تزرع بساتين الشر بداخلهم، جف حتى نبع دمعها، تساقطت الدموع من عيون مريم تغسل أيدي جيروزاليم وهي جاثية على ركبها أمامها: «سامحيني يا أمي». رفعت جيروزاليم رأسها: «علام أسامحك يا مريم، أنا لا أذكر سوى عينيكِ الجميلة تراقبني من بعيد تحميني رغم كونها منزوعة السلاح، قدمتِ كل ما استطعتِ يا مريم علام

الندم»، مدت يدها نحو إسماعيل: «اشتقت إليك يا إسماعيل». قالت هذه الكلمات وهي تمد يدها الأخرى نحو جيكوب لولا أنه جذبها بعنف نحوه، وهو ممسك بملابسها لأخبرته أنها ما نسيته مرة في أفراحها أو أحزانها وبلهجة تعنيف قال لها: «وأنا ألست ابنك، وأنا ألست من تبرأت منه، من قسوت عليه، من فيهما مثلي أنا، من فيهما تركته بإرادتك سواي أنا؟ أجيبيني أيتها الأم المزيفة».

حاول إسماعيل ومريم رد جيكوب عن جيروزاليم، بصعوبة أفلتا قبضته من حول رقبتها، تهاوت جيروزاليم تتأرجح على الجانبين وفي لمح البصر سقطت، انهارت كل عمائدها، تساوت أسوارها بالأرض، ماتت الأم، ماتت جيروزاليم أسفل أقدام مريم، ماتت الأرض أسفل شجرة البلوط.

-١٥-

كتب في تقرير الوفاة، سكتة قلبية أودت بالوفاة، عاد إسماعيل ومريم معًا حاملين ما تبقى من جيروزاليم، صندوقها المصدف حامل الرسالات السماوية الثلاث رفيق رحلتها حتى الرحيل عن الحياة.

سافر إسماعيل لأحد دول الخليج ليعمل طبيبًا هناك، ولم ينزع صلته بمريم حتى بعد وفاة جيروزاليم، وكان جيكوب كالشيطان دائمًا بالقرب وتخاله غير موجود، لم تلمح أيفن مريم يومًا مجهشة بالبكاء سواء على مطيع أو جدتها، تفوق الآلام أحيانًا حزن العيون، فآلام الأرواح وأحزان القلوب لا تشي بسرها الدموع، هي كالطعنة مدفونة في النفس ولا سبيل لخروجها في زفرة آه أو دمعة عين، كانت أيفن في ريعان شبابها وتشعر أنها في أواخر خريف عمرها، دائمًا ما يرجفها صقيع الشتاء ولو كانت في الصيف، منذ رحيل جدتها افتقدت الدفء، وما زالت تفتقده، أهملت مريم عملها مرة أخرى، وتكدست فوق كتف أيفن الأعباء، يا شقاء العمر ألا نهاية لك، حتى خدمة سام وأعباء المنزل أرجعتها خلف ظهرها، كانت كالنحلة منذ الصباح الباكر وحتى المساء في كد مستمر، كانت أمًّا لأمها ولأخيها وعائل البيت الوحيد.

وفي يوم طلب سام أن يسير حول حمام السباحة، لم تكن أيفن لتمانع طلبًا يطلبه سام رغم أن قبلها ولمدة يومين لم تذق عيناها النوم إلا غفوات، فالأجر مرهون بكم ما تعمل،

والحيـاة تسـابقها في الغلـو وارتفـاع الأسـعار، لـم يكـن هـين عـلاج مريـم وعـلاج سـام، أحيانـا كانـت أيفـن تشـتكِ لمريـم طالبـة منهـا ولـو بعـض المسـاعدة، فتقـول لهـا: «أنـت حـرة يـا أيفـن، اتـركي أمـك وأخـاك، تخـلي عنـا، فـدور الصدقـة مـا أكثرهـا، اتركينـا نتسـول لقمـة العيـش واهنـئي أنـت بالراحـة والسـعادة». فتجيبهـا أيفـن بداخـل نفسـها مفضلـة إبـداء الصمـت أمـام مكـر أمهـا: «أي راحـة وأي سـعادة وسـط الفقـر المدقـع الـذي نعيشـه، جميـع زميـلاتي في العمـل لا ينفقـن جنيهًـا واحـدًا عـلى أهاليهـم كمـا أفعـل أنـا إلا مـن بـاب المسـاعدة وليـس الفـرض والواجـب، لسـت قـادرة عـلى الخـروج معهـن أو تبـادل الهدايـا، لا أطمـح حـتى في التفكـير في كـوني سـأرتبط يومًـا بشـاب، لمـن سـأترك عائلـتي وهـي معلقـة في رقبـتي كقيـد مـن حديـد ضـاع مفتاحـه». بينمـا تتصـارع الأفـكار داخـل عقـل أيفـن وهـي تتذكـر حواراتهـا مـع أمهـا، زاغـت عيناهـا وفقـدت اتزانهـا لتجـد نفسـها تغـوص لأسـفل عمـق حمـام السـباحة وهـي تـصرخ سـام سـام.

فتحـت عيناهـا لتجـد أمامهـا هـذا الشـاب الأسـمر في لـون الحنطة، والباسـم أمامهـا كإشراقـة فجـر يـوم وليـد: «هـل أنـت بخـير؟» أول مـرة يسـألها أحـد عـن حالهـا، ظنـت أنهـا مـا زالـت في غيبوبتهـا، فقالـت لهـا مريـم: «رومـاني، الشـاب الشـجاع أنقـذك ولـم يبـال بسرقـة شـنطة تجارتـه، وأصر عـلى إحضـارك». إنهـا أول مـرة يهتـم بهـا أحـد دون نفسـه، لـم تـذق أيفـن يومًـا معـنى مسـئولية الأب تجـاه ابنتـه أو حنـان الأم تجـاه ابنتهـا، ولا خـوفَ الأخ عـلى أختـه حـتى ظهـر رومـاني، ولمـاذا كان رومـاني وليـس عـلي أو محمـود مثـلًا؛ لأنـه وببسـاطة شـديدة حـتى أبسـط أماكـن الترفيـه كانـت مرتبطـة

بالكنيسـة، فهـذا النـادي برعايـة الكنيسـة، وهـذه المدرسـة تحـت سـلطة الكنيسـة، وهـذه المكتبـة ...، وهـذا العمـل ...، وهـذا المتجـر؛ كل مـا يحيـط بهـا كان يتبـع الكنيسـة وأغلـب هـذه الأماكـن كانـوا يتمتعـون بهـا مـن بـاب الصدقـة لسـوء ظروفهـم، بعـض الأسر كانـت تهـب بـلا مقابـل، وغيرهـا كان يدفـع لقـاء الخدمـات، وآخـرون يأخـذون بـلا مقابـل، وكانـت أسرة أيفـن ممـن يأخـذون بـلا مقابـل.

دخـول رومـاني في حيـاة أيفـن كان كتسـلل لـص محـترف، تسـلل لقلبهـا وعقلهـا خلسـة منهـا، كل يـوم يتصـل للاطمئنـان عليهـا، كانـت وجنـتي أيفـن تشـتعل حمـرة مـن الخجـل عندمـا تخبرهـا مريـم أن رومـاني يطمـئن عليهـا، ولـم تشـك مريـم بـشيء، اختلفـت أيفـن عـن مريـم في خجلهـا وغموضهـا عكـس جـرأة مريـم وصراحتهـا، كانت أيفـن فتـاة جذابـة بملامـح هادئـة خادعـة ذات وجـه ناصـع مسـتدير متـشرب بحمـرة ورديـة اللـون، وجبهـة عريضـة فـوق عينـين زرقاويـن بلـون بحـر هـادئ بـلا أمـواج، وأنـف دقيقـة، وشـفتين أدق أسـفلهما الذقـن ثغـرة وجـه شـامي جميـل لا تحركـه أي تعبـيرات، ذات شـعر ذهـبي ناعـم مسترسـل دائمًـا خلـف ظهرهـا ومربـوط بشـكل منظـم بشريـط شـعر، لا ترتـدي مـن الملابـس إلا مـا هـو عمـلي قميـص أو تيشـيرت وبنطلـون جيـنز فـوق حـذاء خفيـف، شـديدة الشـبه بجيروزاليـم لدرجـة التطابـق.

في ليلـة كانـت أيفـن تعـد طعـام يـوم الغـد وقبـل نومهـا جاءتهـا مريـم وجلسـت عـلى غـير عادتهـا بجانبهـا:

- دبـري نفسـك سـنعزم رومـاني، مـتى يكـون معـك المـال الـكافي أخبريـني، الرجـل أنقـذك مـن المـوت وهـذا أقـل مـا يمكـن فعلـه تجهـاه.

نظـرت أيفـن لمريـم بغضـب: ومـا ذنـبي أنـا إن كنـت توديـن ضيافـة أحـد، ألا تلاحظـين أني أحـترق مـن أجـل البيـت، ألا تلاحظـين أني أكاد أواصـل الليـل بالنهـار عمـلًا في الخـارج والداخـل، ليتـه لـم ينقـذني حـتى لا أحتمـل عبئًـا فـوق أعبـائي الثقيلـة.

لـم تؤثـر الكلمـات في مريـم بـل عـلا صوتهـا تحديًـا: تعايريـن أمـك يـا أيفـن تتبرأيـن مـن أخـاك المريـض!

- قالـت وهـي تقبـل يديهـا تستسـمحها: لا يـا أمـي، لا هـذا ولا ذاك، فأنـا إن كان في إمـكاني أن أذيـب نفـسي مـن أجلكمـا مـا تأخـرت، لكـني تعبـت هـذا كل مـا في الأمـر.

- إذا كان هكـذا فـلا بـأس يعينـك الله، أمامـك يومـين لتجهـيز الضيافـة.

قالـت مريـم كلماتهـا بصلابـة ثـم تركتهـا وحدهـا، وردت أيفـن بصـوت ضعيـف لـم يكـن مـن العلـو ليصـل أسـماع مريم: أي قسـوة هـذه؟ وأي تبلـد مشـاعر تعانيهـا أمـي تجاهـي؟ لمـا لا تعيشـين يـا مريـم عيشـة أهلـك، لا يكـون في جيـبي سـوى جنيهـات قليلـة وأجدكِ تطلبـين مـني أفخـر أنـواع الطعـام واللبـاس، حـتى أني كنـت أتحامـل عـلى نفـسي مـن أجلـك، هـذا الحـذاء الثمـين مـن أجلـك والرخيـص مـن أجـلي، الفاكهـة الناضجـة أضعهـا أمامـك وآخـذ أنـا العطبـة أو الجافـة، لـم يجـبرني عـلى هـذا سـوى حـبي لـك، وكـم قاسـيتِ يـا مريـم في حياتـك لـن أكـن أنـا والأيـام لـك بالمرصـاد، يكفـي مـا أخـذت مـن الدنيـا مـن صدمـات وصـدات، هـل يعقـل أن أصـدكِ أنـا أيضًـا، آه يـا أمـي ليـت كان بوسـعي محـو آلامـك بسـعادتي ولـو لـم يبـق في عمـري ذرة سـعادة.

اضطـررت أيفـن لأخـذ سـلفة مـن العمـل فهـي تعلـم أن مريـم لـن

تـرضى إلا بوليمـة فخمـة، أحـضرت معهـا إعـدادات الضيافـة وقبلـت رأس مريـم وهـي تقـول: هـذه السـعادة الـتي أراهـا في وجهـك وفي وجـه أخـي سـام وأنتـم تتطلعـون إلى مـا جلبـت ألا تسـتحق العنـاء، وهـذا الـرضى عـلى وجهـك يـا أمـي لا يضاهيـه المـال.

تكرمـت الأم في المسـاعدة، أعـدا كل شيء عـلى أكمـل وجـه، وجلس الثلاثـة ينتظريـن روماني.

رن جـرس البـاب، هرولـت أيفـن لحجرتهـا تتطلـع للمـرآة وترتـب نفسـها، يـال المفاجئــة هــلَّ عــلى المــنزل إسـماعيل، كانــت تلــك أجمـل الصـدف عـلى قلـب أيفـن، اثنـان مـن أعـز النـاس اليـوم في بيتهـا؛ خالهـا إسـماعيل ورومـاني، كان لا يـأتي مـن الدولـة الخليجيـة الـتي بعمـل بهـا إلا مـرة في العـام، لـم يكـن يتأخـر عـلى مريـم في أي طلـب تطلبـه، خصـص لهـا راتبًـا شـهريًّا لـم تكـن أيفـن تـراه بعينهـا، مـا أن تأخـذه مريـم حـتى تـنزل للبلـدة تشـتري أشـياء هم في الأسـاس في غـنى عنهـا لا يحتاجونهـا؛ مثـل آلـة تحميـص التوسـت؛ فـإن كانـوا لا يأكلـون التوسـت! أو آلـة تحضـير الطعـام عـلى البخـار وأدوات الغـوص ولا أحـد منهـم يعـرف الغـوص، أو ذهابهـا لأغـلى كوافـير بـدون مناسـبة إلا لأنهـا سـتذهب للأسـتديو لالتقـاط بعـض الصـور، إلى غـير ذلـك مـن أفخـم أنـواع المكيـاج والعطـور الـتي تعـج بـه أدراجهـا، صحيـح أنهـا كانـت مهتمـة جـدًّا بنفسـها لدرجـة أنهـا تظهـر وكأنهـا أصغـر عمـرًا مـن أيفـن، لكـن كمـا لنفسـها عليهـا حـق كـذا مسـؤلية سـام وأيفـن حـق عليهـا، حـين كانـت تحدثهـا أيفـن عـن الأحـوال والظـروف وأن مـا تقـوم بـه تبذيـر غـير نافـع، تتهمهـا بأنهـا طامعـة فيمـا يعطيهـا أخاهـا، وأن هـذه الأمـوال مـن حقهـا وحدهـا وحـين وجـدت أيفـن أنـه لا سـبيل لإفهـام أمهـا حقيقـة الواقـع،

منعـت نفسـها مـن معاتبتهـا.

وسـط الفرحـة باسـتقبال إسـماعيل أتاهـم رومـاني كان متأنقًـا يومهـا جـدًّا، ممـا أضحـك أيفـن مـن قلبهـا، أتى لابسًـا بدلـة كاملـة، مـن الواضـح أنهـا مقـصرة ومعدلـة في الأصـل ليسـت مقاسـه بـل ليـس هـو صاحبهـا، كانـت زيتيـة اللـون يرتديهـا فـوق قميـص أخـضر ربيعـي بلـون أوراق الشـجر، ورابطـة عنـق غريبـة ملائمـة للقميـص مليئـة بالفراشـات الـتي تـكاد تخـرج منهـا لتحـط عـلى أرض القميـص الخـضراء، أمـا الحـذاء فـكان بالفعـل حـذاءه؛ لأنـه نفـس الحـذاء القديـم بـني اللـون الـذي ارتـداه يـوم الحادثـة، كان مجهـوده واضـح جـدًّا في أنـه بـذل أقـصى جهـده في إظهـار وسـامته، لـم يكـن رومـاني جميـل الوجـه، بعكـس ملامـح أيفـن لكـن شـيئًا مـا جذبهـا تجاهـه، بالطبـع غـير أناقتـه، هـذا الطمـوح في عينيـه وهـذا الأصرار في كلامـه أن غـدًا سـيكون لـه، جعلهـا تتعلـق بـه أكـثر بجانـب صفـات مثـل إقدامـه وشـجاعته، إنـه رجـل لا يمانـع في قـذف نفسـه في النـار مـدام سـيحصل عـلى مـا يريـد، شيء كان مشـتركًا بينهمـا.

لـم يكـن وجـود إسـماعيل مقبـول بالنسـبة لرومـاني، فقـد أخفـى وجهــه الحقيقــي وراء وجهــه المقابــل لإســماعيل، بعــد تناولهــم الغــذاء جلســوا جميعًــا لتنــاول الحلــوى وشرب الشــاي، فقالــت مريـم لإسـماعيل: «مـتى سـتودعنا يـا إسـماعيل، نحـن مـا أن نـراك حـتى تختفـي كالدخـان مـرة أخـرى». فـرد إسـماعيل قائـلًا: «لا، لـن أتبخـر ثانيـة، كفانـا غربـة، كـبر الأطفـال يـا مريـم ولا أرى فيهـم أي انتمـاء للوطـن، ابـني الأصغـر كان يبـكي وهـو راجـع عائـد إلى وطنـه مـصر؛ لأنــه سـيفتقد شـجرة زرعهـا في أرض غـير أرض بلـده، ابنـتي الكـبرى كنـت يومًـا أتحـاور معهـا وجـدت أنهـا لا تمانـع أن تـتزوج

من غير أبناء وطنها وتكن أمًّا لغير المصريين». انزعجت مريم وقالت: «ولكن أنت تعلم أصبحت البلاد شحيحة جدًّا على أبنائها، الابن يعمل ويكد من أجل وطنه ويبذل من دمه وعرقه ولا طائل، بل الأحوال تزداد سوءًا». تعجبت أيفن من كلمات أمها كأنها تصف وضعها معها، في العموم مريم كانت خائفة أن يغلق صنبور أموال الخليج وليتها انتفعت بالأموال بل ضيعتها هباءً منثورًا.

اتجه إسماعيل نحو روماني يحادثه: «كلمنا عن نفسك قليلًا يا سيد روماني». فتحدث روماني: «أنا قروي من قرية صغيرة غير موجودة تقريبًا على الخريطة اسمها قرية أبي الحسن، كانت القرية ملك عائلة أبي الحسن، وعائلتنا كانت صغيرة من حيث المال والسلطة والعدد، جميعنا من أصغرنا لأكبرنا كنا نعمل خدمًا لدى ملاك القرية، وبعد ثورة ٢٣ يوليو قسمت الأراضي وأخذ جدي قطعة لا بأس بها، صمم جدي بعدها ألا يعمل هو أو ذريته عند العائلة الكبيرة، كانت الأمور رائعة بالنسبة لجدي وأبي، حتى بدأت عائلة أبي الحسن تسترد قوتها ونفوذها فأخذت تشتري قطع الأرض المأخوذة منها من جديد، ويعود الملاك الصغار يعملون خدمًا مرة أخرى، شخص واحد فقط رفض التفريط في أرضه وكان أبي فقد استمات من أجل أرضه، فضيقوا حوله الخناق، منعوا عنه ماء السقاية وحرقوا حصاده، كان أبناؤهم يلتفون حولي ويصنعون صليبًا خشبيًّا ويقيدوني ثم يهددوني: «انطق الشهادتين أو تصلب»، في الواقع قد أسلمت مئات المرات، كل يوم وعلى هذا الحال قفرت أرض أبي ما عادت تصلح للزراعة ولا لأي شيء، لم ييأس أبي سور قطعة أرضه

واشـترى بضعًـا مـن الغنـم وبقرتـين مـع بعـض الطيـور؛ دجـاج وبـط وأوز كمـا صنـع بـرج حمـام وبـدأ يتاجـر فيهـم، نجـح والـدي، بـدأ يتوسـع في تجارتـه، فأغاظهـم نجاحـه وبـلا مقدمـات حرقـوا مزرعتـه الصغـيرة ومـات والـدي وهـو يحـاول إطفـاء النـيران، لـم يجـد أخـي الأكـبر وأمـي وإخـوتي البنـات سـوى الرجـوع للعمـل تحـت سـطوة عائلـة أبي الحسـن بعـد أن باعـوا أرضهـم، أخـذت نصيـبي ممـا تـرك أبي وحللـت عـلى القاهـرة تاجـرًا متجـولًا يبيـع الإكسسـوارات غـير الثمينـة والخـرز الملـون». تأثـر إسـماعيل بمـا سـمع مـن رومـاني وقـال لـه: «اسـمع يـا رومـاني مـا فعلـه معـك هـؤلاء البـشر ليـس لأنهـم مسـلمون وأنـت مسـيحي لا، إطلاقًـا بـل لأنهـم بدينهـم جهـلاء، حـين يجتمـع الجهـل بالديـن مـع آفـات النفـس البشريـة مـن حقـد وطمـع وزيـف وفسـاد ينتـج عنـه ظلـم عظيـم، أنـت وأهلـك تعرضتـم للظلـم مـن نـاس صـادف أنهـم مـن ديانـة أخـرى، كذلـك مطيـع زوج مريـم تعـرض للظلـم مـن أخيـه الـذي يحمـل نفـس الديانـة أخـذ مالـه وأرضـه، لا تجعـل في غضبـك عنصريـة، لا تغضـب مـن عقائدهـم الملتصقـة بهـم، سـتجد نفسـك بعـد ذلـك تنـصر الظالـم لمجـرد أنـه ينتمـي إليـك، وتبغـض المظلـوم لأنـه يخالفـك العقيـدة وتتحـول أنـت فيمـا بعـد لظالـم، فقـط لأن أحقـادك هـي المحـرك لـك، احـذر أن تقـع في الفـخ يـا رومـاني». وكأن إسـماعيل يقـرأ مسـتقبل رومـاني ومـا سـتئول عليـه نفسـه، فحـذره مـن الفـخ الـذي بالفعـل قـد وقـع فيـه، رد رومـاني بتملمـل: «ربمـا».

انقـضى اليـوم وودعهـم رومـاني ومـن ثـم إسـماعيل، كانـت مريـم راضيـة جـدًّا، لكنهـا لـم تـترك أمـر كـون إسـماعيل سـيرجع نهائيًّـا لمـصر متعلقًـا بعقلهـا مـن حـين لحـين تهمهـم: «هـذا المجنـون

إسماعيل سيترك العز والمال ليلحق بركب بني شعبه المتعلقين بحافلة الحياة في مصر المزدحمة بالبشر، آه لن يلحق أي مكان فالمقاعد شاغرة بالسادة والفارغة منها محجوزة للأحبة والأقارب». كان في كلام مريم جزء كبير من الحكمة والوعي، هي تدرك الواقع حولها، لكنها غير قادرة على التعامل معه وتغييره؛ لأنها غير قادرة في الأصل على تغيير نفسها، فكيف لها أن تغير الظروف وتُسيِّر مجرى الحياة ليصب بين يديها.

أسبوعان منذ استقبال روماني في المنزل، بعدها لم يتصل لا ليشكرهم ولا للاطمئنان عليهم، آثار التصرف كثيرًا من الحزن في نفس أيفن وللصدفة، آه من الصدف، معظم الأقدار تبدأ بصدفة وتنتهي على غفلة، كانت أيفن تمر من الشوارع الخلفية، على عكس ما اعتدات فالشوارع الخلفية رغم تواضعها وضيقها مختصرة، وكانت الشوارع الرئيسية أحب إلى قلبها لازدحامها بالمتاجر الفخمة، والأحذية الثمينة المارة فوق رصيفها، في ذلك اليوم وجدت أيفن قطعة ذهبية صغيرة تعجبت في كون كل هؤلاء البشر ولم يلحظها أحد سواها، إنها لها أمطرتها السماء من أجلها هي، ضمتها لصدرها فرحة بضع خطوات، وإذا بها تجد امرأة تولول لضياع خاتمها الماسي، كان هو نفس الخاتم الذي وجدته أيفن، أعطتها إياه بأدب وإذا بالمرأة تمسك فيها وتصرخ: «سارقة، بالتأكيد لاحظك أحد لذا قررت التخلص منه وإعطائي إياه، كيف لأحد أن يفرط في خاتم مثله وقع تحت يده». ردت أيفن مدافعة عن نفسها: «يا إلهي ولو لم أعطه لك لكنت أمينة في نظرك لكن لأني أعطيتك إياه بعدما وجدته بالصدفة تنعتينني بالسارقة». ثم خطفته أيفن منها سريعًا

وألقت به في النيل، وتركتها تأخذ بيدها على وجهها تود لو ترمي نفسها وراءه، فالحقيرة كانت تفكر بالشكل الذي يلائم أخلاقها.

في هذا اليوم كانت أيفن ساخطة على هذا الشارع وكل ما به، اقتطع المدير الجشع أيضًا من السلفة فائدة يومية من أجرها يكسب من ورائها الكثير، ويقتطع من جنيهات مرتبها ولما عاتبته قال لها: «الأمانة تحكمني والقوانين». ضحكت حتى الثمالة، وتوارد في ذهنها موقفها صباحًا مع المرأة التي أرجعت لها خاتمها فاتهمتها بالسارقة، ضحكت حتى دمعت عيناها وانفطر قلبها، في طريق العودة وسط غضبها المنصرم بداخلها لمحت روماني يشيد في كشك على الرصيف الخلفي المواجه للشارع الرئيسي، وبشكل تلقائي وجدت نفسها تهتف عليه ملوحة بيدها: «روماني روماني». كان صوت أدوات النجارة مرتفع أخيرًا التفت إليها وأبطل الأداة: «أين أنت يا روماني، لا حس ولا خبر». كلمها وابتسامة وجهه لا تفارقه: «كما ترين أقيم كشكًا، أبيع فيه العقود والخواتم والأساور، هذا أحسن من اللف كبائع متجول أليس كذلك يا أيفن؟». قالت له مشجعة: «بالتأكيد هو كذلك يا روماني». ثرثرا قليلًا عن العمل وظروفه، وفي نهاية حديثهما مد يده لها بحقيبة قائلًا: «أريني مهارتك». لم تكن تعرف ما بالكيس حتى وصلت للبيت، أسرعت لحجرتها وفتحت الكيس الذي كان يحوي بضع مجموعات من الخرز والزجاج الملون فقالت لنفسها حين رأتهم: «ما أحلاهم». كان معهم خيط بلاستيكي رفيع، فكرت فيما يمكنها صنعه بهذا الخرز وتلك الخيوط، لكن ما أن أمسكت يداها الخيط والخرز حتى استرسلت حبات الخرز واحدة تلو الأخرى بين أصابعها كالماء

بينهمـا، ليلتهـا لـم تقـم أيفـن بـأي عمـل في الفسـتان الـذي تقاولـت علـى تطريـزه، صنعـت بالخـرز والزجـاج الملـون مـن الأسـاور أربعـة وعقديـن وخاتـم وقرطـين.

في اليـوم التـالي مـرت عـلى رومـاني في الكشـك الـذي كان قـد أنهـى عملـه فيـه، بعـد سـلامه عليهـا وتحيتـه سـألها عـن حقيبـة الخـرز ماذا فعلـت بـه، فتحـت الحقيبـة الصغـيرة وأعطتـه مـا صنعـت، توسـعت عينـاه وبرقـت وهـو يقـول لهـا: «يـا إلهـي أنـت مبدعـة يـا أيفـن، وأمسـك يداهـا وقـال: «هاتـان يـدان مـن ذهـب». ثـم أعطاهـا حقيبة أخـرى فرفضـت متعللـة بثقـل الأعمـال والواجبـات المفروضـة عليهـا ثـم تركتـه ورحلـت، في الواقـع كانـت كلمـات إعجابـه بمـا صنعـت مؤثـرة في نفـس أيفـن أكـثر مـن المـال الـذي يضعـه مديرهـا في يدهـا مقابـل تطريزهـا أحـد الفسـاتين أو المفـارش، كانـت تـود لـو تسـاعده لكـن أيـن الجهـد؟ والأهـم أيـن الوقـت؟

احبـت أيفـن المـرور في الشـارع الخلفـي لوجـود رومـاني بـه، كان كل حديـث رومـاني معهـا عـن قيمـة أن تكـون حـرة نفسـها في العمـل، فالعمـل عنـد الغـير عبوديـة وتقصـير في حـق النفـس، فمديرهـا لا يملـك يدهـا الـتي يـأكل منهـا شـهد العسـل ومـن ثـم يعطيهـا شـمعه، مـا بالـك إن كانـت هـي النحـل ذاتـه الـذي يهبـه العسـل، كلماتـه الثوريـة أثـرت في نفسـها؛ لـذا قـررت التمـرد عـلى مديرهـا، كانـت أيفـن لا تقابـل المديـر ككل العاملـين في الشركـة في مقـر العمـل ذاتـه بـل في الخفـاء بعيـدًا عـن بـاقي العاملـين والزبائـن كي لا تكتشـف هويتهـا، وبالتـالي يسـتطيع هـو طمـس اسـمها فـلا يظهـر للعميـل سـوى ماركـة الـدار الملتصقـة بالملابـس، ولا يـذاع اسـمها بـين العاملـين فتتلقفهـا يـد شركـة أخـرى، لـم تكـن أيفـن تعلـم إن كان

هـذا النظـام متبـع معهـا هـي فقـط أم مـع آخريـن.

ذهبـت كالعـادة لتسـلم عمـلًا قـد أنهتـه وتأخـذ نقودهـا وتتفـق عـلى آخـر، أمسـك المديـر بالفسـتان وقـال لهـا: «جميـل يـا أيفـن، هـذه المـرة سـتطرزين هـذا الفسـتان، انتبهـي إنـه لابنـة أحـد الشـخصيات الهامـة، وسـأورد في عهدتـك تلـك الأحجـار الكريمـة والقطـع الماسـية وعليـك نثرهـا في الـرداء بمـا يمليـه عليـك حسـك وإبداعـك». ثـم أعطاهـا حقيبـة مـن القطيفـة داخـل صنـدوق مزخـرف، ومعـه تعهـدًا عـلى نفسـها في شـكل إيصـال أمانـة بقيمـة مـا في الكيـس القطيفـة مـن مجوهـرات، لـم تمـد أيفـن يدهـا ناحيـة الصنـدوق وقالـت لـه: «لا، أنـا لـن أعمـل معـك ثانيـة، بـل سـأعمل لحسـابي». تظاهـر السـيد بالثبـات بينمـا ارتعشـت نظراتـه أمامهـا: «ومـن أيـن لـك الخامـة يـا أيفـن». فضحكـت ضحكـة سـخرية خفيفـة وقالـت لـه: «نعـم لا أملـك المـادة فأنـت يـا سـيدي كنـت حريصًـا عـلى ألا تعطيـني مـا يزيـد عـن حاجـتي الأساسـية، بـل وإن كان ينقص عنهـا أيضـا كي تكـون الحاجـة هـي الحبـل الـذي تجـرني بـه نحـوك، فـلا يـأتي اليـوم الـذي أملـك فيـه خامـة مـا أصنـع، لكـني سأسـتبدل الحريـر بالكتـان والمـاس بالزجـاج الملـون، الفقـراء أيضـا يلبسـون كمـا الأغنيـاء، لا يوجـد مـن يمـشي عاريًـا وإن كان أشـد النـاس فقـرًا، هنـاك دومًـا مـا يـواري الجسـد، وإن كان مـن ورق الشـجر». هنـا أدرك مديرهـا قوتهـا، فبـدأ يقايضهـا فيزيدهـا بالجنيهـات القليلـة حـتى وصـل لزيـادة مرتبهـا حـتى النصـف، لكنهـا طلبـت الضعـف، رفـض فتركتـه، لكنـه سرعـان مـا لحـق بهـا قائـلًا: «ولـكي مـا أردتي». لقـد انتـصرت إرادتهـا.

أسرعـت أيفـن تبـشر رومـاني بمـا اسـتطاعت تحقيقـه، كانـت تظـن

أن هـذا سيسـعده لكنهـا وجـدت عكـس ذلـك، قـال لهـا: «ومـا النفـع، سـتظلين عاملـة عنـده ولا يـزال هـو يسـتعبدك بالأجـرة، لـن تتحـرري يـا أيفـن إلا لـو صرتي أنـت ربـة نفسـك وعملـك». كانـت كلماتـه كالسـم المـذاب في العسـل المـراق في وريدهـا، كانـت مقتنعـة بكلامـه، لكـن الحاجـة كانـت تقيدهـا، مـا قالتـه للمديـر لـم يكـن سـوى تهويـش أسـد مقتلعـة أنيابـه ومقصوصـة مخالبـه، لا تـدري مـاذا كانـت سـتفعل لـو قـال لهـا لا بـأس عنـدي اتـركي عملـك، رجعـت المـنزل تتصـارع بداخـل نفسـها الأهـواء مـا بـين مـا تريـده بالفعـل ومـا يجبرهـا عليـه الواقـع.

كانـت مريـم جالسـة كعادتهـا تطالـع أحـد الكتـب وبجانبهـا سـام يلهـو بـشيء مـا، لاحظـت مريـم مسـحة الحـزن عـلى وجـه أيفـن، لا زالـت الأم بداخـل مريـم برغـم أفعالهـا وتصرفاتهـا، تشـعر بهـا، إنهـا الأم، مـن قـال إن الأم لا تشـعر بابنتهـا: «مـا بـك يـا أيفـن؟». منـذ زمـن لـم تسـألها مريـم عـن أحوالهـا، ربمـا لأنهـا بالفعـل كانـت أول مـرة تظهـر فيهـا أحـزان أيفـن عـلى مـلء وجههـا، قالـت لهـا وهـي تلقـي بنفسـها عـلى صدرهـا: «تعبـت يـا أمـي تعبـت». أبعدتهـا مريـم عنهـا بعنـف مصوبـة نحوهـا نظـرة غضـب وقالـت: «أمـا زلـت تذكريـن في أي يـوم وعـام ولـدتي يـا مريـم، أم تـراكِ نسـيتي، ولـدتي يـوم الهزيمـة، كنـت أنـا مريضـة لا أقـدر عـلى إرضاعـك أنـت وأخـاك وكان سـام صامتًـا مستسـلمًا، لكنـك لـم تسـتكيني بـل ظللـتِ تصرخـين وتطالبـين بحقـك في الحيـاة، كنـتي تحاربـين يـا أيفـن بشراسـة، أتعلمـين، لقـد خلقـتِ لتكـوني محاربـة يـا أيفـن، أنـت محاربـة، قاتـلي مـن أجلـك قاتـلي مـن أجـل مريـم وجيروزليـم وأورشـا». أحدثـت كلمـات مريـم قشـعريرة بـروح أيفـن وانتفضـت

الحيـاة بداخلهـا، لا لـن تستسـلم سـتقاتل حـتى النهايـة، قـررت ألا تقابـل رومـاني ثانيـة، سـتفعل مـا يصـب في صالحهـا، وتركهـا للعمـل لـن يكـون فيـه نفـع بـل خسـارة عـلى الأقـل في وقتهـا الراهـن آنـذاك.

أسـبوع مـضى كانـت تمـشي فيـه الحيـاة عـلى نفـس وتيرتهـا قبـل معرفتهـا برومـاني لـم تعـد تمـر بالشـارع الـذي بـه كشـك رومـاني، تتحـاشى بـكل الطـرق إلحـاح نفسـها لرؤيـاه، في يـوم كانـت عائـدة مـن توصيـل طلبيـة لصاحـب العمـل، وإذا بهـا تـرى رومـاني أمامهـا لقـد جـاء يطلـب يدهـا، بالفعـل كان يقصـد المعـنى الفعـلي وليـس الضمـني لكلمـة طلـب يـد، كان يريـد يداهـا ولا شيء سـواهما، لـم تكـن أيفـن مدركـة لتلـك الحقيقـة حينهـا ظنـت أنـه الحـب والإعجـاب والتعلـق، تركـت مريـم الأمـر بيدهـا، مـا كانـت تظـن أنـه سـيجيء اليـوم الـذي توافـق فيـه مريـم عـلى عريـس لهـا، وهـي المتكفلـة بهـا وبأخاهـا سـامر، لكـن وجدتهـا تقـول لهـا هـذا قـرارك ومصـيرك، احتاجـت أيفـن لرفضهـا ليكـن حجتهـا أمـام قلبهـا لـترك رومـاني المتعلـق بـه، كان إسـماعيل متخوفًـا مـن رومـاني بعـض الـشيء لكنـه هـو الآخـر تـرك لهـا الاختيـار، أي اختبـار هـذا الـذي وقعـت فيـه أيفـن، هـل تتبـع قلبهـا المتيـم برومـاني أم عقلهـا الباغـض لـه، ففـي النهايـة وافقـت، لـم تكـن إمكانيـات رومـاني الماديـة تكفـي للـزواج برغـم أن إسـماعيل أفصـح لمريـم أنـه سـيتكفل بتكاليـف زواجهـا كلـه بـدون أن تحمـل الهـم كثـيرًا، أقامَـا نصـف إكليـل عـلى وعـد مـن رومـاني أنـه في غضـون عـام سـيقيم إكليـلًا كامـلًا.

أسـبوعان منـذ خطبتهمـا لـم يغـير وجـود رومـاني أي شيء مـن روتـين أيفـن المعتـاد، كانـت يدهـا فارغـة واليـوم التصـق بهـا خاتـم رومـاني يحيـط أحـد أصابعهـا، ذات يـوم كانـت جالسـة معـه في

الكشـك، لـم تـر أيفـن رومـاني في فـترة خطبتهـم إلا في مـكان عملـه الـذي مـا كان ليتركـه مـن أجـل أحـد أبـدًا، ولـو كانـت أيفـن رغـم ادعائـه المســتمر بحبهــا، راق لهــا حديثــه عــن طموحــه بالنســبة لمنزلهمـا الصغـير ويـوم عرسـهما، وكيـف أنـه يـود لـو يجلـب لهـا السـعادة يضعهـا بـين راحتيهـا، لكـن في وسـط هـذه الأمنيـات الحالمـة اعـترف لهـا: «تعلمـين يـا أيفـن، أنـا لا أملـك مـن الحيـاة سـوى كشـكي هـذا، أتعتقديـن أني قـادر مـن خلالـه عـلى تأسـيس مـنزل وإقامـة عـرس، لـن تكفيـني عـشرة أعـوام، إلا إذا ...». ثـم أمسـك يداهـا: «سـاعديني يـا أيفـن، أنـت تملكـين أنامـل قـادرة عـلى تحويـل القـش إلى ذهـب، مـا صنعتـه مـن الخـرز بيـع في نفـس اليـوم وطلـب مثلـه أيضًـا، سـنعمل معًـا وسـنوفر كل قـرش، سـنقاتل مـن أجـل سـعادتنا يـا أيفـن». فسـألته عـلى الفـور: «وكيـف الحـال بالنسـبة لأمـي وأخـي، سـعادتي سـتنتقص مـن أولويـات حياتهـم، وها هـو أجـري يزيـد في العمـل». عرضـت عـلى رومـاني فكـرة مضاعفـة عملهـا الأسـاسي ومسـاعدته لكنـه رفـض بحجـة أن ذلـك سـينتقص مـن رجولتـه، عليهـا العمـل معـه ومشـاركته، مـاذا تفعـل؟ قسـمت نفسـها يومًـا مـن أجـل رومـاني ويومًـا آخـر مـن أجـل مريـم وسـام، «تعبـتُ». لا تـدري كـم مـن المـرات قالتهـا لنفسـها، كانـت كمكـوك في ماكينـة خياطـة لا يكـف عـن الـدوران غـير أنهـا لـم تجـد رأفـة مـن أحـد بـل دائمًـا مـا كانـت تسـمع كلمـات مـن قبيـل اسـتمري، نريـد، اعمـلي أكـثر، اجلـبي لنـا، هـذا لا يكفـي، رومـاني لا يكتفـي مـن عملهـا، ولا مريـم وسـام يكتفيـان مـن طلباتهمـا.

مـر عـام تعيـش فيـه الواقـع عـلى رمـق الحلـم الجميـل مـع رومـاني، لـم تـر ولـو جنيهًـا واحـدًا مـن عملهـا مـع رومـاني، لـم

تكـن تملـك الجـرأة للمطالبـة بحقهـا، فالجميـع يعمـل مـن أجـل الفـرد وكلاهمـا واحـد فـلا فـرق بينهمـا، كـم كانـت تتـوق لهديـة منـه ولـو وردة شـاردة عـلى الطريـق يحملهـا إليهـا، كانـت تتمـنى لـو يتذكرهـا في يـوم مولدهـا ولـو بشريـط شـعر، كانـت أيفـن تعيـش معـه عـلى أمنيـات منتهـا لنفسـها، ذات يـوم سـيذكرها، مـر العـام ولـم يذكرهـا رومـاني، ولـم يذكـر أمامهـا وعـده بأنـه في غضـون عـام سـيكون منزلهمـا مجهـزًا عـلى أكمـل وجـه، صارحتـه في يـوم بعتـاب رقيـق: «رومـاني، أتذكـر العـام الماضي مـن نفـس اليـوم، كان يـوم خطبتنـا»، قـال لهـا ضاحـكا: «مـا لي والعـام المـاضي يـا أيفـن، أنـا في هـذه اللحظـة أسـعد إنسـان بـك». وبنفـس العتـاب الجميـل: «أتذكـر يومهـا قلـت لي لـن يمـر العـام إلا وأنـا في بيتـك، رومـاني أتذكـر». أجـاب بشـكل جـدي: «اسـمعي يـا أيفـن، لا بـل افهمـي، أنـا أود الأحسـن لـك، تحملـتِ وتحاملـتِ أنـت كثـيرًا يـا أيفـن، مـن حقـك حفلـة عـرس ملكيـة، ومـنزل مؤثـث أعـدك أيفـن هـو عـام آخـر وتكـوني يـا أمـيرتي في مملكتـك الخاصـة، لا تكـثري التفكـير». مـزودًا همومهـا مسـقطًا فـوق قلبهـا وعـوده لـم تجـب عليـه، سـتصبر عـام آخـر وسـيمضي كمـا مـضى الأول، لكـن هـذا ليـس بالمهـم إنمـا كـسر خاطـر أيفـن الـذي مـا وجـدت مـن يجـبره لهـا، مـا وجـدت غـير نفسـها مشـفقة عـلى نفسـها.

عملـت أيفـن بـكل جهدهـا صـارت لا تفـرق الليـل مـن النهـار، وفي دوامـة العمـل ضاعـت مـن نفسـها، تاهـت مـن أخاهـا سـام، سـام الـذي كانـت هـي يديـه وقدميـه ولسـانه وعقلـه مكتفيًـا هـو بقلبـه الـذي مـا حـوى سـوى أيفـن، لـم تكـن تملـك الوقـت للحديـث معـه، مريـم لـم يكـن لهـا وجـود سـواء في حيـاة أيفـن أو حيـاة سـام، دائمًـا

منعزلـة مـع سـجائرها وصنـدوق ذكرياتهـا الحـاوي عـلى صـور عمرهـا كلـه، وموقـد قهوتهـا لا تحمـل همًّـا أو تشـغل بـالًا بهمـا، بالـكاد كانت أيفـن تهتـم بطعـام سـام وملبسـه وعلاجـه أمـا إنسـانيته فأهملتهـا، لـم يعـودَا كالمـاضي حـين كانَـا يتجاذبـان أطـراف الحديـث أو يخرجَـا معًــا، وكان هــو أيضًــا عنهــا يبتعــد، بانشــغالها عنــه أحــس هــو بالفـراغ والوحـدة، أغلقـت هـي بابهـا ولـم يحـاول سـام دق البـاب أو حـتى فتحـه، انعزلـت هـي الأخـرى عـن العالـم دافنـة نفسـها بـين العمـل والواجـب، شـحت لقاءاتهـا برومـاني بـل انعدمـت إلا في تلـك الأيـام الـتي كانـت تسـلمه فيهـا مـا صنعـت لتسـتلم عمـلًا آخـر وطلبيـة أخـرى، كانـت لقاءاتهمـا رسمية جـدًّا، لـم يكـد يلتفـت حـتى نحوهـا يحدثهـا أثنـاء تجاذبـه الحديـث مـع زبائنـه أو وهـو يماطـل مـع بعـض التجـار، كانـت أيفـن بداخـل نفسـها تتعجـب مـن انعـدام المشـاعر الإنسـانية في قلـب رومـاني، ونسـيت أيفـن حـتى أن تسـأل نفسـها مـا الـذي يجعلهـا معلقـة برومـاني حـتى تلـك اللحظـة؟ حـتى أنهـا أهملـت رعايـة مشـاعرها الأولى تجاهـه، تجمـدت أحاسيسـها وتيبسـت، إذن مـا الـذي يجعلهـا لا تـزال معلقـة بـه؟ كانـت كبقـرة مغمـاة أعينهـا تـدور في سـاقية تـروي أرض صاحبهـا، كانـت تـدور، وتـدور، وتـدور.

عامـان منـذ خطبـة أيفـن لرومـاني، ذهبـت أيفـن كالمعتـاد لرومـاني تسـلمه الإكسسـوارات الـتي صنعـت، لمحتـه مـن بعيـد ينقـل في بضاعتـه، قالـت في نفسـها ربمـا يعيـد ترتيـب المـكان، لكـن مـا كان يحـدث هـو تحطيمهـا كليـة، أي مصيـدة وقعـت فيهـا تلـك، أكان خادعًـا لهـذه الدرجـة؟ أم أنهـا هـي مـن كنـت بلهـاء وتركـت نفسـها فريسـة لمكـره؟ قـال لهـا ووجهـه يتطايـر شرار الحماسـة منـه: «بـاركي

لنفسـك يـا أيفـن لقـد اسـتطعت اسـتئجار محـل في الشـارع الرئيـسي، مـن اليـوم أودك التفـرغ للعمـل معـي، المحـل كبـير ويحتـاج لملئـه و...»، وقبـل أن ينهـي حديثـه قاطعتـه: «مـن أيـن أتيـت بالمـال يـا رومـاني؟». قـال لهـا موليًـا وجهـه عنهـا: «صدقيـني يـا أيفـن، مـا زلـت عـلى وعـدي سـأحقق كل أحلامـك، لكـني رأيـت أن المحـل سـيجعلني أحقـق لـك ضعـف مـا تتمنـين؛ لـذا قـررت توسـيع تجـارتي وأعمـالي، صدقيـني مـن أجلـك يـا أيفـن». ابتلعـت أيفـن مـرارة الكـذب والوعـود الكاذبـة وأعطتـه خاتمـه: «ليتـك لـم تنقـذني يـا رومـاني». قالتهـا لـه بحرقـة السـنوات الماضيـة كلهـا ورحلـت، لـم تعاتبـه ولـم تسـأله، يطلـب منهـا تصديقـه وهـو متلبـس بالكـذب، يطلـب منهـا مواصلـة حياتهــا معــه بينمــا يقطــع بينهمــا كل الطــرق، دخلــت حجرتهــا وأغلقـت البـاب مـن خلفهـا جلسـت في أحـد الأركان محتضنـة نفسـها متشـبثة بهـا كمـا لـو كانـت مـن حولهـا تعصـف العواصـف، وتجـول الأعاصـير وليـس معهـا جـذع ولا عندهـا مـكان تحتمـي بـه، متروكـة هـي في سـكون الليـل الموحـش وظلماتـه، تـصرخ بصـوت مكتـوم فـلا يسـمع لهـا صـوت ولا صـدى، تبـكي بـلا دمـوع ألمًـا وتـنزف حزنًـا، نظـرت ليداهـا تـود اقتلاعهمـا منهـا لولاهمـا مـا خطبهـا رومـاني، لولاهمـا مـا عانـت، أمسـكت مقصهـا تحـاول قصهمـا بـلا إحسـاس بالألـم، كانـت تـنزف، كانـت تغـرق في دمائهـا، كانـت تغيـب عـن الحيـاة وفجـأة رأتـه، كان رومـاني مـرة أخـرى آخـر وجـه مطبـوع في عينيهـا رؤيـاه قبـل أن تفقـد الوعـي.

- حمـدًا لله عـلى سـلامتك، لـولا رومـاني بنيـتي لفقدنـاك، أصبـتي وريـدًا في يـدك حبيبـتي، أنـت دخلـتي حجرتـك ولـم تمـر بضـع دقائـق حـتى أتى رومـاني يسـأل عنـك، لـم نكـن نسـمع صوتًـا لـك،

ولـم تفتحـي لنـا فكـسر رومـاني البـاب لينقـذك في آخـر لحظـة

نظـرت لـه أيفـن بعينـين زائغتـين قائلـة: «ليتـك لـم تنقـذني رومـاني». ثـم تاهـت في عالـم آخـر.

بعـد الحـادث تـودد رومـاني لأيفـن كثـيرًا يستسـمحها ويطالبهـا بالرجـوع إليـه، وعدهـا أنـه لـن يمـضي أسـبوع واحـد وسـتكون في منزلـه، قـال لهـا إنـه لـن يسـمح لهـا بالعمـل وسـيتكفل بهـا وبأسرتهـا قـال لهـا أشـياء كثـيرة، أشـياء جميلـة، أعجبتهـا وعـوده وإن كانـت كاذبـة، وافقـت عـلى الرجـوع إليـه، قـال أسـبوع وطـال الأسـبوع لشـهر، قـال لـن يسـمح لهـا بالعمـل وأول مـا شـفيت يداهـا وضـع بداخلهمـا الزجـاج الملـون والخـرز، تقبلـت عـن طيـب خاطـر وافقـت يداهـا عـلى العمـل معـه قبـل حـتى أن توافـق هـي، كان نوعًـا مـن الاستسـلام الناعـم بـدون أن تغلفـه ولو قشـور المقاومة، تم عرسـها بشـكل بسـيط فقـير لقلـة الإمكانيـات أخـذ لهـا شـقة في الـدور الأرضي في شـارع يبعـد عـن شـارع منزلهـا القديـم بشـارعين، لتكـون قريبـة مـن مريـم وسـام، أمـا الأثـاث فقـد كان مسـتعملًا معـاد تجديـده، ورغـم هـذا كان واضحٌ جـدًّا قدمـه، قطـعٌ فيـه كانـت مربطـة وأخـرى استندت حوافهـا عـلى قطـع مـن الخشـب صغـيرة، سـاعد إسـماعيل كثـيرًا في إتمـام الزفـاف ماديًّـا ومعنويًّـا، لـم تجـد أيفـن في عيـني أمهـا لا بهجـة الأم لزفـاف ابنتهـا أو حـزن العـين لفراقهـا كمـا كانـت تـرى عـلى وجـوه أمهـات صديقاتهـا أو جيرانهـا، أمـا سـام أيـن سـام؟ لـم تـر سـام في هـذا اليـوم لا بـل منـذ أيـام، انشـغلت عنـه لكنهـا قـررت داخـل نفسـها أنـه مـن الغـد سـتفتح صفحـة جديـدة معـه، هكـذا عاهـدت نفسـها، جلسـت في مراسـم الزفـاف البسـيط رغـم أن مـا حلمـت بـه وتمنتـه لنفسـها كان أجمـل وأقيـم مـن هـذا، لكنهـا

أقنعـت نفسـها بكونهـا سـعيدة راضيـة ولا تريـد شـيئًا غـير ذلـك.

انـصرف معظـم الضيـوف، وسـط بقاياهـم لمحـت آخـر واحـد كانـت تتوقـع رؤيـاه في هـذا اليـوم، نقطـة السـواد القـادرة عـلى تلويـث نهـر طاهـر بأكملـه، إنـه جيكـوب، وضعـت يدها عـلى خدها، تلـك القرصـة الـتى قـرط بهـا عـلى خدهـا يومًـا ومـا لـم تؤلمهـا حينهـا لكنهـا اليـوم تتلقاهـا صفعـة قـادرة عـلى اقتلاع رأسـها، أقبـل نحوها، لكـن الأغـرب أنهـا وجـدت رومـاني يقـف مرحبًـا بـه بحـرارة شـادًّا عـلى يـده في السـلام: «سـلمي يـا أيفـن، هـذا هـو السـيد يعقـوب الـذي حدثتـك عنـه مـن قبـل». كان رومـاني بالفعـل حدثهـا عـن شريـك لـه خاصـة أن رومـاني توسـع في بضاعتـه في الشـهر الأخـير قبيـل زواجهمـا مضيفًـا لهـا قطعًـا فضيـة وبعـض الأحجـار الكريمـة، وتتذكـر أنـه قـال لهـا إن اسـم شريكـه يعقـوب، فلـم تلاحـظ أن اسـم جيكـوب هـو نفسـه اسـم يعقـوب، اطرقـت برأسـها وهـي تمـد يدهـا نحـوه مسـلمة عليـه، ثـم اتجـه جيكـوب نحـو مريـم وإسـماعيل الجالسـين معًـا يتجاذبـان الضحـكات والحديـث، معكـرًا صفـو مزاجهمـا فهبـت مريـم فزعـة تاركـة المـكان، وعـلى مضـض جلـس إسـماعيل مـع جيكـوب.

في منزلهـا الجديـد وبعـد رحيـل الأهـل والمدعويـين تذكـرت أيفـن سـام: «يـا ويـلي». قالتهـا فزعـة، كانـت هـي المسـئولة عـن علاجـه، فزجاجـة البخـاخ كان عليهـا تغييرهـا اليـوم، ربمـا أصيـب بأزمـة ربـو مريـم إن لـم تجـده أمامهـا فلـن تبحـث عنـه، ثـم صرخـت مزعـورة في وجـه رومـاني وخرجـت تركـض ممسـكة حذاءهـا بيديهـا، كانـت تجـري وهـي تـصرخ سـام سـام، ومـن خلفهـا رومـاني لا يـدري مـا الـذي حـل بهـا ويـصرخ أيفـن، أيفـن، ومـن خلفهمـا الشرطـي

يخالهمـا يسـتنجدان بأحـد، في حجرتـه وعـلى الأرض كان سـام مسـتلقيًا وبيـده بخاخـة الأوكسـجين فارغـة، في المستشـفى رقـد سـام وبجانبـه أيفـن تاركـة رومـاني والعالـم كلـه مـن خلفهـا: «كـف يـا سـام ولا تطـرق بالقلـم». طلبـت مـن سـام الـذي كان يـدق بقلمـه عـلى صنيـة الطعـام الموضوعـة أمامـه رافضًـا الأكل، «بـل كفـي أنـت عـن إعطـائي الأوامـر، إلى مـتى تظنـين نفسـك وليـة أمـري، سـأقول لـك شيئًا؛ سـام يسـتطيع العيـش بـدون أيفـن، عامـان كنـت أتمـرن فيهمـا عـلى فقـدك، وهـا أنـا أمامـك، لا ينقصـني سـواك، وغـير هـذا أنـا بخـير». نظرتـه بطـرف عينهـا وقالـت لـه سـاخرة ومازحـة في نفـس الوقـت: «أحمـق، كمـا نبتنـا في نفـس الرحـم سـنعيش معًـا عـلى وجـه الأرض».

لـم يكـن كلام سـام معهـا مجـرد تهديـد، بـل كان قـرارًا اتخـذه بالفعـل وببسـاطة رحـل سـام، في اليـوم التـالي لـم يجـدوا مـن سـام سـوى رسـالة كتـب فيهـا: «أيفـن، نفسـي الثانيـة، لقـد حـان الوقـت لأولـد مـن جديـد كسـام وليـس كأيفـن». كان مـا يسـميه سـام ولادة جديـدة لـه كان موتًـا لأيفـن. الأحمـق لـو يـدري أنـه كان نبـع القـوة الـذي تعيـش بـه، ولـو يعلـم أنهـا في هاتـين السـنتين ومنذ أن سـلمت نفسـها لرومـاني كانـت كشـاة تغثـو خلـف راعيهـا يسـوقها أينمـا شـاء، إنسـانيتها كانـت سـام، لكنـه غـبي لـم يـدرك بنفسـه نلـك الحقيقـة، بحثـت كثـير، كثـيرًا عـن سـام، وفي كل مـرة كانـت تجـده داخـل نفسـها وليـس أمامهـا.

سـاءت أحـوال مريـم بغيـاب سـام، أحسـت أخـيرًا بالذنـب والتقصـير، زهـدت الحيـاة، مـا عـادت تهتـم بذاتهـا كالسـابق، لـم يعـد المـال يغريهـا ولا الدنيـا بأكملهـا تعنيهـا، فذبلـت، جفـت

أغصـان شـجرة البلـوط كليًّـا، صحيـح أن الوهـن والجفـاف بـدأ يتسلل نحوها منـذ وفـاة جيروزاليـم والأصح أنـه منـذ رحيـل ريـكي، لكـن فقـدان سـام أتى ببقيتهـا، كانـت تعيـش عـلى غصنـين اثنـين أيفـن وإسـماعيل، أمـا قلبهـا الملـوح بلوعـة فـراق ريـكي فـكان قـد جـف منـذ زمـن، ربمـا كان هـذا سـببًا في تبلـد مشـاعرها وأحاسيسـها تجـاه بـاقي البـشر، وهـذا السـبب يفـسر عـدم تحامـل أيفـن عـلى مريـم خاصـة أن ظـروف مـرض مريـم كان لهـا تأثـير عـلى فعلهـا وردة فعلهـا تجـاه الغـير.

مـن ناحيـة أخـرى ازدهـرت أعمـال رومـاني وكـبرت تجارتـه، تـرك بيـع وشراء الإكسسـوارات واتجـه لإشـغال الذهـب بـدون أن تتركـه أيفـن أيضًـا، بجانـب المحـل كانـت لـه ورشـة صغـيرة، كانـت هـي المشرفـة عليهـا ومصممـة المشـغولات بهـا، انفـردت أعمالهـا بطابعها المميـز الـذي مـيز علامـة رومـاني عـن غيرهـا، كان رومـاني حـين يُسـأل عـن مصمـم أعمالـه يجيـب بإجابـة ملتويـة، يـكاد يُظهـر بشـكل غـير مبـاشر أنـه صاحـب التصميمـات، لكنـه لـم يكـن يجـرؤ بالبـوح كي لا يفقـد نجمـة حظـه أيفـن، لـم يعطيهـا مقابـلًا لعملهـا معـه بـل كان يـترك كل صبـاح مبلغًـا مـن المـال أسـفل الأباجـورة، ضاربًـا عصفوريـن بحجـر، نفقـات المـنزل ومعهـا أجرهـا كان المـال بالرغـم مـن تحسـن أحوالـه الماديـة بالـكاد يغطـي نفقـات المـنزل متبعًـا نفـس أسـلوب مديرهـا السـابق، إعطـاء المـال عـلى قـدر الحاجـة حـتى لا يتسـنى لهـا تقتـير مـا يمكنهـا بـه الاعتمـاد عـلى نفسـها، كانـت تعطيـه اللحـم وتنتظـر أن يعطيهـا الحسـاء، لكنـه في المقابـل كان يعطيهـا الطبـق بعـد أن يمتـص مرقـه ودهنـه والعظـم عـارٍ مـن لحمـه.

علاقـة مريـم برومـاني لـم تكـن عـلى مـا يـرام، وانقطعـت تمامـا؛ لأنهـا وبعـد رحيـل سـام بخمـس سـنوات كانـت في مـنزل رومـاني، يومهـا سـمعت خلافًـا بينـه وأيفـن، يومهـا كانَـا قـد انتقـلَا لشـقتهما الجديـدة في الزمالـك في نفـس الشـارع الرئيـسي، كان رومـاني يهاتـف أحـد الأشـخاص، فلـم تهتـم أيفـن بالمكالمـة حـتى سـمعت كلمـة يعقـوب، تذكـرت ليلـة زفافهمـا حـين أتى جيكـوب تحـت مسـمى يعقـوب، شرحـت أيفـن الوضـع كلـه لرومـاني طالبـة منـه الابتعـاد عـن جيكـوب، لمـا سـمع رومـاني القصـة منهـا تظاهـر بالوطنيـة وغيرتـه عـلى أرضـه وفي نفـس الوقـت إشـفاقه عـلى مريـم ووعدهـا بقطـع صلتـه بجيكـوب، وبالفعـل وحـتى لحظـة سـماعها لاسـم جيكـوب لم تلحـظ عـلى رومـاني إلا ملامـح الوفـاء بالعهـد، لكنـه لـم يكـن سـوى عهـدًا ككل عهـوده الزائفـة، قالـت لـه وسـط ذهـول منهـا محاولـة دفـن غضبهـا عـلى قـدر الإمـكان: «رومـاني، ألـم تعـدني أنـك سـتقطع علاقتـك بجيكـوب؟». رد عليهـا في حـزم هـادئ: «بمـا أنـك تجسسـتِ عـليَّ فسـأعترف لـك، في البدايـة انظـري لهـذا البـاب -وأشـار لبـاب الشـقة- هـذا البـاب هـو الحـل المثـالي لـك إن لـم يعجبـك كلامـي، ببسـاطه اخرجـي منـه وسـينتهي الأمـر، وليـس عنـدي حلـول أخـرى؛ لأني لـن أضيـع مسـتقبلي بسـبب تفاهاتـك، انتهـت الحـرب وأرضنـا ذاتهـا تعـترف بإسرائيـل، إذن لمـا لا أعمـل أنـا مـع جيكـوب إن كان في مصلحـتي، ألا تشـاهدين التلفـاز؟!». ثـم أخـذ يمثـل المشـهد بكلتـا يديـه «في نـشرة الأخبـار قـد تجديـن مجموعتـين؛ واحـدة عـلى اليمـين والأخـرى عـلى اليسـار، وكل مجموعـة يرأسـها زعيـم دولتهـا واحـدة مصريـة أو عربيـة والأخـرى إسرائيليـة، أصبحنـا نعقـد الاتفاقيـات مـع إسرائيـل يـا أيفـن، أصبـح بـين دولتنـا ودولتهـم مصالـح مشـتركة، وتريدينـني مـن أجـل هرائـك وتخاريفـك أن أضيـع صفقـة قـد

تربحـني الملايـين، جيكـوب المتحاملـة عليـه أنـت هـو شـخص طيـب لا تمـر مكالمـة بيـني وبينـه إلا ويسـأل عنـك وعـن مريـم، حـتى إنـه كان يهاتفـني في مصلحـة لي تعلمـين لقـد وجـد لي أرضًا واسـعة واسـعة جـدًّا أخـذت بوضـع اليـد مـن قبـل، ثـم مـات مـن وضـع يـده عليها، ولا يجـدون صاحبهـا، هـذه الأرض معروضـة للبيـع بأبخـس الأثمـان، ولأنـه أصبـح لجيكـوب نفـوذ هنـا في مـصر بسـبب مصالحـه المشـتركة مـع الكثـير مـن المصريـين اسـتطاع جـر الأرض نحـوي وعرضهـا عـليّ، ليـس هـذا فقـط، تعلمـين أن جيكـوب يعتـبر صاحـب واحـدة مـن أكـبر شركات المقـاولات في أمريـكا، تمـول شركتـه مشـاريع في كافـة أنحـاء الأرض، عـرض عـليَّ يـا أيفـن تمويـل المـشروع وبنـاء مدينـة ملاهـي كـبرى عـلى جـزء مـن الأرض، والجـزء الآخـر سـنقيم عليـه مصنـع حلويـات شـيكولاته وغيرهـا تكلفـة بسـيطة ومكسـب وفـير».

كانـت الأرض هـي نفسـها أرض ريـكي الـتي ود لـو يـزرع جـزءًا منهـا ويبـني عـلى الجـزء الآخـر مشـغلًا، لـولا تكـبر مريـم وطمعهـا نحـو ثـروة جاهـزة لمـا آل الوضـع لمـا همـا فيـه، سـواء مريـم أو الأرض، أمـام البـاب المفتـوح نحـو الحـارة القديمـة والـثراء المـتروك خلفـه وجـدت نفسـها تسـتقبل حديـث رومـاني في صمـت وخنـوع، لكـن مريـم وقـد سـمعت كل شيء، خرجـت مـن المـنزل بعدمـا تـبرأت مـن رومـاني، ومـن يومهـا وحـتى حـادث وفاتهـا لـم يقابـل وجـه مريـم وجـه رومـاني، وظـل إسـماعيل هـو المهـون عـلى مريـم ضيـم الحياة وقفـر السـعادة، لا يـترك يومًـا إلا ويـأتي لزيارتهـا ليجلـس معهـا يخفـف عليهـا الحـال.

-١٦-

في هــذه الأثنــاء في فــترة التســعينات ظهــر عــلى الســطح نــوع آخــر مــن المتربحــين والفاســدين بجانــب توغــل جيكــوب وأمثالــه في مــصر، وظهــور طبقــة رومــاني وغــيره ممــن كانــوا يحملــون طبــاع التسـلق والانتهازيـة والطمـع المختلطـين بالخيانـة، هـذا المزيـج كان أشـد عـلى الوطـن والنفـس مـن قنبلـة ذريـة، طبقـة رجـال الأعمـال الفاسـدة، في تلـك الفـترة ظهـر بشـدة طـرف المقـص الآخـر الـذي كـسر خـصر مـصر وقسـم ظهرهـا، وهـو التطـرف الديـني الإرهـابي، منشـآت سـياحية فجـرت، بيـوت حرقـت، ومحـال تجاريـة مسـيحية نهبــت، وكانــت الاعتقــالات عــلى أشــدها تأخــذ عــلى جنبيهــا ولا تـترك ولـو مشـتبهًا بـه، حـذرت مريـم إسـماعيل كثـيرًا طالبـة منـه حلـق لحيتـه وتغيـير زيـه، خاصـة أن لأخيـه وعائلتـه سـجل في هـذا الصـدد مـن الجرائـم، لكـن إسـماعيل رفـض بشـدة متعلـلًا بـأن الله لا يأخـذ العبـد إلا بنوايـاه، وأن الـزي ليـس لـه علاقـة بالفكـر، ولنـا في المنافقـين عظـة تعـددت ثيابهـم كمـا وجوههـم، والقلـب والفكـر واحـد، وبالفعـل مـا ظهـر مـن إسـماعيل شـائبة في حسـن المعاملـة والوفـاء، كان طيـب المعـشر، متسـامح النفـس لا يخـرج مـن فمـه إلا المعـروف، لـم يحدثهمـا عـن الإسـلام في يـوم، لكـن طباعــه تحدثــت عوضًــا عنــه، في الوقــت الــذي أثــارت طبــاع غــيره مـن المسـلمين الكثـير مـن النفـور، لكـن في النهايـة الظلمـة لا تـضر بالنـور؛ لأنـه الأصـل، ووجـود الجاهـل بالعلـم لا يعيـب العلـم، والضلالـة لا تنفـي الهـدى، لـم يكـن القـرآن بعيـدًا عـن مريـم أو

أيفـن، مـن أرادت الإسـلام فلتفعـل، لا معـنى أن تجـبر أحـدًا في زمـن توسـعت فيـه آفـاق المعرفـة والحريـة أن يعتنـق ملـة أو يتبـع مذهبًـا؛ لأنـك لا تهـدي الأحبـة ولكـن الله يهـدي مـن يشـاء، كان هـذا مبـدأ إسـماعيل.

في يـوم دخـل رومـاني المـنزل متجهمًـا تتوهـج عينـاه وكأنهـا قطعـة مـن جهنـم: «الأوغـاد حرقـوا محـلي وسرقـوا بضاعـتي، لـو بيـدي لفجـرت كل مسـجد ومسـلم». ثـم أخـذ يغمغـم بالشـتائم حـتى وصـل لذكـر إسـماعيل، هنـا أوقفتـه أيفـن، فلطمهـا عـلى وجههـا متهمًـا إياهـا بالملحـدة مهـددًا ومتوعـدًا إسـماعيل، ظهـر تعصـب رومـاني جليًّـا والـذي مـا كان يختلـف عـن أي تعصـب ديـني آخـر.

مـضى يومـان عـلى الحـادث وفي الثالـث سـمعت مريـم وأيفـن أن إسـماعيل قـد اعتقـل، كان إسـماعيل واحـدًا مـن زمـرة الذيـن أخـذو بشـكلهم لا بأفعالهـم، اسـتقبلت مريـم أيفـن حـين كانـت في زيارتهـا اليوميـة لهـا بالخـبر وعيناهـا غارقـة في الدمـوع، منـذ زمـن بعيـد لـم تـر دمـوع مريـم، يـا لـه مـن فيـض انجـرف مـن أعـالي الجـرف حامـلًا معـه صخـور المـاضي وطوفـان الذكريـات القديمـة، حاولـت أيفـن وضـع السـدود لكـن هيهـات أطاحـت سـيول ألمهـا بـكل مـا حاولـت بـه جاهـدة، لـم تسـتكن مريـم حـتى عرفت مـكان اعتقـال إسماعيل.

ركعـت جاثيـة أسـفل أقـدام المحقـق تريـه بطاقـة هويتهـا المسـيحية، قالـت لـه إنهـا أختـه مـن أم واحـدة، أخرجـت الصنـدوق المصـدف صاحـب الرسـالات الثـلاث: «أمـي كانـت مسـلمة، ربتـني امـرأة مسـلمة يـا سـيدي، وأنـا كمـا إسـماعيل مؤمنـة بجميـع الرسـالات، اسـألوا مـن عـاشره وليـس مـن وشى بـه». أخـذ المحقـق بيـد مريـم يسـاعدها عـلى النهـوض: «يـا سـيدتي، مـا عـاد الأمـر

بيـدي، أنـا عبـدٌ مأمـور». كان مـن الواضـح أن الأمـر بالفعـل لـم يكـن بيـده، وأنـه بالفعـل عبـد لمـن أمـره، مـن أيـن لـه أن يعـرف مـن هـو إسـماعيل، أمـن الوطـن الـذي راح ضحيتـه كثـير مـن الآمنـين بينمـا ظـل الكثـير والكثـير مـن المروعـين يسرحـون في ربـوع الوطـن.

عامـان تاهتـا فيهمـا أيفـن ومريـم في دائـرة البحـث عـن المفقودين، الرحيـل بـلا سـابق إنـذار، ذلـك الفقـد الدنيـوي في الحيـاة أصعـب بكثـير مـن فقـد المـوت؛ لأنـه فقـدٌ جرحـه متجـدد مـا زال يـنزف، وهـا قـد أمـسى في روح مريـم ثلاثـة جـروح غائـرة؛ رحيـل ريـكي، وسـام، وأخـيرًا إسـماعيل. أي امـرأة في العالـم قـد تتحمـل مثلمـا تحملـت مريـم حـتى الأمـوات في عالمهـا، لـم تهنـأ لذاكرتهـا أن تمـر ذكراهـم إلا بوجـع، أب مذبـوح وأم منهـارة وثلاثـة أحبـاء مفقوديـن.

كانـت أيفـن جالسـة تعـد القهـوة لمريـم في أحـد أيـام الشـتاء، بينمـا كانـت مريـم تحمـل صنـدوق ذكرياتهـا المـليء بالصـور، دق البـاب ومنـذ زمـن لـم يطـرق أحـد عـلى بابهمـا، ذهبـت أيفـن نحـو البـاب متثاقلـة، وإذا بهـا تـرى أمامهـا إسـماعيل. «يـا إلهـي، الرحمـة مـن عنـدك» هـذا مـا قالتـه حـين شـاهدته للوهلـة الأولى، هـذا الرجـل قـوي البنيـان معتـدل القامـة ممتـلئ الوجـه، يقـف أمامهـا بأديـم جـاف يـكاد يلتصـق بالوجـه، وقـد تقـوس ظهـره يتعكـز عـلى عـصى، «ادخـل يـا خـالي، ادخـل أمـي تنتظـرك منـذ عامـين». دخـل إسـماعيل يتعكـز عـلى عصـاه، تتخبـط أرجلـه ببعضهمـا، كاد أن يقـع عـلى وجهـه لكنهـا أدركتـه سريعًـا، مـن الواضـح أن إسـماعيل قـد فقد جـزءًا كبـيرًا مـن بـصره، أقبلـت مريـم نحـو إسـماعيل تحتضنـه وتقبـل وجنتيـه، فمـد إسـماعيل يـده يبحـث عـن أيدي مريـم، ضمهمـا بيديه يقبلهمـا: «آه يـا مريـم، حـتى هـذه اللحظـة لـم ارتـدي مـا صنعتـه

لي منـذ أربعـين عامًـا، وأنـت لـم تعيـدي إصلاحـه، أغيـب أغيـب وأرجـع لـك، مـا كان عليـك أن تسـأليني يومهـا إن كنـت سـتظلين أخـتي أم لا». أجهشـت مريـم بالبـكاء بـين يـدي إسـماعيل، أخـذت بيـده وأجلسـته بجانبهـا وتركـت أيفـن الأخـين معًـا وذهبـت للمطبـخ تعـد الطعـام، ربـع سـاعة أقـل أو أكـثر وإذا بهـا تسـمع صرخـة مدويـة، كان إسـماعيل بـين يديهـا واقعـة رأسـه عـلى حجرهـا بـلا أي حـراك كمـا مـات والدهـا بولـس وأمهـا جيروزاليـم بـين ذراعيهـا مـات أيضًـا أخاهـا إسـماعيل.

فقـدت مريـم كل الأسـباب المحثـة لهـا للعيـش والاسـتمرار، أصبحـت طريحـة الفـراش حـتى علاجهـا كانـت تأخـذه بصعوبـه، لمـا سـاءت حالتهـا أودعتهـا أيفـن مشـفًى خاصًّـا عـلى نفقتهـا الخاصـة مـن مبلـغ وضعتـه جانبًـا ممـا كان يـترك رومـاني مـن فتـات لهـا، الحيـاة تتـسرب مـن مريـم أمـام أيفـن وهـي مكتوفـة الأيدي مسـلوبة الإرادة، وجودهـا معهـا مجـرد وقـوف عـلى محطـة القطـار، تنتظـران مـرور قطـار حيـاة مريـم المـارق أمامهـا مـن بعيـد، ذات ليلـة كانـت أيفـن نائمـة عـلى السريـر الملاصـق لسريرهـا، اسـتيقظت كالعـادة في منتصـف الليـل تطمـئن عليهـا، فلـم تجـد أيفـن مريـم عـلى فراشـها، تراهـا أيـن ذهبـت بـاب الحمـام كان مغلقًـا مـن الداخـل سـاورتها الشـكوك تجـاه إن كانـت آذت نفسـها، اسـتدعت الطبيـب عـلى الفـور، فتحَـا البـاب ليجـدوا مريـم ملقـاة وبجانبهـا علبـة أقـراص دوائهـا فارغـة، تسـارعت أنفـاس أيفـن وتلاحقـت دقـات قلبهـا، وفي لمحـة خاطفـة فقـدت الوعـي، لمـا فتحـت أعينهـا وبـدأت تشـعر بنفسـها كانـت أول كلماتهـا هـي: «أيـن أمـي الآن فـوق الأرض أم في السـماء؟». أشـار لهـا الطبيـب أن تتبعـه، كانـت مريـم ممـدة عـلى

الفـراش كمـلاءة مطروحـة فـوق السريـر، قفـزت أيفـن مـن مكانهـا إليهـا، وجـه مريـم كان مكممًـا بأجهـزة تنفـس وخراطيـم عـدة، أسلاك فـوق صدرهـا وجهـاز بيدهـا موصـل بعـدة محاليـل، نظـرت أيفـن نحـو الطبيـب ولسـان حالهـا يسـتفسر عما حـل بهـا: «أمـك يـا أيفـن أخـذت جرعـة زائـدة مـن الـدواء سـممت جسـدها، وهـي الآن في غيبوبـة بـين الحيـاة والمـوت، ادع لهـا بالرحمـة». كانـت ردة فعـل أيفـن بـاردة بعكـس مـا تأجـج بـه قلبهـا مـن خـوف وحـزن عـلى الأم، جلسـت بجانبهـا واضعـة يدهـا عـلى خدهـا.

مـر وقـت طويـل وأيفـن جالسـة بجـوار مريـم واضعـة يدهـا عـلى خدهـا وروحهـا عالقـة بـين السـماء والأرض مـع أمهـا، في يـوم لا تذكر تاريخـه فمنـذ أن وصلـت بهـا للمشـفى اختلطـت الأيـام جميعهـا وانصهـر الليـل مـع النهـار، مـا عـادت تفـرق بينهمـا وكان يومًـا طويـلًا جـدًّا لا نهايـة لـه، ربمـا امتـد ذلـك اليـوم لشـهر أو شـهرين، وربمـا لأعـوام مضـت ومريـم معلقـة في غيبوبتهـا فـترة مكـوث أيفـن معهـا، في ذلـك اليـوم لاحظـت أيفـن أن مريـم تحـرك يدهـا مرتعشـة مشـيرة لجهـاز التنفـس الـذي مـلأ وجههـا، سريعًـا أزاحـت الجهـاز، فجالـت عينـا مريـم تبحـث عـن شيء مـا: «عـم تبحثـين يـا أمـي؟». بصـوت ضعيـف لا يـكاد يسـمع أجابتهـا مريـم: «صنـدوق الذكريـات». كان صنـدوق الذكريـات صندوقًـا آخـر غـير الصنـدوق المصـدف، هـذا الصنـدوق كان يضـم صـورًا وقصاصـات ذكريـات المـاضي البعيـد والقريـب، أحـضرت الصنـدوق لهـا فاتحـة إيـاه أمامهـا، وبيدهـا المرتعشـة حاولـت العثـور عـلى شيء مـا، سـاعدتها أيفـن في البحـث سـحبت المنضـدة الـتي يجانبهـا وعدلـت سريرهـا ليكـن بمحـاذاة المنضـدة، ألقـت كل مـا بالصنـدوق أمـام مريـم وأخـذت تفـرز

مــا بالصنــدوق، حــتى اســتقرت عــلى أحــد القصاصــات، نظــرت إليهــا وقالــت بنفــس الصــوت الواهــن محاولــة اســتجداء كل قوتهــا فيــه: «اذهــبي لهــذا العنــوان وابحــثي عــن ريــكي». أخــذت مــن يدهــا القصاصــة وأسرعــت تلــبي لهــا طلبًــا قــد يكــون الأخــير في حياتهــا.

كان العنـوان هـو فيـلا ريـكي القديمـة، سـور الحديقـة كان مفتوحًـا فدخلــت للحديقــة، فلــم تــر عينــا أيفــن جمــالًا كجمــال الــورود والأزهــار الــتي رأتهــا، المنظــر كان ينــبئ بأنــه يوجــد بالفعــل مــن يهتـم بالحديقـة، فطرقـت البـاب الخشـبي العتيـق، فتـح لهـا شـاب هــادئ الملامــح، وكمــا يبــدو هــادئ الطبــع أيضًــا، «أي خدمــة يــا سـيدتي؟». فأجابتـه: «كنـت أسـأل عـن السـيد ريـكي». مـا أن سـمع اسـم ريـكي حـتى أدخلهـا عـلى الفـور، وقـال لهـا: «اسـمي جوزيـف جــان المســئول هنــا عــن الحديقــة والمــنزل، لا أحــد يســأل عــن ريــكي، يبــدو أن الأمــر مهــم أو أنــك شــخص مهــم لــه». أجابتــه باختصـار: «نعـم هـو ذلـك». فـرد عليهـا: «السـيد ريـكي ترهـبن منـذ زمـن، وأنـا نفـسي لـم أره ولـو مـرة واحـدة رغـم أني كنـت أسـمع عنـه مـن أبي جـان رحمـه الله قصصًـا كثـيرة، كانـت أغلبهـا مقترنـة بسـيدة تدعـى مريـم، هـل تعرفينهـا؟». كان جوزيـف لماحًـا وذكيًّـا، حــتى أنــه استشــف أن ســؤالها عــن ريــكي متعلــق بمريــم، لــم تشــأ الثرثــرة مــع جوزيــف، شــكرته ورحلــت، قبيــل خروجهــا مــن المــنزل قطـف جوزيـف وردة مـن شـجرة يانعـة مليئـة بالـورود: «قبيـل رحيـل ريـكي زرع تلـك الشـجرة، وقـد أسـماها مريـم، انظـري لهـذا الحـوض المحيـط بالشـجرة». كان الحـوض منقوشًـا عليـه اسـم مريـم ومحاطًا ومكــررًا باســتدارته بلغــات عــدة، أخــذت الــوردة مبتســمة لا تــدري كيـف سـترجع لأمهـا، تكفـي تلـك الـوردة قـد تفـي بسـد نهـم الحنـين

مـن قلـب محـب لمحـب آخـر.

في الطريـق وجـدت أيفـن نفسـها أمـام الكنيسـة، كانـت سـتمر لكـن وجـدت في نفسـها ميـلًا لدخولهـا، فنفسـها تحتـاج لجرعـة تحفيزيـة تشـحذ قدرتهـا عـلى كل الصعـاب المسـتعصية عـلى نفسـها، مـرت بجانبهـا راهبـة: «سـيدتي، اليـوم سـيحاضر في القاعـة الرئيسـية الراهـب ماركـوس إن وددت الحضـور، خاصـة إن وضعـت بعضًـا مـن الجنيهـات في صنـدوق التبرعـات سـنكون شـاكرين فضلـك». لـم يكـن لديهـا ميـل لسـماع المواعـظ والإرشـادات لكـن لا بـأس إن ذهبـت ووضعـت المـال في الصنـدوق الـذي كثـيرًا مـا احتواهـا هـي وأمهـا وأخاهـا، كان العـدد هائـلًا داخـل الكنيسـة لحضـور محـاضرة الراهب ماركـوس، أومـأت لفتـاة بجانبهـا: «مـن هـو الراهـب ماركـوس؟». ابتسـمت الفتـاة نحوهـا وأخذتهـا مـن يدهـا ثـم أجلسـتها بجوارهـا: «سـتعرفين الآن مـن هـو الراهـب ماركـوس». كانـت سـتضع المـال وترحـل لكـن الفتـاة ورطهـا بحضـور المحـاضرة، بينمـا كانـت أمهـا تحتـضر في المشـفى وربمـا تكـون قـد أسـلمت الـروح.

ظهـر الراهـب ماركـوس إنـه هـو، هـو ريـكي صحيـح أنهـا لـم تـره ولـو مـرة واحـدة، لكـن مـن ملامحـه الشـبيهة بملامـح الرجـل الـذي التقطـت لهـا معـه مريـم في المهـد صـورة، كان يحملهـا فيهـا عـلى كتفـه، عرفـت أنـه بالفعـل ريـكي، أنهـى ريـكي جلسـته، ثـم انهـال عليـه محبـوه لـم تكـن قـادرة عـلى شـق الصـف الـذي يحيـط بـه ريكي حـتى اختفـى منهـا. ذهبـت حيـث الركـن المخصـص للرهبـان تبحـث عنـه: توقفهـا أحـد القساوسـة وسـألها في حـزم: «مـاذا تريديـن يـا سـيدتي، ممنـوع الدخـول لغـير العاملـين بالكنيسـة؟». أجابتـه عـلى الفـور: «أود مقابلـة ريـكي، أقصـد الراهب ماركـوس». ولى عنهـا بعيدًا

وقـال: «لا ممنـوع، الراهـب في خلوتـه الآن». لـم تيـأس واتجهـت نحـوه ملحـة: «إن الأمـر مهـم يـا سـيدي، قـل لـه فقـط تلـك الكلمـة، مريـم، أظنـه لـن يمانـع إن ذكـر اسـم مريـم أمامـه، أرجـوك يـا سـيدي الأمـر لا يحتمـل التأخـير». استشـعر القـس أهميـة مـا تقـول، تركهـا وغـاب في الممـرات بعدهـا بقليـل، سـمعت وقـع الخطـوات تقـترب منهـا، أدارت وجههـا نحـو صاحـب الخطـى كان هـو ريـكي بنفـس ملامحـه مـع تغـير زيـه، كان يلبـس زي الرهبـان، رداءً أسـود فضفاضًـا بحـزام عريـض في المنتصـف، قـال لهـا في هـدوء: «مـاذا تريديـن يـا مريـم؟». أجابتـه في سـكون: «لسـت مريـم، إنمـا أيفـن ابنـة مريـم». كان وقـع الاسـم عـلى ريـكي كوقـع المـاء عـلى الجمـر المتقـد، صدمـة رجـوع المـاضي كانـت أشـد مـن صدمـة الفقـد عـلى نفـس ريـكي الـذي تزعزعـت أوصالـه وارتعشـت أطرافـه، وقـال في صـوت مهـزوز: «وكيـف هـي مريـم؟». فأجابتـه بصـوت حزيـن يمـلأه الرجـاء: «مريـم تحتـضر يـا ريـكي، وكمـا يبـدو فـإن روحهـا معلقـة بـك، تعـال معـي فقـد تمـضي روحهـا بسـلام، شـاقٌ عـليَّ توديعهـا وموجـع جـدًّا لكـن عذابهـا أشـد وجعًـا، بالمناسـبة هـذه الـوردة مـن حديقتـك، شـجرة الـورد الـتي زرعتهـا قبـل رحيلـك، ولـم يتسـنى لـك قطـف واحـدة مـن زهورهـا وإهدائهـا لمريـم». أخـذ منهـا الـوردة طالبًـا منهـا أخـذه لمريـم، في لمـح البـصر كانـَـا في المشـفى كأنـه كان يحملهـا عـلى جناحيـه، كانـت مريـم نائمـة أو فاقـدة الوعـي، لا تـدري أي حالـة كانـت عليهـا بالظبـط، لكـن حـين جلـس ريـكي بجانبهـا وأمسـك بيدهـا واضعًـا الـوردة بداخلهـا، كأنمـا دبـت الحيـاة في عروقهـا، نظـرت إليـه مريـم بعمـق كل سـنوات الفـراق والوحشـة ابتسـمت في رضـا ثـم أغمضـت عينيهـا وأسـلمت روحهـا.

بعـد تأبـين مريـم وإتمـام مراسـم الدفـن، ذهبـت أيفـن لمـنزل أمهـا خاويـة حياتهـا منهـا ومـن سـام ممتـلئ قلبهـا بهمـا، وقفـت في المنتصـف تـدور مـن حولهـا خيـالات سـام يـروح ويجـيئ خلفهـا، ومريـم جالسـة أمـام موقـد القهـوة تعـد قهوتهـا، فنجـان جيروزاليم وشـالها عـلى الكـرسي ينتظـران أحباءهمـا الملتصقـة روائحهمـا في ثنايـا خيـوط الشـال وحـواف الفنجـان، الصنـدوق المصـدف وصنـدوق الذكريـات الموشـوم عليهمـا بصمـات المارقـين مـن المـاضي التليـد مسـتعدين لرحلـة أخـرى، رحلـة وحيـدة سـتجتاز التـلال وحيـدة، سـتعبر الحـدود عـبر المـدى الهلامـي الفاصـل بـين حاضرهـا والمـاضي، وكيـف التنصـل مـن قـدر العمـر ولعنـة الأرض الغاضبـة، ارتـدت ثـوب مريـم المـوروث مـن جيروزاليـم ومـن قبلـه أورشـا، وكـرداء يرقـة تنتظـر الخـروج مـن شرنقتهـا كانـت تقبـع أيفـن بداخـل الثـوب، لملمـت بقايـا الراحلـين؛ الصندوقـين والفنجـان والشـال، وأغلقـت البـاب مـن خلفهـا لفتـح بـاب بدايـة صراع جديـد.

فـترة طويلـة مـرت منـذ تركهـا لمنزلهـا، وبسـبب دوامـة مـرض مريم ورحيـل سـام بالإضافـة لتبلـد المشـاعر المتبـادل بينهـا وبـين رومـاني، كانـت فـترات غيابهـا أكـثر مـن حضورهـا بكثـير، دخلـت المـنزل كالغريـب بـلا وحشـة أو حنـين لأي ركـن فيـه، كانـت أسرتهـا الصغـيرة جالسـة تتنـاول الطعـام، مـرأت مـن أمامهـم كالشـبح بـلا أي أثـر يذكـر، كان رومـاني ينتصـف طفلـين مثـل نصفـي القمر، سـألت نفسـها مـن يكونـان؟ للوهلـة الأولى لـم تتعـرف عليهمـا إنهمـا صغارهـا، لا يوجـد عندهـا الكثـير ممـا قـد تحكيـه لأحـد عـن أبنائهـا أو تصـف بـه مشـاعرها نحوهمـا، الذكريـات وحدهـا هـي مـا تنسـج الحكايـات والمواقـف، وكانـت ذاكرتهـا فارغـة مـن الذكريـات مـع أبنائهـا، كيـف

تخبر عن شخص وأنت غير مرتبط به بذكريات جمعتكما من قبل، مضى وقت طويل منذ آخر مرة رأتهما فيها، الكبير اسمه إليا كان عمره ربما تسع سنوات أو ثمانية أو عشرة، لم تستطع تحديد عمره؛ لأنها لم تكن تذكر يوم ميلاده، والصغير يصغر عن أخيه بعام أو اثنين؛ لأنهما كانا متقاربين في العمر، فسألت نفسها في تعجب: «أليس من المفترض في المواقف المماثلة أن يهرع الأطفال نحو أمهم، فما بال أطفالي لا يبالون بوجودي؟» طلب منها روماني: «هاتِ كرسيك واجلسي يا أيفن، فإن سهيلة ليست غريبة، فسألت نفسها في تعجب زاد عن الأول حيث إنها لم تلحظ وجودها: «ومن هذه المرأه؟». كانت سهيلة مديرة أعمال زوجها أو هكذا كان يسميها؛ واحدة ممن أفرزتهم الألفية الثانية، تدعي مرة أنها ناشطة سياسية تكتب مقالة عنوانها «عيش حرية عدالة اجتماعية» وهي جالسة أمام حاسوبها ومن أمامها زجاجة النبيذ الفاخرة وطبق الكافيار المستورد وعلبة السجائر، تخرج في المظاهرات الفئوية والعمالية، وهي ترتدي تيشيرت بتوقيع أحد الماركات العالمية، وتارة أخرى تلصق لنفسها مسمى علمانية، هذا المصطلح الملتوي ليس غريبًا أن تجد من يقول لك أنا مسلم علماني، أنا مسيحي علماني، أنا يهودي علماني، أو حتى أنا ملحد علماني.

سهيلة خريجة الجامعة الأمريكية التي تحمل قاموسًا عربيًّا لترجمة ما استعصى عليها من الكلمات العربية، عاشت متنقلة بين أمريكا ومصر، والدها ثري أضاع ثروته قبل موته على طاولة القمار، حتى أنه عقد قرانها على نفس طاولة القمار لثري عربي، كان قد اقترض منه مبلغًا كبيرًا، وحين خسره كله قايضه

بابنتـه، عامـان وطلقهـا الـثري، طردهـا هـي وطفـل صغـير كان يشـك في نسـبه حـتى أنـه رفـض التكفـل بنفقاتـه، ولأن رومـاني انتـشر في السـوق وتضخمـت ثروتـه وعلاقاتـه وعلـت مكانتـه، كان عليـه اتخـاذ واحـدة عـلى شـاكلة سـهيلة؛ كي يكمـل وجاهتـه الاجتماعيـة.

عـلى المسـتوى الجمـالي، لـم تكـن سـهيلة جميلـة لـو أنـك أفـردت ملامحهـا، لكـن القبـح إذا تناسـق أنتـج جمـالًا وجاذبيـة، وكانـت سـهيلة تحمـل ملامـح قبيحـة متناسـقة، شـعرها المجعـد المتطايـر الكسـتنائي أعطـى لوجههـا النحيـف الجـاف اتسـاعًا، عيناهـا البنيتـان الضيقتـان أحاطتهمـا بنظـارة طبيـة عريضـة بإطـار أبيـض ممـا جعـل عينيهـا الدميمتـين محـل لفـت للأنظـار، أنفهـا الأطفـس العريـض أنارتـه بقـرط عـلى شـكل وردة صغـيرة دقيقـة الصنـع تجعلـك تهمـل الانتبـاه إلى الأنـف وتركـز في جمـال القـرط وكيـف أنـه متقـن الصنـع، ثـم كثـيرًا، كثـيرًا مـن الخواتـم والأسـاور والسلاسـل الفضيـة ذات الطابـع العـربي المختلـط بالغجـري، أبرزهـم كانـت سلسـلة أحاطـت بهـا رقبتهـا، كان محفـورًا عليهـا كتابـة: «أشـهد أن لا إلـه إلا الله محمـد رسـول الله»، مظعـم ملابسـها عبـارة عـن قميـص خفيـف وبنطلـون جيـنز، تضـع مسـكًا عربيًّـا قـوي الرائحـة لا يتناسـب مـع شـخصيتها، لكنـه كان مناسـبًا جـدًّا لكـم الإكسسـوارات عربيـة الملامـح الـتي ترتديهـا، كانـت رائحتـه نفـاذة لـم تـترك أنـف أيفـن أبـدًا، كلمـا تذكرتهـا أصابتهـا بالغثيـان لمـا حملتـه مـن عبـق نجـس، مـا أثـار غضبهـا صراحـة ليـس وجودهـا في المـنزل بـل حضورهـا مـع أبنائهـا مقابـل غيابهـا عنهمـا، كان مـن الواضـح اعتيادهمـا عليهـا لدرجـة أنـك تحسـبها في هـذا الموقـف هـي الأم وأيفـن هـي الضيفـة، أفاقـت مـن صدمتهـا وتوجهـت مستشـيطة الغضـب نحـو

روماني: «كيف تسمح لامرأة لا أعرفها دخول منزلي والجلوس مع أطفالي». وبنظرة احتقار رمقها بها روماني قال: «اتبعيني، ثمة حوار بيننا من الأفضل أن لا يتقاسمه الأطفال». ثم سحبها: «منذ متى لم تدخلي تلك الحجرة يا أيفن؟ منذ متى لم تدخلي مطبخك وتعدي الطعام لأبنائك، ومتى آخر مرة التقيت بهما إن كنتِ تذكرين؟ إذن ليس لك الحق أن تسم هذا المكان بيتك، وبالتالي ليس لك الحق في تحديد من يدخله ومن لا يدخله، كلمة أخرى إن أردتِ العيش هنا، اعملي بلقمة عيشك، غدًا ستنزلين الورشة، وستبهرينني بتصاميمك المبدعة يا أيفن، أليس كذلك؟». ثم أمسك بيدها يكاد يسحق أصابعها، فأومأت رأسها موافقة حتى يترك قبضته عنها، ذهب صافقا الباب خلفه ليكمل طعامه بين سهيلة والطفلين، أما هي فقد سحبت زجاجة خمر من دولاب قد خصصه روماني، كان يأخذ منه ربما كأس أو اثنين بدون الوصول لمرحلة السكر وغياب العقل مشددًا على أن الرجل الحق هو من لا يدع عقله يغيب ولو هنيهة من الزمن، أما أيفن فكانت في أشد الحاجة لغياب عقلها وقتها.

في اليوم التالي نزلت أيفن الورشة كمن لم تفقد بالأمس أمها، كان من الواضح أن روماني قد توسع كثيرًا في عمله، كما سمعت من العاملين أنه زاد على محله القديم محلين آخرين بالإضافة لمدينة الملاهي ومصنع التسالي والحلويات الذي كان يملكهما، تضخم ثروة روماني آثار بداخل أيفن الدهشة والتعجب، هذا المتسلق النامي كان صعوده كصعود الصاروخ نحو عنان السماء، في يوم كانت في الورشة في المكتب المخصص لإدخال التصميمات من على الورق للحاسوب تتابع التصميمات مع الموظف

الجالـس أمـام الحاسـوب، كان هـذا المكتـب ملاصقًـا لمكتـب رومـاني في الورشـة، المكتـب الممنـوع عـلى أحـد دخولـه، يومهـا كان رومـاني يحـادث شـخصًا مـا ووسـط حديثـه سـمعت كلمـة سـيد جيكـوب، ولـم تسـتطع بعدهـا تفسـير أي كلمـة أخـرى، هنـا انحـل اللغـز أمامهـا كان لجيكـوب اليـد الرئيسـية في تزايـد ثـروة رومـاني، وبمـا أن الأمـر فيـه جيكـوب، فهـو لا محالـة قـد تـم بطـرق غـير شرعيـة ليـس فيهـا إلا الفسـاد والخـراب، سـمعت أيفـن قديمًـا مـن مريـم وجيروزاليـم أن والـد جيكـوب بنيامـين قـد ورث تجـارة السـلاح مـن والـده جيكـوب الجـد، وكان هـو أحـد مصـدري السـلاح لليهـود إبـان حـرب ٤٨ خاصـة أثنـاء الحـروب الأهليـة بـين السـكان الأصليـين الفلسـطينيين، واليهـود المهاجريـن تحـت سـتار شركـة المقـاولات، إذا لمـا لا يكـون رومـاني بـدوره متورطًـا في تلـك التجـارة خاصـة مـع ازديـاد العمليـات الإرهابيـة مـن طـرف الجماعـات المتطرفـة الـتي تهـدد في الأصـل تجـارة ومصالـح المسـيحيين المتعصـب رومـاني لهـم ضـد أي مسـلم سـواء كان معتـدلًا أو متطرفًـا، بمقـدور جيكـوب أن يجعلـك تمسـك السـلاح وأن تضعـه صـوب عقلـك، ثـم تضغـط عـلى الزنـاد وثغـرك باسـم، بمقـدوره تغيـير رؤيتـك والأهـم مـن هذا وذاك أنـه قـادر عـلى تحويـل بوصلـة اعتقاداتـك، كمـا لـم تسـتبعد أيفـن تدخـل يـد جيكـوب في اعتقـال إسـماعيل بالوشـاية عنـه، وبـدا واضحًـا لهـا أنـه هـو مـن وضـع سـهيلة في طريـق رومـاني.

أبعـد رومـاني أيفـن عـن صغارهـا قـدر إمكانـه في الوقت الـذي ودَّت فيـه هـي إصـلاح وضعهـا كأم؛ كي لا تسـقط في نفـس مـا سـقطت فيـه أمومـة مريـم، لكـن رومـاني كان لهـا بالمرصـاد مـا أن يجدهـا اقتربـت مـن واحـد منهمـا حـتى يكلفـه بعمـل مـا، أو يأخـذ منهـا أطـراف

الحديـث ليلهيـه عنهـا، وفي يـوم كانـت أيفـن آتيـة مـن الورشـة محملـة بالألعـاب لصغارهـا، نـادت بـلا مجيـب، بحثـت لكـن بـدون أي أثـر لهمـا، انتظرتهمـا طويـلًا حـتى أتى رومـاني، وبـدون حـتى أن يرمقهـا دخـل لحجرتـه يدنـدن بأغنيـة سخيفة يبـدو أنـه كان يسـتمع لهـا قبـل رجوعـه المـنزل، وكانـت تفـوح منـه رائحـة سـهيلة القويـة، وقبـل أن يغلـق البـاب سـألته: «أيـن أبنـائي يـا رومـاني؟». ظـل صامتًـا ربمـا لدقيقـة خلـع فيهـا حـذاءه ملقيًـا إيـاه أمـام وجههـا، مـرت الدقيقـة دهـرًا وهـي تنتظـر منـه الإجابـة، قـال لهـا: «قلـتِ لي يـا أيفـن مـرة ليتـك مـا أنقذتـني، هـا أنـا أقولهـا لـك، ليتـني مـا أنقذتـك يـا أيفـن». ابتلعـت مـرارة الإهانـة وأعـادت سـؤالها: «أيـن أبنـائي يـا رومـاني». ضحـك بصـوت عـالٍ واسـتلقى عـلى السريـر واضعًـا يديـه أسـفل رأسـه: «وهـل تظنـين أني كنـت سـأترك أبنـاء رومـاني مـع جاهلـة مثلـك، أشـارت عـليَّ سـهيلة بوضعهمـا في مدرسـة داخليـة بأمريـكا». صحيـح أن تعليـم أيفـن متوسـط لكـن رومـاني نفسـه لـم يكمـل شـهادة الإعداديـة، تعصبـت، شـتمته بأقـزع الشـتائم، ألقـت حـذاءه في وجهـه، وكان هـو صامتًـا يبتسـم في وجههـا، بعدهـا بكـت كثـيرًا وتوسـلت إليـه أن يرجـع لهـا صغارهـا، حـين فقـدت الأمـل لملمـت يأسـها وبأسـها سـاحبة زجاجـة خمـر مـن الـدولاب، وكانـت تلـك أول بدايـات إدمانهـا الخمـور، وبطريقـة مـا وجـدت مـن يضـع أمامهـا المخـدرات، فقـد كانـت مستسـلمة للغـرق في بحـر الوحـل المسـمى يـأس بـلا أي مقاومـة.

كانـت علاقـة سـهيلة برومـاني مفضوحـة بالنسـبة لأيفـن، تدرجـت أمامهـا مـن بدايتهـا حـتى نهايتهـا، وكان لا بـد لهـا مـن نهايـة، لكنهـا لـم تتوقـع أن النهايـة سـتعني نهايـة أحـد الطرفـين، انحـدرت أيفـن

في مستنقع الخمور والمخدرات ولم يحاول روماني إنقاذها تلك المرة، بيد أنه بدا له الأمر مسليًّا وممتعًا أن يرى موتها بهذا البطء، وصلت لمرحلة لا تكاد تفيق حتى تتجرع من غيبوبتها مرة أخرى متحاشية الاصطدام بالواقع والماضي معًا، كانت تغيب عن نفسها وتنفصل من ذاتها وتعاود الكرة من جديد.

كان روماني وقد أصبح في مكانة وضعته في عداد الأشخاص المرموقين في البلد، وبالتالي أصبح من الصعب بل المستحيل أن يظهر أن زوجته مدمنة، جرد المنزل حتى من الخدم، كان يوصد الأبواب عليها كي لا تخرج محتجزًا إياها بداخل المنزل تاركًا لها مؤنتها من الطعام والمخدرات، لو أنه كان يملك كلبًا لما عامله كما عاملها، الوحيدة المسموح لها بالدخول كانت سهيلة التي تأتي لتضع الطعام لها وتنظف المنزل، تحممها وتصفف شعرها ثم ترحل، لك أن تتخيل كيف حالها، فقدت الإدراك بما حولها في الفترة الأخيرة قبيل رجوعها لصوابها، تدهورت حالتها بدرجة كبيرة أفقدتها الاتزان لدرجة إسقاط الطعام على ملابسها والتبول دون إرادة، وفي يوم أتت سهيلة كالعادة للمنزل تتفقد أيفن التي كانت مطرحة على أرض المطبخ كجثة هامدة، أخذت سهيلة أيفن من ذراعها تحملها لحجرة النوم فتبولت عليها، المرأة لم تتقزز بل نظفتها وبعدها دخلت لحجرة نوم أيفن لتبدل ملابسها، تبعتها أيفن.

لم تتحدث سهيلة ولو لمرة مع أيفن ولا بأي كلمة، كانت تنفذ مهمتها صامتة وترحل، فتحت دولابها تنتقي منه شيئًا فوقفت لدقائق تتفحص ملابس أيفن وتقلب فيها غير معتبرة لوجودها، معظم الملابس قد حاكتها أيفن بيدها، وطرزت بعضًا منها،

كان يبـدو أن تصميماتهـا اسـتهوت سـهيلة الـتي أخرجـت فسـتانين ووضعـت واحـدًا عـلى السريـر لارتدائـه، والثـاني خبأتـه في حقيبتهـا، خلعـت سـهيلة ملابسـها، فلفـت نظـر أيفـن تلـك النـدوب والجـروح الـتي مـلئ بهـا ظهرهـا، بعضهـا جديـد لـم يلتئـم بعـد، وبعضهـا قـارب عـلى الاندمـال، وآخـر اندمـل تـاركًا ندوبًـا ملاحظـة، لـم تـر أيفـن السـادية مـن رومـاني لكنهـا بـدت جليـة عـلى جسـد سـهيلة، رأت في جروحهـا مـا حدثهـا بـه رومـاني مـن قبـل عـن اضطهـاد بعـض المسـلمين لـه، السـيجارة الـتي أطفأهـا في جسـد سـهيلة كان يقصـد أن يطفئهـا في جسـد حسـن الفـولي الوزيـر السـابق الناظـر لـه باحتقـار ودونيـة جارهـم في شـقة الزمالـك، تلـك الأسـواط الـتي ألهـب بهـا جسـد سـهيلة كان يـود أن يلسـع بهـا جسـد أطفـال القريـة الذيـن كانـوا يقيـدوه ويهـددوه بالصلـب إن لـم ينطـق الشـهادتين، وغيرهـا ممـا مـر بـه رومـاني كالتاجـر المسـلم المتعصـب الـذي رفـض إعطائـه بضاعـة في بدايـة حياتـه؛ لأنـه مسـيحي، والعائلـة الغنيـة التي اسـتضعفت عائلتـه لكونهـا الأقـل مـالًا وعـددًا، رغـم كل مـا تعـرض لـه رومـاني كان مغيبًـا هـو الآخـر بمـا فُعـل بـه، أصبـح كمثلهـم هـو الآخـر متعصبًـا متطرفًـا، كان عـلى رومـاني أن يـدرك أنـه ليـس هـو الـذي مـن الأقليـة بـل مـن اضطهـده هـو الـذي كان مـن الأقليـة، أقليـة مـن المسـلمين الجاهلـين بدينهـم، كان عـلى رومـاني أن يـدرك عـدوه الحقيقـي وأن يؤمـن بـأن طوفـان الـشر سـيأخذ الـكل أقليـة وأغلبيـة ولـن يـترك مـن أحـد.

خططـت أيفـن لنهايـة علاقـة رومـاني بسـهيلة منـذ ذلـك اليـوم الـذي رأتهـا فيـه تحتـل مكانهـا متوسـطة أبنائهـا، كانـت فقـط تنتظـر الفرصـة، وقـد أتتهـا في ذلـك اليـوم عـلى طبـق مـن مـاس،

اليـوم سـتنتقم، وليكـن مـا يكـن بعدهـا ليـس لديهـا مـا تحـزن عليـه، خاصـة بعـد إبعـاد إليـا وأرميـا عنهـا، في ذلـك اليـوم وككل يـوم كانـت أيفـن جالسـة في منفاهـا ترتـدي شـال جيروزاليـم وبيدهـا زجاجـة خمـر فارغـة قـد شـعرت بالكسـل لإحضـار غيرهـا، فتـح البـاب ظنـت أنهـا سـهيلة، منـذ عـام لـم تـر وجـه مخلـوق غيرهـا، حـتى رومـاني مـا عـادت تـرى وجهـه، عـلى كل الأحـوال لـم تكـن تـود رؤيـة وجهـه، لكـن تكهناتهـا خابـت كان الآتي هـو رومـاني، قالـت سـاخرة: «طلـة غريبـة وغـير متوقعـة، أظنـك اشـتقت لي». فأجابهـا: «لا تعكـري مزاجـي، اليـوم افتتـاح فـرح جديـد». ثـم دخـل لحجـرة مكتبـه السـابقة، وكان رومـاني قـد وضـع حقيبـة أنيقـه عـلى الكـرسي، فتحـت الحقيبـة فـكان بهـا فسـتان رقيـق وعقـد ثمـين، اعتقـدت أن رومـاني أحضرهمـا لهـا بمـا أن اليـوم افتتـاح أحـد فـروع سلسـة محلاتـه، فربمـا أراد منهـا الذهـاب معـه كأي رجـل يصطحـب زوجتـه معـه، يـا لسذاجتهـا، هرعـت للحمـام تحممـت ثـم أخـذت الفسـتان والعقـد لحجـرة النـوم لارتدائهمـا، جففـت شـعرها سريعًـا ووضعـت بعضًـا مـن الزينـة والتـبرج عـلى وجههـا، كانـت كالطفلـة سـعيدة جـدًّا، فقـد ملَّـت حوائـط المـنزل، تعاملـت مـع الأمـر بفطـرة الإنسـان المتطلـع للحريـة بغـض النظـر عمـا كان، تدنـت إنسـانيتها بدرجـة أنهـا كانـت مسـتعدة للصفـح عـن رومـاني لـو أنـه أعطاهـا حريتهـا السـابقة، أصبـح الخـروج مـن بـاب المـنزل أقـصى أمنياتهـا بـل أقـصى طموحاتهـا.

خـرج رومـاني مـن المكتـب فبادرتـه وهـي تعـدل مـا ظنتـه ثوبهـا: «بالتأكيـد نسـيت مقـاسي، فقـد امتـلأت قليـلًا، لكـن لا بـأس، فقـد أدخلـت نفـسي فيـه لكـن عليـك العتـبى، كان عليـك إخبـاري للذهـاب

للكوافـير». فاجأهـا رومـاني بضحـكات عاليـة هيسـتيرية جعلتهـا تتلبـك في مكانهـا، ثـم سـحبها مـن يدهـا تجـاه المـرآة، وقـال لهـا في سـخرية: «انظـري لنفسـك هكـذا، لقـد أصبحـتِ كالمسـخ، أي هـراء تقولـين، أجننـت أنـا لـن آخـذك معـي، إني لأسـتحي الوقـوف بجانبـك كشـخص غريـب لا كـزوج لـك، تلـك الملابـس لمـن تسـتحقها، تلـك لسـهيلة». وأخـذ يخلـع عنهـا الفسـتان والعقـد، صرخـت في وجهـه بأعـلى صوتهـا قائلـة: «تـرى هـل تخلـع سـهيلة سلسـلتها المحفـور عليهـا الشـهادتين قبـل معاشرتـك، وهـل تخلـع أنـت صليبـك قبـل خيانتـك لي». رجـت كلماتهـا كيـان رومـاني كلـه حـتى ارتعشـت مقلتَـا عينيـه، فـر مـن أمامهـا سريعًـا مرتبـكًا حـتى أنـه نـسي إغـلاق البـاب بالمفتـاح كالعـادة.

أتـت الفرصـة للانتقـام، آن الآون للخـروج مـن الشرنقـة، لـم تخرج أيفـن كفراشـة لا، بـل كتنـين مجنـح قـادر عـلى اكتسـاح كل مـن أمامه، لبسـت شـال جيروزاليـم وأخرجـت فنجـان قهوتهـا وشربـت عـدة فناجـين مـن القهـوة السـادة كي تسـتطيع شـحذ تركيزهـا وانتباههـا، فتحـت صنـدوق الذكريـات، قبـل عـام وقبل أن يـودع رومـاني أبناءها في المدرسـة كانـت سـهيلة تجـيء للمـنزل تـشرف عـلى أبنـاء أيفـن، تضعهـم عـلى الفـراش لتختـلي برومـاني بعدهـا، كان عـلى رومـاني أخـذ حـذره مـن أيفـن، فهـي امـرأة ولـدت مـن رحـم الهزيمـة تحـت قصـف المدافـع والصواريـخ، وضعـت أيفـن في كل ركـن في الشـقة كامـيرات مراقبـة ثـم حملتهـا عـلى أسـطوانات، أخرجـت الأسـطوانات وخرجـت متجهـة للورشـة وعبـارة مريـم تـرن بأذنيهـا: «لقـد خلقـتِ يـا أيفـن كمقاتلـة، خلقـتِ لتكـوني محاربـة، قاتـلي مـن أجلـك». كانـت الورشـة خاويـة إلا مـن الحـراس والأمـن وبسـهولة أفشـوا لهـا بمـكان

افتتـاح المحـل الجديـد، عـلى الفـور انتقلـت لهنـاك واسـتطاعت شراء المسئول عـن جهـاز عـرض البيانـات والحاسـوب بخاتـم مـاسي تمكنـت في وقـت سـابق اسـتلابه مـن رومـاني لوقـت الحاجـة، وهـا هـي حاجتـه أتـت في ذلـك اليـوم، أمسـكت الميكروفـون وانطفـأت الأنـوار وبـدأ الجهـاز بالعمـل، لقـاءات رومـاني وسـهيلة المحرمـة، حديـث رومـاني عنهـا مـع سـهيلة الـذي فضـح نيتـه بأنـه ينـوي قتلهـا بالبطـيء عـن طريـق المخـدرات، حواراتـه مـع سـهيلة عـن صفقـات المخـدرات والسـلاح الـتي كان يبرمهـا مـن الباطـن مـع جيكـوب، توالـت الطعنـات نحـو رومـاني، واحـدة تلـو أخـرى استطاعت بمهـارة وفي ليلـة واحـدة تجريعـه كل جرعـات الألـم الـتي جرعهـا لهـا مـرة واحـدة، لـم يحتمـل رومـاني وخـر سـاقطًا، أطاحـت بـه الصدمـة، ضربتـه في مقتـل، مـات رومـاني في وقتهـا بأزمـة قلبيـة، واختفـت سـهيلة.

رجعـت أيفـن للمـنزل منهكـة، الرحلـة كانـت طويلـة، ومـا زالـت في المنتصـف، المخـدر ينسـحب مـن عروقهـا والقلـق يعتريهـا، والألـم يعتصرهـا بعـد خروجهـا مـن منفاهـا، ألقـت بـكل الكحوليـات والمخـدرات في صنـدوق القمامـة، صـارت تفتـش كالمجنونـة ولـو عـلى القليـل مـن المخـدر أو أي قـرص، لا تعـرف أحـدًا يمكنـه جلـب المخـدرات لهـا، مـات رومـاني واختفـت سـهيلة، نزلـت للشـارع كمـن هـو ذاهـب للبحـث عـن طفـل تائـه منـه، توجهـت ناحيـة صنـدوق القمامـة لحظتهـا ندمـت ليـس عـلى الانغـراق في الإدمـان لا، بـل عـلى انتقامهـا مـن رومـاني، لـو لـم تنتقـم منـه لمـا وقفـت ذليلـة لصنـدوق القمامـة بـلا مانـع أن يفـرغ محتـواه فـوق رأسـها مقابـل جرعـة مخـدر واحـدة، وقفـت مبعـثرة الأمـاني، تزجرهـا العيـون تـارة،

وترفـق بهـا تـارة أخـرى، تغرقهـا حـتى المـوت، ثـم تنتشـلها، وقفـت بـين البـشر عـلى نفـق مـا بـين الحـب والكـره، أتى واحـد مـن بينهـم تـرى مـن أي الفريقـين هـو، وقـال لهـا: «هـل تحاجـين لمسـاعدة يـا سـيدتي؟». قـد يسـاعدها بيـد وباليـد الأخـرى يلقيهـا في الجحيـم، أو لربمـا يشـعل لهـا المصبـاح لوهلـة ثـم يطفئـه في منتصـف الطريـق، تذكـرت كلمـات مريـم: «خلقـتي لتكـوني محاربـة، كـوني مقاتلـة». هربـت مـن أمـام المجهـول وتوجهـت للمـنزل.

أخرجـت صنـدوق الذكريـات وتفحصـت الصـور، تلـك صورة أورشـا مـع جيروزاليـم في القدس، قـد التقطها لهما أحـد المصورين الجائلين بغـير علـم ديفيـد، تلـك صـورة بولـس أخذتهـا منـه جيروزاليـم في يـوم بعـد أن أقنعتـه للذهـاب كي يلتقـط صـورة مـن أجلهـا، وتلـك كلهـا صـور جيروزاليـم الـتي التقطهـا لهـا ديفيـد في رحلاتهمـا معًـا، وهــذه صـورة مريـم الصغـيرة بـين بولـس وجيروزاليـم، ثـم هـا هـو بنيامـين يدخـل إطـار صـور جيروزاليـم مـرة أخـرى هـو وهـي وبينهمـا جيكـوب، بنيامـين وجيكـوب، ثـم جيروزاليـم وجيكـوب، وجميعهـم بـلا مريـم، مـرة أخـرى مريـم وجيروزاليـم معًـا في الملجـأ، ثـم مريـم وجيروزاليـم في منزلهمـا الجديـد مـع إسـماعيل وكمـال، وهـا هـي مريـم تكـبر وتشـب وتسـتأثر بمحيـط الصـورة وحدهـا بـدون جيروزاليـم، هنـا مريـم في عملهـا الجديـد، هنـا مريـم بـين رفقائهـا ورفيقاتهـا في رحلـة مـا، وثمـة مجموعـة صـور لريـكي، ريـكي فقـط، مـن الواضـح أن مريـم التقطـت جميـع صـوره في غفلـة منـه بـين أصدقائـه، ريـكي مـع جـان عـلى البـار يقلـب سـاعة بـين يديـه، وهـا هـو وسـط الأصحـاب يعـزف الجيتـار، وغيرهـا الكثـير حـتى وقعـت في يدهـا صـوره مهـتزة وعشـوائية يطـل فيهـا ريـكي مـن

ركـن جانـبي، ملتفتًـا لصاحبـة الكامـيرا مريـم، كمـا يبـدو أن ريـكي حينهـا قـد أحـس أن مريـم تلتقـط لـه الصـور عـن بعـد، وبـلا علمـه فباغتهـا بتلـك النظـرة الـتي عـلى أثرهـا ارتبكـت مريـم وغـيرت مسـار الكامـيرا، ولسـان حـال عينيـه يقـول كشـفتك يـا مريـم، بعدهـا أطـل الربيـع في صـور مريـم وريـكي معًـا ليـأت بعدهـا الشـتاء متجـاوزًا الصيـف والخريـف، صـور مريـم مـع عمهـا في حديقتـه، بـين الصـور صورتـان وقـد قسـمتهما مريـم واحـدة لهـا ولريـكي، وأخـرى لمطيـع وتريـزا، وقـد لزقـت نصـف الصـورة الـتي هـي بهـا مـع نصـف الصـورة الـتي بهـا مطيـع، لكنهمـا رغـم محاولـة اللصـق المحكـم بـدا التنافـر واضحًـا في الفعـل وفي خلفيـة المـكان، حـتى أن المشـاعر عـلى الوجـه ظهـرت غـير مقنعـة، أعقبتهـا لحظـة ضيـاع لمريـم لا وجـود لهـا، حـتى أطلـت تعانـق جيروزاليـم مـرة أخـرى حاملـين الطفلـين أيفـن وسـام، وفي صـورة أخـرى بنفـس الشـكل ومـن خلفهـم ريـكي، ثـم ريـكي وأيفـن وسـام، وريـكي ومريـم مـرة أخـرى، كانـت تلـك آخـر صـورة لريـكي بعدهـا لا أثـر لـه، وهـا هـو مطيـع يظهـر مـرة أخـرى يتوسـط أيفـن وسـام مبتعـدة مريـم بنفسـها عـن إطـار الصـورة، جيكـوب يرجـع مـرة أخـرى بصـورة قـد أهداهـا لجيروزاليـم بعـد عودتـه، وقـد كـبر واشـتد عـوده، بعدهـا غيـاب وبـلا عـودة لجيروزاليـم، وهـا هـو سـام يكـبر مـع أيفـن، وهـا هـي أيفـن تتحمـل عنـاء حمـل الصـورة لوحدهـا لتصـور سـام ومريـم، ثـم أيفـن في الكنيسـة وقـد صوروهـا في يـوم جمـع الصدقـات، وواحـدة أخـرى التقطهـا لهـا أحـد المعجبـين وهـي طفلـة تبيـع الفشـار، كان عليـه تسـجيل إعجابـه بـشراء الكميـة كلهـا لا بتصويرهـا صـورة يرفعهـا في صحيفتـه يحـث فيهـا الجميـع عـلى العمـل كـون أنـه حـتى الأطفـال يعملـون، لكـن الواقـع كان عكـس مـا افـتراه، فالواقـع يقـول حـتى

الأطفـال يعملـون ليـس حبًّـا في العمـل بـل مـن الضيـم والعـوز والحاجـة، وعـدة صـور أخـرى في مراحلهـا أيفـن وسـام بـلا مريـم، وجـه آخـر فـرض نفسـه عـلى صنـدوق الذكريـات، رومـاني، جميـع الصـور الـتي أحاطتهـا برومـاني كان بهـا شيء لـم تلاحظـه مـن قبـل، ابتسـامة رومـاني تلـك الـتي لـم يبتسـمها في وجههـا كان يبتسـمها في الصـور، وهـو يبتسـم ليـس لأنـه سـعيد معهـا أو راض بهـا، بـل أنـه كان يبتسـم مـن أجـل نفسـه، هـي السـعادة بالنفـس ليـس أكـثر، ثـم أخـيرًا صـورة قـد نسـيتها سـهيلة عـن قصـد لإحباطهـا أكـثر، صـورة رومـاني يتوسـط سـهيلة وجيكـوب.

وضعـت أيفـن وجـه جيكـوب بمحـازاة وجوههـم جميعًـا، رحلـت أورشـا، رحـل بولـس، رحـل ريـكي ومـن ثـم جيروزاليـم ومطيـع وإسـماعيل وسـام ومريـم ورومـاني في مقابـل صمـود وجـه جيكـوب بـن بنيامـين، لـم يتبـق سـوى هـي وهـو، لا عجـب أنـه كان يسـعى بواسـطة رومـاني للتخلـص منهـا، فـلا يبقـى مـن بـين الوجـوه سـوى وجهـه، أحسـت بوخـز مـا يعـتري جسـدها كله، إنـه المخدر ينسـحب أكـثر وأكـثر، راحـت يدهـا للصنـدوق المصـدف لاجئـة روحهـا للرسـالات السـماوية، ومـن غيرهـا قـد ينجيهـا! تذكـرت نصيحـة جيروزاليـم «إن وددتِ يـا بنيـتي لمـس أحـد الكتـب المقدسـة فعليـك التطهـر والاغتسـال»، وعلمتهـا كيـف تغتسـل، وضعت نفسـها أسـفل المـاء، أحسـت وكأن خطاياهـا تنسـاب منهـا مـع انسـياب المـاء عـلى جسـدها كلـه، ينقشـع ثـوب اليرقـة عنهـا يخـرج منهـا جناحَـا تنـين عمـلاق قـادر عـلى التحليـق.

في صبـاح اليـوم التـالي أعـدت أيفـن عدتهـا للسـفر وتلقـي العـلاج خـارج مـصر، لكـن مـن تأتمنـه عـلى مالهـا وأعمالهـا، تذكـرت جوزيـف

بـن جـان، هـذا الشـخص الـذي ائتمنـه ريـكي عـلى منزلـه وحديقتـه، ثـم توارثـت الأمانـة مـن الأب لابنـه، توجهـت لمـنزل ريـكي لمقابلـة جوزيـف، شرحـت لـه الوضـع وأعطتـه صـوره عـن العمـل مـع عقـد توكيـل لـه بـإدارة أعمالهـا والاتصـال بهـا ومتابعتـه، وبالفعـل لـم يرفـض الرجـل الوقـوف بجانبهـا، ومنـذ حينهـا وجوزيف مديـر أعمالها الأمـين، سـافرت لقرابـة سـتة أشـهر لتلقـي العـلاج حـتى شـفيت تمامًـا مـن إدمانهـا، رجعـت لمـصر تلملـم شـتات نفسـها، وقبلهـا قـد توجهـت لأبنائهـا في أمريـكا اللذيـن رفضَـا تمامًـا الرجـوع معهـا لمـصر، مكتفـين بالـنزول في الأجـازات والعطـلات، لـم تـدرك أيفـن أنهـا تضـع أبناءهـا بـين فـكي براثـن النـار ذاتهـا بوجودهـم في أمريـكا، بيـد أنهـا لـم يكـن لهـا حيلـة معهمـا، ورغـم قناعتهـا الداخليـة أن بعدهمـا هـو دمـار ألحقتـه بنفسـها، كانـت كمـن يغلـف أبنـاءه في ورق هدايـا معطـاة لجيكـوب.

مـرت عـشر سـنوات انكبـت فيهـا أيفـن عـلى العمـل، صانعـة مـن اسـم رومـاني إمبراطوريـة في عالـم المجوهـرات، عـشر سـنوات لم تر فيهـم وجـه جيكـوب مـرة أخـرى رغـم أن ملامحـه مـا فارقـت عقلهـا ولا نفسـها ولـو لمـرة واحـدة، كثـيرًا مـا كانـت أيفـن تسـتيقظ مزعـورة مـن كابـوس كان يطاردهـا فيـه، أو تشـتبه بأحـد الأشـخاص أن يكـون هـو، فتجـده قـد شـبه لهـا في غـيره وعـلى هـذا الحـال، حاولـت أيفـن أكـثر مـن مـرة التقـرب لأبنائهـا، لكـن الأميـال الفاصلـة بينهمـا فصلت حياتهـم عـن أيفـن، ممزقـة كل صـلات التفاهـم والحـوار، وتحولـت مـن أم لمجـرد ماكينـة نقـود يزورونهـا وقـت الحاجـة، وفي يـوم كانـت أيفـن جالسـة تقلـب القنـوات التلفزيونيـة، فـإذا بهـا تفاجـأ بمـن لـم تضـع ظهـوره في حسـبانها، كان أحـد المذيعـين يسـتضيف ضيفـين

مـن المفـترض أن البرنامـج وهـو برنامـج مـن فئـة التـوك شـو الـتي انتـشرت في تلـك الأونـة مـن الألفيـة الجديـدة بزعـم مـن الإعـلام على وجـود مساحة مـن الحريـة معقولـة، تلـك الحريـة المقننـة بمعايـير جـودة الحكومـة والسـلطة العليـا، الحريـة الـتى تقـرع فـوق سـطحها كمـا شـئت بـدون أن تعطيـك سـوى ارتـداد صوتـك؛ لأنـه ببسـاطة عمقهـا أجـوف، هـذا البرنامـج، كان المذيـع يعـرض طرفـين مضاديـن في الفكـر والنهـج، يتحـاور الاثنـان ثـم يشـتد النقـاش ليحتـدم بعدهـا عـراك مفتعـل، ينتهـي بالتصافـح والوصـول لأرض محايـدة، في تلـك الليلـة كان البرنامـج يسـتضيف زعيمـين لحزبـين؛ أحدهمـا ليـبرالي، علمـاني، تحـرري، وسـطي، توافقـي، معتـدل، إلى غـير ذلـك مـن المسـميات المندرجـة تحـت هـذا القبيـل والمناديـة بحريـة الـرءوس مـن الخـارج والداخـل، فـلا يغطيهـا حجـاب ولا يحويهـا عقـل أو منطـق، والطـرف الأخـر كان زعيـم حـزب إسـلامي، سـني، شرعـي، سـلفي، نهجـي، توحيـدي، تنويـري، جهـادي إلى غـير ذلـك مـن المسـميات، هـؤلاء مـن حاولـوا تسـييس الديـن لمصالحهـم السياسـية وإلبـاس السياسـة ثـوب التديـن حـتى تسـير الأمـور عـلى أهوائهـم.

كانـت زعيمـة الحـزب الأول هـي سـهيلة، وكان زعيـم الحـزب الثـاني مـن عائلـة إسـماعيل؛ وذلـك لتشـابه الألقـاب؛ لأن إسـماعيل كان لـه مـن الإخـوة كثـير منهـم مـن سـار عـلى نهـج والـده، ومنهـم مـن اتبـع إسـماعيل، عـلى الفـور اتصلـت أيفـن بجوزيـف طالبـة منـه تقريـرًا يخـص سـهيلة يصـل لـكل مـا يحيطهـا، وأن يدخـل منزلهـا ويتعـرف حـتى عـلى نـوع قهوتهـا، المهـم أن لا يـترك شـاردة أو واردة عنهـا إلا ويعطيهـا بهـا تقريـرًا، اعـترى أيفـن حـدس أن سـهيلة هـي

الخيـط الموصـل لجيكـوب، وكان يمتلكهـا دافـع قـوي عـلى تعقـب آثـار جيكـوب، بـدون أن تنتبـه إلى أن جيكـوب يقـف مـن ورائهـا يتتبـع هـو آثارهـا، كانـت هـي القريبـة منـه وليـس هـو، ورد أيفـن تقريـر عـن سـهيلة في غضـون الأسـبوعين، كان أمامهـا كل جـزء مـن تفاصيـل حياتهـا، جـاءت لمـصر بعدمـا سـافرت لأمريـكا بعـد فضيحتهـا مـع رومـاني، اشـترت مـنزلًا فخمًـا، وأسسـت الحـزب، لـم تتغـير لا في الشـكل ولا في المضمـون، كمـا هـي خادعـة المظهـر تخالهـا عربيـة الهويـة، وهـي غربيـة الخصـال والهـوى، ورغـم هـذا لـم تسـتطع التوصـل لجيكـوب، هـذا الـذي يـسري في الهـواء كسريـان الفيروسـات والأتربـة العالقـة في الجـو بـلا أن نشـعر بـه نستنشـقه، يترسـخ فينـا ويـسري في دمائنـا بـلا وعـي حـتى المـوت بـدون أن يعـرف أحـد بيـد مـن قتلنـا.

في يـوم كانـت أيفـن في المكتـب تتابـع عملهـا كالعـادة مـن الصبـاح وحـتى آخـر النهـار، وصـوت فـيروز يمـلأ المـكان بأريـج زمـن مـر وولى منـذ أزمـان «راجعـين يـا هـوى راجعـين، يـا زهـرة البسـاتين»، كل شيء موضـوع بدقـة في مكانـه، بريـق في كل مـكان مـن نـوع خـاص، أكـثره غمـوض وأقلـه بـوح، وهـج مجهـول لا يعـرف مصـدره، إن كان بريـق المجوهـرات والأحجـار الكريمـة الموضوعـة أسـفل أضـواء خافتـة قويـة التأثـير أم أنـه بريـق تلـك المـرأة الجالسـة في ركـن خـاص بهـا، وإذا بجوزيـف يدخـل مزعـورًا ترتجـف أوصالـه، فسـألته بانزعـاج: «مـا بـك جوزيـف؟». فأجابهـا عـلى الفـور: «مـن تسـمى سـهيلة قـررت إعـلان الحـرب عليـك سـيدتي، في لقـاء صحفـي معهـا أفصحـت عـن نيتهـا لنـشر مـا أسـمته القصـة الحقيقيـة وراء فضيحـة ملـك المجوهـرات، هـي بالفعـل تقصـد رومـاني، ولـن يمـر

الأمـر بـدون التعـرض لـك ولسـيرتك سـيدتي، كمـا أنـه بلغـني أنهـا تنـوي تقـاضي مبلغًـا كبـيرًا لقـاء تصريحاتهـا». أرجعـت أيفـن ظهرهـا للخلـف محاولـة الاسـترخاء لإيجـاد حـل لمـا تدبـره تلـك اللعينـة، طلبـت مـن جوزيـف إحضـار طلـب معـين مـن مـنزل سـهيلة، ثـم تدبـير مـا سـتنوي فعلـه.

بالفعـل في اليـوم التـالي جاءهـا جوزيـف بمـا طلبتـه منـه، أحرقـت الطلـب ولممـت رمـاده في كيـس، طلبـت بالهاتـف بيـتزا، كل هـذا وجوزيـف عاقـد يـده عـلى صـدره تتراقـص عـلى وجهـه علامـات الاسـتفهام بـلا أن يتفـوه بكلمـة، فـأروع شيء أن يعطيـك الله مديـر أعمـال خـدوم وكاتـم أسرار، صبـور غـير ملـح، والأروع أن يكـون ذكيًّـا قابـلًا للتعلـم، وكان جوزيـف كذلـك، جـاءت البيـتزا، أخرجتهـا مـن الصنـدوق عـلى طبـق ثـم وضعتهـا عـلى المنضـدة، وطلبـت مـن جوزيـف تناولهـا معهـا، ظلـت متابعـة لتقاسـيم وجـه جوزيـف تـراه سيسـألها؟ لا، لـم تكـن تظـن ذلـك، هـو يعلـم أن الأمـر سـيجيء في وقتـه، وأن اسـتعجاله لـن يلبيـه غايتـه، أنهيَـا طعامهمـا، ثـم وضعـت حقيبـة الرمـاد في صنـدوق البيـتزا، هنـا شرحـت مغزاهـا لجوزيـف الـذي كاد يحـترق مـن شـدة تحرقـه لمعرفـة مـا قيمـة هـذا الطلـب، ولمـا حرقتـه ولمـا وضعـت رمـاده في صنـدوق البيـتزا.

خرجـت مـع جوزيـف متجهـين لمـنزل سـهيلة، تعلـم أيفـن أن سـهيلة تعشـق البيـتزا، قـد لا تفتـح لهـا البـاب، لكـن مـن المؤكـد أنهـا سـتفتح البـاب لعامـل البيـتزا، ولـو حـتى أتاهـا الطلـب بالخطـأ، وقـف جوزيـف أمـام البـاب حامـلًا البيـتزا ورن الجـرس: «بيـتزا سـيدتي، طلبتـم بيـتزا». أتى صـوت سـهيلة مـن وراء البـاب: «ولكـن، امممـم، لا لا شيء، هاتـي إياهـا». مـا أن فتحـت البـاب واسـتلمت

البتزا من جوزيف حتى ظهرت أمامها أيفن، كادت تغلق الباب في وجهها، لكن جوزيف تلقى الباب على يده دافعًا سهيلة للخلف بعنف مفسحًا لأيفن الطريق للدخول، دخلت المنزل وطلبت من جوزيف انتظارها أسفل العمارة، وجدت سهيلة نفسها في مأزق لا حل له سوى التورط فيه، أشارت لأيفن نحو حجرة ما، رمقتها بنظرة ثقبت عينيها، وقالت وهي تدور بثقة حول سهيلة: «أعلم أنك تشيرين لي للدخول للصالون الإيطالي الفخم، الملقاة أسفله سجادة إيرانية عريقة، ومن أمامه مدفأة فنية ثمينة، لا لن أجلس هناك، ولن أجلس أيضًا في حجرة المعيشة الحديثة ذات اللونين الأسود والأبيض التي تحتضن الجالس فيها بصورة نيويورك الصاخبة، كما أن الأنتريه المرابط في الريسبشن لا يليق بي، وذوقه غير راقٍ برغم المبلغ الذي دفعتِه فيه، حتى ندمك على هذا الأنتريه أنا على علم به يا سهيلة، انظري لن أحيرك أنا سأجلس على الأريكة الفضية القابعة في حجرة نومك، بالظبط أمام الدولاب الذي يحوي قطعتين من ملابسي القديمة، غريب أنك ما زلت محتفظة بهما، سأذهب هناك بينما تعدين أنت لي قهوتي، ولا تنسي أن تضعي القهوة في الفنجان الذي اشتريتِه مؤخرًا من أحد المزادات». كانت أيفن تود إلقاء الرعب في قلب سهيلة، فلا تراوغها وتنصاع لها، جلست على الأريكة عدة دقائق بعدها دخلت سهيلة تحمل فنجان القهوة، وجلست أمامها على كرسي سحبته، تنتظر ما ستلقيه عليها من أوامر، لكن أيفن وتمعنًا في زعزعة أمن سهيلة وإثارة قلقها وخوفها، أخذت تشرب فنجان القهوة في صمت، تستمتع بكل نظرة خوف في عيون سهيلة، تقابل كل رشفة منها للقهوة، بدأت سهيلة تهز أرجلها وتفرك بيدها، وقالت مرتبكة تحاول إبداء الثقة في غضبها: «أنا

أكرهـك يـا أيفـن، أكرهـك، اخرجـي مـن مـنزلي». وضعـت أيفـن فنجـان القهـوة، ثـم اعتدلـت في جلسـتها واضعـة سـاقًا فـوق أخـرى يقابـل حذائهـا وجـه سـهيلة: «لا، أنـت لا تكرهيـني يـا سـهيلة، لا توجـد امـرأه تكـره أخـرى ولا تـزال محتفظـة بملابـس غريمتهـا في خزانتهـا، بـل أنـت تشـعرين بالامتنـان لي، لأني خلصتـك مـن علاقتـك المثـيرة للتقـزز مـع رومـاني، أو لهـذا السـبب كنـت بعـد كل لقـاء معـه تشـعرين بالغثيـان، الـذي يجعلـك تتقيأيـن حـتى أحشـاءك، بالمناسـبة لمـا لـم تُعالجـين حـتى الآن، تلـك النـدوب الـتي تـرك أثرهـا رومـاني عـلى جسـدك قبـل موتـه»، رجعـت سـهيلة لمكانهـا، وفي هـدوء الاستسـلام قالـت لهـا: «مـاذا تريـدي يـا أيفـن؟». أخرجـت مـن حقيبتهـا دفـتر شـيكات، كتبـت فيـه مبلغًـا ثـم قالـت لهـا: «أنـت توديـن فضـح نفسـك لقـاء هـذا المبلـغ، صحيـح؟». ثـم قطعـت الشـيك، وكتبـت واحـدًا آخـر بضعـف الثمـن «لكـني سأشـتري سـتر فضائحـك بضعـف المبلـغ الـذي كنـت سـتتلقيه، ربمـا سيسـاعدك هـذا في ترميـم ندوبـك». أعطتهـا الشـيك وهمـت بالخـروج، وقبـل تـرك منزلهـا قالـت لهـا بالمناسـبة، هـذا الصنـدوق ليـس بـه بيـتزا، بـل رمـاد ملابسـي، فأنـا لا يشرفـني أن توضـع ثيـابي في خزانـة واحـدة مثلـك». علمـت أيفـن بعدهـا أن سـهيلة صرفـت الشـيك ولـم تـصرح بـشيء، كمـا أنهـا لـم ترمـم ندباتهـا.

ظنـت أيفـن أن متاعبهـا توقفـت عنـد حـد سـهيلة، حـتى ظهـر مـا كانـت تخشـاه ولـم تـصرح بـه، الطعنـة هـذه المـرة كانـت قريبـة جـدًّا، كانـت مـن أبنائهـا، في آخـر عطلـة لهمـا رجـع أبناءها إليـا وأرميا، كانـا قـد حدثاهـا مـن قبـل أن إليـا التحـق بالعمـل في إحـدى الـشركات الكـبرى في أمريـكا، الخـبر أسـعدها، جميـل أن يشـب ابنـك مسـتقلًّا

يصنـع مسـتقبله بنفسـه بـدون النظـر لمـا تـرك لـه والديـه، أمـا أرميـا فـكان كالفراشـة، يلـف حـول النـور دائمًـا، مـا كانـت الأضـواء تبهـره، حـاول إيجـاد نفسـه في مـصر كتجربـة ممثـل لكـن فشـل، وفضـل أن يحـوم بجناحيـه الضعيفـين اللذيـن يشـبهان موهبتـه حـول أضـواء هوليـود، غـير مـدرك لحقيقـة أن النجـاح هـو ليـس دورانـك حـول شـعاع الضـوء، بـل هـو أن تكـون أنـت شـعاع الضـوء الـذي يـدور حولـه الـكل ويتبعـه، كمـا أخبرهـا أنـه تعـرف عـلى فتـاة لهـا أصـول عربيـة مـن القـدس، كانـت أيفـن فخـورة جـدًّا بهـذا، وأنـه مـا زال فيـه عـرق يميـل نحـو العروبـة، في هـذه العطلـة وبـلا سـابق علـم لهـا وجـدت أرميـا وإليـا فـوق رأسـها، انهالـت عليهمـا بالقبـلات: «آه يـا بؤبـؤ العـين يـا إليـا، ويـا مهجـة القلـب يـا أرميـا، أخـيرًا ردت لي روحـي، اسـمعا مـن اليـوم جميـع طموحاتكـم سـتحقق عـلى أرض الوطـن، سـيكون لـك مكتبـك الهنـدسي إليـا، وأنـت يـا أرميـا سـتنضم لفرقـة مسرحيـة شـابة تقـدم أعمـالًا عربيـة وغربيـة، ولهـا صيـت وسـط الشـباب يجـدر بـك الالتحـاق بهـا». نظـر الأخـان لبعضهمـا ثـم قـال أرميـا: «لقـد أحـضرت لـك مفاجـأة سـتحبينها كثـيرًا». ثـم نـادى بصـوت عـالٍ، اخرجـي يـا جيروزاليـم، أقبلـت نحوهـا فتـاة، هي أيفـن في شـبابها، نفـس الملامـح والتقاسـيم ولكـن الهيئـة مختلفـة، نفـس العيـون لكـن النظـرة مختلفـة، نفـس الثغـر ولكـن الابتسـامة أيضًـا مختلفـة، كان أرميـا سـعيدًا جـدًّا بهـا مـا أن لاحـت الفتـاة حـتى أشرق وجهـه متفتحـة فيـه شـمس حبـه لهـا، «هـا هـي الفتـاة الـتي حدثتـك عنهـا أمـي، اسـمها عـلى اسـم جدتنـا جيروزاليـم حـتى أني كلمـا نظـرت إليهـا تذكرتـك يـا أمـي». مـدت يدهـا نحـو يدهـا في حـذر تحـاول فـك طلاسـم مـا تـراه قائلـة لتفسـها: «هـي أنـا، أم أنـا هـي، أم كلانـا جيروزاليـم».

أكمـل إليـا حديـث أخـاه معرفًـا الفتـاة لهـا أكـثر فـاكًّا كل الطلاسـم والتعاويـذ أن اللعنـة مـا زالـت تلـف عـلى كل جيـل، ولا سـبيل للتحرر منهـا: «والدهـا السـيد جيكـوب بنيامـين صاحـب شركـة المقـاولات الـتي أعمـل بهـا». قـال لهـا إليـا وهـو يبتسـم بثقـة ولسـان حالـه يقـول الأب وابنتـه في يدنـا، إنمـا الواقـع هـو العكـس، لـم تقـص أيفـن لأبنائهـا أي شيء عـن المـاضي، ولـم تذكـر أمامهمـا اسـم جيكـوب حـتى، كانـت تظـن أنهـا بذلـك أبعـدت لعنـة المـاضي عنهما، لكـن هيهـات، إنهمـا لا يعرفـان أن جيكـوب هـذا هـو خالهـا، وأن جيروزاليـم الصغـيرة هـي ابنـة خالهـا، وهـي ابنـة عمتهـا وكلاهمـا حفيدتَـا جيروزاليـم ابنـة أورشـا سـليلة مردخـاي، إنهـا نبـوءة آسـيا تتحقـق نبتـة الخـير ونبتـة الـشر الـتي انبسـقتا منهـا، نبتـة الـشر الـتي بقـت ونمـت.

أمـا جيروزاليـم الصغـرى الصهيونيـة فقـد كانـت أيفـن تشـك في كونهـا تعـرف كل شيء، بالإضافـة إلى أن جيكـوب كان حريصًـا عـلى تعليمهـا اللغـة العربيـة، لـم تعـش في إسرائيل وكانت تحمل الجنسـية الأمريكيـة، لكـن لـم تظـن أيضًـا أن جيكـوب لـم يقـف بهـا عنـد حائـط المبـكى، ولـم يمـر بهـا عـلى أحيـاء اليهـود القديمـة أو مـنزل جدهـا بنيامـين؛ حيـث حملـت بـه جيروزاليـم نتيجـة علاقـة اغتصـاب غـير شرعيـة، ولـم يقـف بهـا أسـفل شـجرة البلـوط الـتي ولـدت أسـفل فروعهـا جدتهـا أورشـا، بـل إنهـا كانـت متاكـدة أن جيكـوب قـد جـرع ابنتـه كل الأحقـاد والكراهيـة بينـه وبـين ذريـة جيروزاليـم الشرعيـة، ذات الصلـة القلبيـة والروحيـة بالقـدس، اسـتطاعت أيفـن إمسـاك زمـام غضبهـا وحنقهـا، حيـث كانـت كبالـون مملـوء بخيبـة الأمـل غـير قـادرة، فقـدت القـدرة كليـة، أخـذت الضيفـة وابناهـا

لمطعـم فاخـر، لـم تشـأ إدخـال جـزء مـن جيكـوب لبيتهـا، حاولـت أيفـن الجلـوس عـلى كـرسي غـير مقابـل لجيروزاليـم، لكنهـا اختـارت الجلـوس في مواجهتهـا كأنمـا كانـت متعمـدة، نظراتهـا كانـت متجهـة نحوهـا كأنمـا همـا الاثنـان فقـط عـلى الطاولـة متجاهلـة إليـا وأرميـا، أتى الجارســون حامــلًا قائمــة الطعــام، أسرع أرميــا في اتخــاذ قــرار مــا ســيأكل، قائــلًا بفرحــة بلهــاء: «أنــا ســآخذ مثــل جيروزاليــم». وبتصنـع واضـح أراد بـه إليـا مجاملـة للضيفـة الغريبـة: «وأنـا كذلـك مثـل أخـي وجيروزاليـم». اتجهـت جيروزاليـم بعينيهـا نحـو أيفـن تنتظـر ردة فعلهـا اتجـاه انقيـاد أبنيهـا وراء رأيهـا، فطلبـت أيفـن مـن الجارســون: «شــوربة خضــار ولحــم مشــوي». وضعــت جيروزاليــم قائمـة الطعـام عـلى الطاولـة وقالـت مبتسـمة: «وأنـا كذلـك شـوربة خضــار ولحــم مشــوي». ضحكــت في نفســها أيفــن، قــد اســتطاعت جيروزاليــم ابنــة جيكــوب جعلنــا جميعًــا نــأكل مــن نفــس طبقهــا، كان الصمــت حــاضرًا بــين الجميــع حــتى ســأل أرميــا موجهًــا ســؤاله لجيروزاليـم: «جـدتي أيضًـا اسـمها جيروزاليـم، تخيـلي أنـا لا أعـرف معـنى جيروزاليـم». التقطـت أيفـن السـؤال قبـل جيروزاليـم لتجيـب هــي عنــه قبــل أن تجيــب ابنــة جيكــوب عليــه، وتقلــب الحقائــق وتغـير في التاريـخ: «جيروزاليـم هـي القلـب المقـدس ... جيروزاليـم وأورشـا وأيفـن جميعهـا مسـميات لمدينـة القـدس، مهـد الحضارات، مهـد الرسـالات، مهـد مريـم أم عيـسى ويعقـوب أبـو اليهـود، وأول قبلـة للمسـلمين أحفـاد إسـماعيل، وفيهـا كنيسـة القيامـة والمسـجد الأقــصى، أول مــن بناهــا هــو إليــا بــن إرم بــن ســام، هــذا قديمًــا لكــن ســام اليــوم ولــد ضعيفًــا وعــاش بقيــة حياتــه هاربًــا حــتى اليـوم أمـا أرميـا وإليـا فقـد تغربًـا تلبسـهم المـارد الأمريـكي، وطـار بهـم بعيـدًا عـن جيروزاليـم الحقيقيـة»، لـم تكـد تكمـل حديثهـا

حتى وقاطعتها جيروزاليم ابنة جيكوب: «نسيتي أن تذكري أن بها أيضًا كما الكنيسة والمسجد بها هيكل سليمان». أنهت أيفن طعامها سريعًا تاركة المكان تتزعمه جيروزاليم الصهيونية متمنية لهم وقتًا طيبًا.

انتظرت أيفن عودة أرميا وإليا، آن الأوان ليعلموا الحقيقة كاملة، قررت سرد التاريخ أمامهما، وصل أرميا وإليا تظهر على وجوههم السعادة والرضا، فطلب منها أحدهما: «أمي نود استضافة عائلة السيد جيكوب في منزلنا، اختاري الوقت المناسب». أطرقت رأسها نحو الأرض مبتلعة ريقها، وبلا أي مقدمات أخذت تقص الحكاية من بدايتها، حاولت إمساك دموعها في أحداث ما، بينما غلبتها دموع العاطفة في أحداث أخرى، فذرفت الدمع كجمر النار المتقدة بين ضلوعها، أنهت حكايتها وتركت لهم الاختيار بينها وبين عدوها اللدود، بدا عليهما التأثر فاستبشرت خيرًا أنهما قد أحسَّا بوجعها، لكن في اليوم التالي كانت مشاعرهما تبدلت واكتست بالجليد.

- أمي، لما لا ترغبين في مقابلة عائلة السيد جيكوب؟ أحقاد الماضي ألم يحن نسيانها؟

- تسمي الآلام أحقادًا يا إليا؟ أليست شركة جيكوب بنيامين هي إحدى الشركات الأمريكية الراعية للهدم والاستيطان في القدس وفلسطين جميعها، إليا، اسمع أنت وأخاك، كان لأمي وجدتي حياة هناك، حيث السهول الخضراء، اليوم تقيم على رفاة جدي عائلة يهودية، وربما صنعوا من جمجمته مطفأة سجائر، تقول لي عن مئات أقراص المهدئات التي تناولتها أمي على مدى العمر لتنسة ليلة المجزرة والنزوح، مدممة ملابسها

تجـري هـي وأمهـا، تسـابقهما دبابـة تسـاوي البـشر بـالأرض، ربمـا كان يقودهـا والـد جيكـوب، أحقـاد تقـول عـن ليلـة قصـف ولدنـا فيـه أنـا وخالـك، وبسـبب الحـرب لـم تجـد أمـي مـن يسـعف ابنهـا ليصـاب بإعاقـه ذهنيـة طـول العمـر، كل هـذا أحقـاد.

- أنـا وإليـا سـنهاجر لأمريـكا، سـيعمل إليـا مـع جيكـوب، وسـأتزوج جيروزاليـم ابنتـه، وسنؤسـس هنـاك فرقـة مسرحيـة أنـا وهـي.

- أرميـا، إنـك نصـف مطـرب، وثلـث ممثـل، وربـع عـازف، وتصـدق أنـك مبـدع، سـيلاحقك الفشـل مـتى وأينمـا ذهبـت، أمريـكا لـن تهبك النجـاح لمجـرد أنـك اخترتهـا موطنًـا لـك.

- أمـي خريطـة العالـم تغـيرت، واسـتبدل العالـم بغـيره، تاهـت الحـدود، وتصالـح الـشرق مـع الغـرب، اليـوم نعيـش في سـلام، انتهـت الحـرب وهـي فيـك مـا زالـت متأججـة، أمـي استسـلمي، استسـلمي للسـلام.

- خسرنـا الأندلـس بمعاهـدة سـلام، وضيعنـا قضيـة القـدس وفلسـطين تحـت مسـمى السـلام، وانحنينـا للصهاينـة فـوق مكاتبـات كامـب ديفيـد باسـم السـلام، بئـس السـلام الـذي ألبسـنا بـه كرامتنـا للعـدو حـذاء.

سـافر إليـا وأرميـا مـع ابنـة جيكـوب جيروزاليـم، احتـل جيكـوب أبناءهـا، احتـل الأنفـاس الـتي تحيـا بهـا الأرض، أي خسـارة أشـد وأي هزيمـة تلـك، إن جيكـوب يخطـط لصهينـة ذريـة جيروزاليـم باسـم السـلام والمحبـة والوفـاق، لقـد اسـتقر عـلى أن الحـرب بسـلاح السـلام أشـد فتـكًا مـن حـرب السـلاح، حاولـت أيفـن إنقـاذ مـا يمكـن إنقـاذه قبـل دخولـه لفـم جيكـوب، أموالهـا وشـقاء عمرهـا؛ لـذا طلبـت جوزيـف: «جوزيـف، حـتى هـذه اللحظـة لـم تقسـم تركـة

روماني بيني وبين أبنائي، إن ما تركه روماني لم يكن شيئًا أمام ما أنجزته أنا، كيف لي فصل إرث روماني عما كسبته أنا من جهدي وعرقي». طلبت من جوزيف أن يبذل أقصى ما عنده مستخدمًا ولو حتى الحيل والخداع من أجل إقصاء أبنائها من إي إرث، فما صرف على تعليمهم الداخلي في أمريكا يعادل بل يفوق ميراثهم من روماني، ما زالت تقاتل حتى آخر رمق فيها، الموت داخل أرض المعركة شرف وإن ماتت مهزومة.

خلال الخمس وعشرين سنة التي تلت غياب أخيها سام، لم تسمع أيفن عنه خبرًا، ولم يأتيها منه مرسال، حتى جاء اليوم الذي استلمت فيها رسالة مغزاها أن سام على قيد الحياة، يود رؤيتها ولكن العنوان كان غريبًا، بعث لها سام رسالة من إسرائيل، خالفت ظنونها، فليس كل من في إسرائيل يهود ما زال فيهم عرب ٤٨، ربما قرر الرجوع لأصوله الأولى، ربما ذهب للحج واستقر في القدس، لا يهم أيًّا كانت أسبابه يكفيها وجوده بجانبها، جهزت جواز سفرها ملوثة إياه بكلمة إسرائيل وسافرت على جناحي الأمل.

توجهت للعنوان، أي غضب هذا وأي نقمة وأي حسرة لم يكن العنوان سوى لملجأ لليهود المتشردين، أعطت المسئول عن الملجأ الرسالة، أزاح نظارته، صمت لثوانٍ وقال لها: «هذه الرسالة بُعثت لك، وكما يقول التاريخ المدون بعد وفاة سام بثلاثة أيام، لكن لا تحزني لقد عاش سام كأي مواطن إسرائيلي حر، ومات كأي يهودي شريف». وبحجم صدمات العمر كله سألت: «وهل اعتنق سام اليهودية؟» فأجاب: «لقد كان نعم اليهودي يا سيدتي، كان محبوبًا من الجميع، صحيح لم يكن

لـه قريـب ولا صاحـب يسـأل عنـه، لكـن صاحـب الـدار السـيد جيكـوب لـم يكـن يعاملـه كنزيـل بـل كابـن وأخ، بالمناسـبة السـيد جيكـوب موجـود اليـوم لـو وددتِ شـكره». في غيـاب مـن وعيهـا قالـت: «نعـم، أود شـكره». قادهـا نحـو حجـرة جيكـوب، كان جيكوب جالسًا عـلى مكتبـه، أمـر الرجـل بالخـروج وأن يغلـق البـاب خلفـه، اسـتقبل جيكـوب أيفـن بالترحـاب فـاردًا ذراعيـه، احتضنهـا وهـو يقـول: «مرحبًـا بابنـة الأخـت، مرحبًـا بهـا في أرض الميعـاد، مرحبًـا بهـا في إسرائيـل». شـعرت أيفـن كما لـو كانـت بالأمـس حيوانًـا شرسًـا وقـد روضـوه اليـوم، فتحـول لحمـل وديـع، فتـح جيكـوب دولابًـا قديمًـا أثريًّـا بنقوشـات غريبـة تتوسـطه عـين واحـدة أخـرج منـه أسـلحة، جميـع أنـواع الأسـلحة مـا تعـرف ولا تعـرف، وضعهـا فـوق المكتـب الـذي أمامهـا جميعهـا، ثـم أخـرج قـلادة قلبهـا عبـارة عـن عـين تتوسـطه حدقـة ماسـية وضعهـا حـول عنقهـا، وهـي شـبه واعيـة وشـبه فاقـدة الوعـي قـال لهـا: «كان هـذا لجيروزاليـم، آخـر مـا أهداهـا بنيامـين، وكل مـا تركتـه لي قبـل توديعـي بـلا سـلام». وقـف فاتحًـا صـدره أمامهـا: «هـا أنـا أمامـك، اقتلينـي إن شـئتِ». إن مـا حاربـت مـن أجلـه أيفـن موضـوع بـين يديهـا لكنهـا لـم تقتلـه، لـم تهـدده، ولـم تـصرخ حـتى في وجهـه بـل عرضـت عليـه اتفاقيـة سـلام، نعـم اتفاقيـة سـلام، أبناءهـا وأموالهـا مقابـل تركهـا تحيـا مـا تبقـى مـن عمرهـا بسـلام، فـلا يظهـر مـرة أخـرى في حياتهـا بعـد اسـتلابه منهـا مـا يسـتحق الأسـف، هـي تبغـي فقـط السـلام.

تركـت الـدار تمـشي في الطريـق الموحـل بالخطايـا، تـتراءى لهـا أورشـا مـن فـوق الصليـب المصلوبـة عليـه تنعتهـا بالخائنـة، مـن خلـف أورشـا جاءتهـا جيروزاليـم حاملـة رأس بولـس وكفـن إسـماعيل

تصفعها علـى وجهها، تعاتبها في غضب لما خالفت الوعـد، لاحـت لهـا مريـم مـن بعيـد تجـري نحوهـا تحتمـي في حضنهـا، فدفعتهـا ملقيـة عليهـا كل أكـوام أقـراص الـدواء الـتي تناولتهـا، تتهمهـا بأنهـا خذلتهـا، ظلـت تجـري وتجـري مبتعـدة عنهـن يلاحقهـا المـاضي يفترسـها ينهشـها يأخذهـا مـن الحـاضر يتوعدهـا بأنهـا لـن تهنـأ بالسـلام مـا حيـت».

رجعـت أيفـن لمـصر خاويـة اليديـن إلا مـن شـقتها القديمـة حيـث نشـأتها الأولى بـين مريـم وجيروزاليـم، أبيـة عـلى جيكـوب أن يظفـر بيأسـها، مـر زمـن عاشـت فيـه أيفـن مـع الذكريـات حـتى تملكتهـا تمامًـا، تشـحذ فيهـا نصـل العزيمـة لمعركـة آتيـة لا محالـة سـتنتقم فيهـا لـلأرواح الراحلـة بعـار الانهـزام، في صبيحـة ذلـك اليـوم مـن ذلـك العـام اسـتيقظت أيفـن عـلى صيحـات الجمـوع الجـاسرة الخارجـة مـن شرانـق الخـوف، مـن آهـات الأمهـات الثـكلى، ومـن وراء أنـين الزنازيـن ودمـع اليتيـم، خارجـين بأنيـاب سـوداء ومخالـب صقـور، تشـق أصـوات خطاهـم الأفـق بإسـقاط كل مـن أسـقط أورشـا القـدس القديمـة، واغتصـب جيروزاليـم منبتًـا منهـا إسرائيـل، ودفـع مريـم ابنـة المصريـين لقتـل نفسـها بنفسـها، انتشـلت أيفـن الصنـدوق المصـدف حامـل الرسـالات السـماوية، وشـقت الصفـوف وسـط ملايـين، واحـدة ضمـن جيـوش المعركـة الكـبرى، نفـذت أسـلحة العـدو ولـم ينتـه المحاربـون، حرقـوا في صـدور المقاتلـين كل ذخائرهـم، ولـم ينتهـوا، سـحقوا عظامهـم ولـم ينتهـوا، بـل كانـوا يخرجـون مـن بـين أيديهـم ومـن أفواههـم ومـن بطونهـم ومـن أعينهـم، سـارت أيفـن مـع جحافـل الجيـوش البشريـة المـنزوع سـلاحها إلا مـن الغضـب الناقـم تـتراءى لهـا مـن قريـب

جيروزاليـم.

تمت بحمد الله